

الدكتور
جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

دراسات في التاريخ الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مكتبتنا التاريخية العربية مكتبة غنية ، ومؤرخونا العرب لم يتركوا فنا من فنون التأليف التاريخي الا وطرقوه وألفوا فيه ، فكتبوا في التاريخ العام وفي التاريخ الاقليمي ، وفي الخطط وتاريخ المدن ، وفي التاريخ السياسي والاقتصادي والعمراني ، وفي نظم الحكم .

وألفوا في السير الذاتية ، وصنفوا في التراجم ، سواء أكانت تراجم أعيان أو طبقات أو قرون .

ومن المؤرخين العرب من وضع الموسوعات الكبار ذات المجلدات العديدة، ومنهم من كتب الرسائل الصغيرة ، ومنهم من جمع بين هذه الطريقة وتلك .

والمؤرخون المحدثون — من شرقيين وغربيين — يعالجون أحيانا بعض الموضوعات الجديدة أو الطريفة في أبحاث ومقالات صغيرة هي أشبه ما تكون بالرسائل الصغرى التي كان يتناول فيها المؤرخون القدامى موضوعات من نفس النوع ، وينشرون هذه البحوث والمقالات في المجلات العلمية التي لم تكن معروفة في العصور السالفة .

وبعض هؤلاء المؤرخين يعود فينشر هذه المقالات — كلما تجمعت لديه حصيلة منها — في كتاب واحد أو في عدة كتب ، حفاظا عليها من الضياع وسط العديد من مجلدات المجلات ذوات السنوات المتباعدة، ولتكون أيسر

منالا للقارىء، وسجلا لرصد التطور الفكري والاتجاهات العلمية لكاتبها .

وأنا — في هذا الكتاب — أسير على نفس الدرب ، فقد تجمعت لدي عشرون مقالة سبق أن نشرتها خلال العشرين سنة الماضية في مجلات : كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، والجمعية المصرية للدراسات التاريخية ،والمقتطف والثقافة ، والرسالة وغيرها ، أو أذعتها في الإذاعة المحلية لمدينة الاسكندرية

وقد نصحني نفر من أصدقائي الكرام وتلاميذي النجباء أن أجمع هذه الحصيلة في كتاب ، خوفا عليها من الضياع ، وليسهل الرجوع اليها والافادة منها ، فلم أملك إلا أن استجيب لنصحهم شاكرا لهم حسن ظنهم في هذا الجهد المتواضع .

وموضوعات هذا الكتاب قد جذبتني إليها — حين كتابتها — لطرافتها أو لجدتها ، وهي وإن اختلفت آفاقها أو ميادينها فانها تجتمع جميعا في فلك واحد هو التاريخ الاسلامي .

ففي بعضها تصوير للنواحي الإنسانية المشرقة في حياة النبي محمد — صلاة الله عليه وسلامه .

وفي بعضها صور حية لعدد من الشخصيات العربية التي لم تنل حقها من الدراسة كتاج الملوك بورى أخي صلاح الدين الذي مات في عنفوان شبابه ، وشاعر دمشق في العصر الأيوبي والهجّاء الأكبر ابن عنين ، ونابغة الرياضيات في عصر محمد علي بيومي افندي ، وكبير الجراحين في نفس العصر الدكتور إبراهيم النبراوي .

وفي مجموعة ثالثة من هذه المقالات صور من الحياة الاجتماعية ومظاهر العمران والحضارة الإسلامية ، كالاحتفال بوفاء النيل ، وموسم عاشوراء ، وعيد الضحى في التاريخ ، ومظاهرة النساء في العصر الفاطمي ، وتكوين الشعب المصري الجديد بعد الفتح العربي ، وتأسيس مدينة الفسطاط .

وفي مجموعة رابعة ألوان من الحديث عن بعض نظم الحكم في العصور الاسلامية، كنظام الوزارة في العصر الفاطمي، وطريقة مسح الأراضي وتقدير الخراج في مصر الاسلامية ، والروك الناصري .

وفي مجموعة خامسة دراسات جديدة لبعض العلاقات الاقتصادية والثقافية بين مصر والعالم الخارجي ، ومثلها المقال الذي يتحدث عن مصر وطريق الهند في القرن الثامن عشر ، والمقال الذي يترجم للدكتور برُون والشيخين محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي .

وفي مجموعة سادسة عرض جديد لبعض النواحي الغامضة من تاريخنا الحربي كالفصل الخاص بالجاسوسية في حروب بني أيوب والفصل الخاص بمحاولات المماليك فتح جزيرة رودس في القرن الخامس عشر الميلادي .

أما الفصل الأخير من فصول هذا الكتاب ففيه لون جديد من الكتابة التاريخية وهو النقد ، ففيه نقد تحليلي لكتاب المؤلفة الامريكية (إلزي لشتنشتاتر) عن « الاسلام والعصر الحديث » .

وأنا لا أقرظ كتابي ، وإنما أقرر حقيقة حين أقول إن هذه الموضوعات – فيما عدا الموضوعين الأول والثاني – كلها جديدة لم يسبق لأحد قبلي أن تناولها بالبحث ، ولكنني أقرر مع هذا أنني لم أفعل أكثر من أن كشفت الغطاء ومهدت الطريق ، ولا زالت هذه الموضوعات في حاجة إلى مزيد من البحث والاستيفاء – وفوق كل ذي علم عليم .

فإلى الشباب العربي ، وإلى المولعين منهم بدراسة النواحي الغامضة أو المشرقة من تاريخنا القومي – بصفة خاصة – أقدم هذا الجهد المتواضع ، أرجو أن يجدوا فيه بعض المتعة أو النفع أو الحافز للكشف عن جديد آخر غامض أو مشرق .

والله ولي التوفيق

جمال الدين الشيال

محمد المصلح الثائر [1]
في ذكرى مولده

في مثل هـذا اليوم الكريم من كل عام يحتفل المسلمون في أقاصي الأرض وأدانيها بذكرى مولد محمد النبي الكريم -عليه السلام-، وهم إذ يحتفلون بهذه الذكرى المجيدة إنما يحتفلون بخير ما وصلت اليه البشرية من مثل عليا ، ومن مبادىء أخلاقية سامية ، ولا عجب فهو القائل: « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، وفيه قال الله سبحانه وتعالى : « ولو كنتَ فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » ،— وقال أيضاً : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

والكلام عن محمد يوم ذكراه لا تتسع له هذه الدقائق القليلة المعدودة ، فقد ألفت في سيرته وفي دعوته مئات الكتب ، وكل كتاب منها تناول ناحية من نواحي عبقريته ، ومع هذا لم يوفها حقها .

ولكننا ونحن نعيش في عصر ثورة — نؤثر أن نعرض على حضراتكم لمحات من حياة محمد المصلح الثائر : كان الاسلام — رسالة محمد إلى البشرية جمعاء —

....

(١) أذيع هذا الحديث في اذاعة الاسكندرية بمناسبة الاحتفال بمولد النبي عليه الصلاة والسلام .

ثورة من أخطر الثورات التي عرفها التاريخ ، فقد ظهر في مجتمع ضال يؤمن أهله بتعدد الآلهة ، وكانت هذه الآلهة تتمثل في أصنام وأوثان صنعوها بأيديهم ، فهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ومع هذا كانوا يعكفون عليها عابدين . وأعلن محمد ثورته على هذه الآلهة وهذه الأوثان ، ودعا دعوته الجديدة الجريئة ، وكانت خلاصتها الايمان بإله واحد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

ولم يكن طريق الدعوة ممهداً أمام محمد ، بل لقد لقي من المقاومة والمعارضة ما كان حريا أن يبعث غيره من ذوي الهمم الضعيفة على الإقلاع عن دعوته وإيثار السلامة ، ولكن محمداً كان ثائراً ، وكان نبياً ، وكان صاحب رسالة ، وكان ذا إرادة قوية وعزيمة جبارة ، وكانت أبرز صفاته الإيمان ، والايمان القوي برسالته ، لهذا لم يتراجع ، ولم يضعف أمام المعارضة العنيفة التي قابلته بها قريش ، بل قال لعمه عندما حاول إقناعه بالعدول عن نشر رسالته : « والله يا عمي ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

بدأ محمد يدعو للدين الجديد خفية ، فدعا إليه أصدقاءه المقربين وأهل بيته ، فآمنوا به ، وأخذ يجتمع وإياهم في السر للصلاة والتحدث في أمر دينهم ، ثم خطا خطوة أخرى فدعا الناس جهرة ، وبهذه الدعوة العلنية بدأت الثورة وبدأ النضال ، فقد آمن به عدد قليل من أهل مكة ، أما سادة قريش وعظماؤها فقد عجبوا لهذه الدعوة ولم يستمعوا اليها ، بل عارضوها وأخذوا يحاربونها ويحاربون الداعي إليها بكل وسيلة من الوسائل الممكنة ، فسعوا لدى عمه ليقنعه بالعدول عن هذه الدعوة أو أن يرفع عنه حمايته ليكونوا أحرارا في الانتقام منه لآلهتهم ، وحاولوا بعد هذا إغراءه بالمال وبالمنصب وبالجاه ، ثم أغروا به شعراءهم وخطباءهم يهاجمونه ويسفهون آراءه ، ثم اتهموه بالشعر وبالكهانة والسحر ، ثم آذوه وآذوا أصحابه بالسب والضرب والإهانة ؛

ولكن مع هذا لم تلن له قناة ولم تضعف له عزيمة ، بل زادته هذه المعارضة قوة على النضال ، وبدأ يدعو الناس في المجتمعات العامة ، وفي الأسواق ، وفي مواسم الحج .

وبعد بدء الدعوة بعشر سنوات ماتت زوجه خديجة ، ثم مات عمه أبو طالب بعدها بقليل ، وبهذا فقد محمد الرفيق المخلص بفقد زوجه ، وفقد المحامي بفقد عمه ، وفقد أخيراً الأمل في أن تؤمن به قريش .

فقرّ رأيه على الهجرة ، وشجعه عليها أن آمن به بعض أهل المدينة عند اجتماعهم به في موسم الحج ، وعقدوا معه حلفاً ، ووعدوه بالمساعدة إن هو قدم إليهم .

ثم هاجر النبي إلى المدينة ، وتبعه ثمانون من أصحابه الذين آمنوا به ، والهجرة تعتبر حادثا هاما في تاريخ الإسلام ، بل لعلها أهم حوادثه ، فقد بدأ النبي بعدها عهدا جديدا ، عهد الدعوة السياسية وتكوين الدولة الجديدة .

كان أول عمل قام به محمد بعد وصوله إلى المدينة أن أصدر «الكتابَ» أو « الصحيفة » ، وهو أشبه ما يكون بما نسميه اليوم بالدستور ، فهذا « الكتاب » أو هذه « الصحيفة » هي دستور المدينة الأول ، وأول وأهم ما جاء فيه قوله عليه السلام :

« هذا كتابٌ من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومَنْ تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمةٌ واحدةٌ من دون الناس » .

فهذا أول مبدء من مبادىء الصحيفة ، مبدء الوحدة ، مبدء تكوين أمة واحدة تضم المؤمنين من قريش ويثرب ، أي من المهاجرين والأنصار ، ثم يترك هذا المبدءُ بابَ الوحدة مفتوحا يدخل فيه كلٌّ من شاء ممن تبعهم

فلحق بهم وجاهد معهم ، وقد اتسع هذا النص مع الزمن حتى شمل أهلَ المدينة ، ثم شمل أهل الحجاز ، ثم شمل كلّ بلاد العرب ، ثم اتسع بعد ذلك حتى شمل كل العالم الإسلامي ، فأصبح المسلمون جميعا يكونون — تحقيقا لهذا النص — أمّةً واحدةً من دون الناس .

وهذا المبدء ثورة أخرى واضحة ضد النظم العربية القديمة ، النظم التي كان عمادها القبيلة ، والتي كانت تجعل القبيلة وحدةمقفلة لا تضم إلا أفرادها ولا ينضم إليها أحد إلا عن طريق الحلف .

هذه الأمة الواحدة القوية المؤمنة هي التي انطلقت بعد عهد النبي تنشر دينه ومبادءه شرقا وغربا ، وهي التي استطاعت أن تدكّ صروح الامبراطوريتين القويتين : امبراطورية الفرس وامبراطورية الروم ، هذه الانتصارات المتتابعة في هذا الوقت الوجيز أثارت انتباه المؤرخين ،وحاولوا تعليلها ، فوضعوا لهذا التعليل فروضا كثيرة ، فقالوا : ان الدافع الأكبر الذي دفع العرب إلى الخروج من بلادهم وغزو البلاد المجاورة إنما يرجع إلى اسباب اقتصادية تتصل بطبيعة بلادهم الصحراوية الفقيرة ، وقالوا : إن الإسلام ثورة لها رسالة ، وقد اندفع العرب لنشر هذه الرسالة . والذي نراه أن العرب إنما انتصروا على الفرس والروم هذه الانتصارات السريعة الحاسمة لأنهم تبدلوا خَلْقاً جديدا منذ اعتنقوا الاسلام ، لقد بدّل الإسلامُ نفوسهم ، وقضى على الأوهام التي كانت تخيم عليها مع الوثنية القديمة ، وفرض عليهم عباداتٍ جديدة بسيطة تربط بين قلوبهم ، كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وجعل الأمر فيها بين العبد وربه ، فاتصلت أرواحهم بالله سبحانه وتعالى ، وكانت هذه العبادات جميعا تهدف إلى الربط بين معتنقيها ليكونوا قوة قوية .

فالسبب الأكبر في انتصارات المسلمين الأولى وانتشار الإسلام هذا الانتشار السريع إنما هو الروح المعنوية القوية التي أوجدها الإسلام في نفوس العرب ،

فالروح المعنوية والإيمان القوي هو دائماً الدافع القوي للظفر والانتصار ، وصاحبه لا يعرف الهزيمة ولا يرضاها ، فان ارتد يوما فانما ليندفع أشد قوة وأصلب عودا .

وهذا الإيمان القوي هو الغرس الذي غرسه محمد في نفوس أتباعه ، وهو الجذوة التي لا تنطفىء ، والقبس الذي ينير الطريق أمـام المسلمين منذ ظهر الاسلام إلى اليوم بل وإلى يوم يبعثون .

الناحية الانسانية[1]
في حياة محمد عليه السلام

في هذه الأيام يحتفل المسلمون في أقاصي الأرض وأدانيها بذكرى مولد الرسول محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام . وفي هذه المناسبة الجليلة يحلو الحديث عن سيدنا محمد ، ففي الحديث عنه وعن خلقه الكريم وبطولته الفذة وإنسانيته الفريدة شحذ للهمم الوسنانة وإيقاظ للنفوس المتقاعسة ، وإحياء للأرواح الخامدة ، وبعث للعزمات الغافية .

ومن العسير عليّ أن ألم في حديث قصير كهذا بناحية واحدة من نواحي البطولة في محمد عليه السلام ، فقد كتبت في كل ناحية من هذه النواحي الكتب العديدة ومع هذا لا يزال الباحثون يجدون جديداً لم يُستوفَ في حياة هذا النبي العظيم ، فيكتبون ويستقصون ويؤلفون ، وأحسب أنهم سيظلون دائبين على البحث والاستقصاء لتحليل شخصية محمد وإبراز جوانب العظمة في سيرته ونواحي البطولة في حياته إلى يوم يبعثون .

---

(١) أذيع هذا الحديث في اذاعة الاسكندرية بمناسبة الاحتفال بمولد النبي عليه الصلاة والسلام .

ولهذا رأيت أن أشير في هذه الدقائق القليلة إلى ناحية واحدة من نواحي البطولة والعظمة في سيرة نبينا الكريم ، ولعلّ أبرز نواحي هذه البطولة هي الناحية الإنسانية ، فمحمد عليه السلام كان حريصاً دائماً على النص على هذه الإنسانية وتأكيدها في الأذهان ، ففي القرآن الكريم :

« وقالوا ما لهذا الرسول يأكلُ الطعامَ ويمشي في الأسواق » وفيه أيضاً :

« قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » .

ولكنه عليه السلام المثل الكامل للإنسان ، ولا عجب فقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وكانت دعوته في الدين الجديد – الإسلام – تهدف إلى الارتفاع بالانسانية إلى المكان اللائق بها والبعد بالانسان عن مظاهر الرق والضعف والذل والخضوع .

ولم يكن محمد – رغم مكانته – يتعالى على الناس ، بل كان يضرب لهم المثل دائماً في التواضع والرقة والعطف على الضعيف والمسكين والبر بالفقير والمحتاج ، لقد كان محمد أعظم من الملوك وأجل من الأباطرة والأكاسرة والقياصرة ، ولكنه كان يقول لأصحابه : –

« لا تطروني كما أطرتْ النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد الله ، فقولوا عبد الله ورسوله » .

وخرج مرة على جماعة من أصحابه فقاموا له فقال : –

« لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعَظّم بعضُهم بعضاً » .

وكان إذا بلغ في مسيره أصحابه جلس منهم حيث انتهت به المجلس ، وكان يبدأ أصحابه بالمصافحة ، وإذا لقي إنساناً بدأه بالسلام ، ولم يكن هذا أسلوبه في حياته العامة وحسب ، بل كان أسلوبه أيضاً في حياته الخاصة ، فقد كان في بيته يطهّر ثوبه ويرقعه بنفسه ، كما كان يحلب شاته ، ويخصف نعله ، ويعقل البعير ، ويخدم نفسه ، ويأكل مع الخادم .

وهكذا كان يضرب محمد المثل الطيب للإنسان في عصره وفي كل العصور كيف يكون إنساناً، وإذا كان الغربيون يتمشدقون بالحديث عن المبادىء التي أسفرت عنها الحضارة الغربية والثورات الغربية من إعلان حقوق الإنسان ، ومن المناداة بالمبادىء الثلاثة : الحرية والإخاء والمساواة ، فقد سبق محمد بثورته والمبادىء التي رسمها الإسلام هذه الحضارات والثورات الأوروبية بقرون كثيرة .

فقد كان العرب قبل الاسلام يعبدون آلهة عدة، يعبدون أصناماً لا تملك لهم ولا لنفسها ضراً ولا نفعاً ، وجاء محمد بثورته الإسلامية يدعوهم إلى التخلص من هذه الخرافات جميعها ، يدعوهم إلى التحرر من قيود هذه العبادات فلا يعبدون إلا إلهاً واحداً ، هو خالقهم وخالق الناس أجمعين . وإذا كان لكل ثورة قامت في التاريخ فلسفة ورسالة فإن فلسفة الثورة الإسلامية ورسالتها كانت الدعوة إلى الحرية بجميع أنواعها ، وكانت الدعوة إلى الوحدانية ، فالاسلام دعا الناس إلى التحرر من الخوف فلا أصنام ولا أوثان ولا كهان ، وإنما إله واحد لا شريك له ، أمامه وحده يُسألُ الانسان عما قدّم من خير أو شر .

وأعماله وحدها هي المقياس ، وهي الشفيع ، وضميره وحده هو الذي يحاسبه ويراجعه ، لا سلطان لأحد أو لقوة عليه ، وهو بعدُ مطالب أن يعتزّ بانسانيته ، فلا يسمح لأحد أن يهدر كرامته ، أو أن يعتدي عليه ، فأي حرية أكمل من هذه الحرية .

والاسلام يدعو إلى الاخاء والتوادد والتعاطف والايثار ، وكان محمد عليه السلام في حياته خيرَ مثال لهذه المبادىء جميعاً ، فكان يسارع إلى مساعدة الضعيف ومعاونة البائس والمسكين ، وإذا رأى أحداً في حاجة آثره على نفسه وأهله ولو كان بهم خصاصة ، وكان محمد في كل حياته برّاً رحيماً ، يعود المريض ويرعى المرأة ، ويحدب على الأطفال ، فكان يترك بنى بناته يداعبونه

وهو قائم للصلاة ، لا يزجرهم ولا ينهرهم ، بل لقد روى أنه عليه السلام صلى مرة بأمامة ابنة بنته زينب وهو يحملها على عاتقه ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها .

ولم يكن بره وعطفه مقصورين على الانسان وحده ، بل شملا الحيوان كذلك، فكان يذهب بنفسه ليفتح بابه لقطة جاءت تلتمس عنده ملجأ،وكان يمسح لجواده بكم قميصه ، وكان يقوم بنفسه على تمريض ديك مريض .

وروي أن عائشة ركبت بعيراً فيه صعوبة ، فجعلت تردده ، فقال لها : « عليك بالرفق » .

والاسلام يدعو أخيراً إلى المساواة التامة فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، يدعو إلى المساواة التي تصل بالمسلمين إلى الوحدة والقوة .

أنظر إلى العبادات التي فرضها الإسلام ، إنها خير شاهد لايضاح هذه الفكرة وتأكيدها .

لقد بدل الاسلام نفوس معتنقيه ، وقضى على الأوهام التي كانت تخيم عليها مع الوثنية القديمة ، وفرض عليهم عبادات جديدة بسيطة تربط بين قلوبهم كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، وجعل الأمر فيها جميعاً بين العبد وربه ، فاتصلت أرواحهم بالله سبحان وتعالى ، وكانت هذه العبادات جميعاً تهدف إلى الربط بين معتنقيها ليكونوا قوة قوية ، فهم في الصلاة يجتمعون دون فارق ، ويؤدون حركات واحدة ، ويبتهلون ابتهالات واحدة ، وتوجههم جميعاً إلى الله ينزع ما في نفوسهم من غلّ ، ويؤدون فريضة الصوم غنيهم وفقيرهم ، لا فارق بينهم أمام الله والناس ، بل يُطهّر الصوم نفس غنيهم فإذا به يعطف على الفقير ، وهم يؤتون الزكاةالتي تجعل للفقير حقاً معلوماً في مال الغني، وبذلك يزول ما بين الطوائف من صراع ونضال وحقد وكراهية . ثم يجمعهم الحج أخيراً كل عام ليتواصوا بالصبر والصلاة ، وليتعاونوا على البر والتقوى ، وليتبادلوا الرأي في مشكلاتهم .

وكذلك كان النظام الاجتماعي في الاسلام كالنظام الروحي بسيطاً سهلاً ، يهدف إلى المساواة التامة ، فالمساواة أمـــام الله أساس التوحيد الاسلامي ، والمساواة أمام القانون أساس النظام الاجتماعي .

بهذه المبادىء السامية التي دعا اليها محمد ـ عليه السلام ـ ساد المسلمون في عصرهم الأول ، بهذه المثل العليا التي لا تستطيع فلسفات العالم أجمع أن ترقى اليها عاش المسلمون ردحاً من الزمن أعزة كراماً أقوياء ، وبهذه المبادىء وحدها يستطيع المسلمون اليوم أن يستعيدوا أمجادهم

وصدق الله العظيم في قوله :

« إن الله لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

الفسطاط [1]

كيف اختير مكانها ؟ ولم سميت بهذا الاسم ؟

يستطيع القارىء لأخبار الفتح العربي لمصر أن يلمح في يسر ووضوح أن الحرب لم تكن قائمة إلا بين العرب والروم ، وأن القبط قد وقفوا من الجيشين موقف المحايد ، وإن كانوا في سرائرهم يتمنون النصر للعرب، لما سمعوه عنهم من حسن السياسة وطيب المعاملة ، ولهذا استمر الروم يدافعون عن مصر وراء حصن بابليون سبعة أشهر طوالاً ، والعرب يستمدون من الحماسة الدينية والإيمان قوة لا تأبه للعقبات وصبراً لا يعرف الملل .

ولما سقط هذا الحصن في أيدي العرب زالت من طريقهم أكبر عقبة من عقبات الفتح ، وتراجع الروم إلى الاسكندرية ، فتبعهم المسلمون وحاربوهم حتى استولوا عليها ، وبسقوط العاصمة الرومانية في أكتوبر سنة ٦٤١م تمّ فتح العرب لمصر ، فانتشروا في ربوعها حتى وصلوا إلى الشلال الأول ، وبذلك أصبحت مصر ولاية من ولايات الخلافة الاسلامية .

---

(١) نشر هذا البحث في : (مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد الثاني عشر ، ١٩٥٨) .

عمرو يريد أن يتخذ لمصر عاصمة :

روى ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبي حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغاً منها همّ أن يسكنها وقال: «مساكن قد كفيناها» ، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستأذنه في ذلك ، فسأل عمر الرسول : « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ » ، قال : « نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل » ، فكتب عمر إلى عمرو « إني لا أحب أن ينزل المسلمون منزلاً يحول الماء بيني وبينهم فيه شتاء ولا صيفاً » ، فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط[1] .

قد تبعث هذه الرواية على التساؤل : لم كان عمر يخشى الماء ؟ يقول بعض المؤرخين إن العرب لم تكن أمة بحرية ، وبذلك أبى بعد النظر على عمر أن يلقى بجنود المسلمين في مكان يفصل بينه وبين المدينة ماء حتى لا يكون هذا الماء إذا حز بهم الأمر حائلاً بينهم وبين الوصول إلى مركز قوتهم ، وإذا أراد الخليفة أن يبعث إلى جنده بمصر مدداً لم يكن هناك ماء يعترض سبيل هذا المدد ويمنع وصولهم .

وقد ذكر السيوطي في حسن المحاضرة أن ابن عبد الحكم قد أخرج عن يزيد بن حبيب أيضاً أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو نازل بمدائن كسرى ، وإلى عامله بالبصرة ، وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية : « أن لا تجعلوا بيني وبينكم ماء متى أردت أن أركب اليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت » ، فتحوّل سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة ، وتحوّل صاحب البصرة من المكان الذي كان فيه فنزل البصرة[2] ،

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢٧ ، ج١ ، ص ٥٧ . .

(٢) في عهد عمر بن الخطاب فتح المسلمون العراق ، « وهناك على شط العرب اختط الأمير عتبة بن غزوان مدينة البصرة وجامعها ودار امارة بجواره حوالي سنة ١٤ ﻫ (٦٣٥) ، فكانت أول مدينة أسسها المسلمون ، وبعد ذلك وعقب معركة القادسية أسس الأمير سعد بن أبي ←

وتحوّل عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط [1] .

من هذا نرى أن رغبة عمر في أن لا يحول بين المسلمين وبينه ماء لم تكن مقصورة على مصر بل كان يريدها أن تتوافر في كل الأمصار التي فتحها العرب .

ويقول فريق آخر من المؤرخين ومنهم المستشرق الانجليزي Lane poole في كتابه The Story of Cairo أن عمر لم يكن قد رسم لنفسه خطة ثابتة لتكوين أمبراطورية إسلامية واسعة ، ولذلك كان يريد أن يكون على اتصال دائم بجيوشه التي خرجت للفتح ، وإذ كان الطريق بين بلاد العرب والاسكندرية قابلا للانقطاع في زمن الفيضان فينقطع بذلك سبيل الاتصال بينها وبين المدينة عاصمة الخلافة ، فقد كتب عمر إلى عمرو يأمره أن يتخذ له حاضرة أخرى غير الاسكندرية .

ويبدو عند مقارنة هذين الرأيين — أحدهما بالآخر — أنه ليس للرأي الثاني من القوة والصحة قدر ما للرأي الأول ، وذلك لأن النشاط الذي أبداه عمر منذ ولي الخلافة وإرسال الجيوش تلو الجيوش إلى الشام وفارس مصر ، كل هذا يثبت بالبرهان القاطع أن المستشرق الانجليزي لين بول إنما قال ما قال من باب التعليل والاستنتاج العقلي فحسب .

ولهذا أعرض عمرو عن الاسكندرية وولى وجهه شطر الفسطاط .

وقاص مدينة الكوفة سنة ١٦ — ١٧ هـ (٦٣٧ — ٦٣٨) ، وأنشأ بها مسجداً جامعاً وداراً للامارة أيضاً ، فلما فتح الأمير عمرو بن العاص مصر اقتدى بالأميرين السابقين ، فاختط الفسطاط وأنشأ بها في سنة ٢١ هـ (٦٤١ — ٦٤٢) جامعه المعروف » أنظر : محمود أحمد : جامع عمرو بن العاص ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ١ ، واليعقوبي : كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١ ، ص ٣٢٣ .

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، نفس الجزء والصفحة ، وانظر أيضاً : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٨٥ حيث يقول : « وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه منع المسلمين من الغزو في البحر شفقة عليهم » .

لنا أن نتساءل مرة أخرى : لم اختار عمرو هذا المكان دون غيره لبناء مدينة الفسطاط ؟

وهنا تتشعب الآراء وتتعدد ، ولكنها برغم تشعبها وتعددها لا تصل بنا إلى رأي حاسم معقول ، فغالبية المؤرخين المصريين كابن عبد الحكم ، وابن دقماق، والمقريزي، وأبو المحاسن،والسيوطي وغيرهم يروون حادث اليمامة على أنه السبب الأساسي لاختيار عمرو لهذا المكان ، ونزوله وجيشه بين ربوعه ، وغالبية المؤرخين الفرنجة كبتلر ، ولين بول ، وكازانوفا وغيرهم لا يهتمون بمناقشة الأسباب التي دعت عمراً لاختيار هذا المكان دون غيره قدر ما يهتمون بمناقشة الآراء المختلفة في سبب تسمية هذه الحاضرة بالفسطاط .

ورغم أنهم يستطرفون قصة اليمامة فـإنهم يرجعون هذا الاسم إلى الكلمة الأغريقية Fossatum (أي المدينة) ، ويقولون بأن العرب نقلوها عن الروم الشرقيين عند اتصالهم بهم في حروب الشام .

غير أننا نحب أن نعنى بالأمرين جميعاً لمـا لكل من الأهمية ، ولذلك سنحاول :

(أولاً) مناقشة الأسباب التي دعت لاختيار هذا المكان ليكون حاضرة الديار المصرية بعد اتمام الفتح الحربي .

(ثانياً) مناقشة الأسباب التي دعت لتسمية هذا المكان بالفسطاط .

١ - أسباب اختيار هذا المكان :

أمـا عن الأمر الأول فيقول المقريزي في خططـه : « اعلم أن موضع الفسطاط الذي يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع . فيما بين النيل والجبل الشرقي الذي يعرف بجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ، ينزل به شحنة المتولي على

مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الاسكندرية ، يقيم فيه ما يشاء ثم يعود إلى دار الامارة » [1] .

من هذا يبدو أن العرب قـــد أنشأوا مدينتهم « الفسطاط » في الفضاء المجاور لحصن بابليون – مقر الدفاع الروماني – ، وهنا نجد اختلافاً آخر بين المؤرخين بشأن كلمة « بابليون » ، فالبعض يطلقها على الحصن فحسب ، والبعض الآخر يقول بوجود مدينة حول الحصن كانت تسمى بهذا الاسم ؛ وزعيم الفريق الثاني هو الدكتور بتلر وقد لخص رأيه في هذه الفقرات :

١ – كانت تقوم في زمن الفراعنة مكان مصر القديمة (الفسطاط) مدينة ذات شأن يدل عليها وجود بعض التماثيل المصرية ، مثل « سرية أبي الهول » وان بعضاً من هذه التماثيل بقي حتى زمن الخليفة الحاكم الفاطمي [2] .

٢ – وفي القرن السادس قبل الميلاد اتخذ البابليون لهم في هذا المكان معسكراً حربياً وأنشأوا هنـــاك حصناً على المرتفعات الصخرية التي سماها العرب فيما بعد « الرصد » .

٣ – ومن هذا المعسكر انتشر اسم « بابليون » حتى شمل الاقليم المجاور ، وأصبح الاسم المميز لمدينة عظيمة تمتد بعيداً شمال الرصد حتى تتصل بأطراف المدينة القديمة العظيمة المنحلة وقتذاك « هليوبوليس أو عين شمس » .

---

(١) المقريزي – الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥٩ ، مطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .

(٢) يذكر ابن دقماق في كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » جـ ٤ ، ص ٢١ - ٢٢ ، بولاق ١٣٠٩ هـ ، عند كلامه عن الأزقة التي كانت بالفسطاط « زقاق الصنم » ، ويقول إنه سمي بهذا الأسم لوجود صنم به كان يسمى « سرية أبي الهول » وقد هدمه الأمير بلاط سنة ٧١١ هـ ، في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون (أنظر أيضـــاً : المقريزي : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ ، ويتفق مع هذا أيضاً ما رواه ابن الفقيه في كتابه البلدان ص ٦٠ عن وجود تمثال آخر من الحجر لامرأة كان بالفسطاط ، وما رواه المقدسي في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » ص ٢١١ ليدن ، سنة ١٨٧٧ ، اذ يقول : « وفي الفسطاط عند قصر الشمع امرأة ممسوخة على رأسها سفرة من حجر .. الخ » ؛ هذا وقد عثر في السنوات الأخيرة على قطع من الحجر في حفائر الفسطاط مكتوب عليها بالخط الهيروغليفي وقد نقلت الى دار الآثار المصرية .

٤ — وعندما أراد تراجان أن يعزز قوته عند رأس الدلتا واعتزم أن يبني حصناً قوياً كقلعة لبابليون ترك حصن الفرس القائم على الرصد ، وأنشأ قلعته على شاطىء النيل ، وذلك ليضمن وجود المـــاء بالقرب من حاميته ، ولتستطيع تلك الحامية الاتصال — بوساطة النيل — بسائر جهـــات القطر المصري ، وسمى هذا الحصن بحصن بابليون (أي حصن مدينة بابليون) أو قلعة مصر Castle of Khemi وقد حرف العرب هذا الاسم فيما بعد فسموه قصر الشمع .

٥ — وبذلك هجر حصن الرصد الفارسي واستولت عليه عوامل الانحلال والنسيان ، حتى إذا كان الفتح العربي بعد ذلك بخمسة قرون ونصف قرن كانت الأخبار عن وجوده عامة لا تكاد تذكر .

٦ — أن اسم بابليون الذي وجده العرب عند قدومهم يطلق على مدينة مصر قد تلاشى بمرور الزمن وحل مكانه الاسم العربي الجديد « الفسطاط » ، حتى إذا ابتـــدأ مؤرخو العرب يدونون كتبهم كان اسم « بابليون » قد أصبح يطلق على قصر الشمع فحسب ، بعد أن انتزع من المدينة التي أصبحت بعد اتساعها ونموها تسمى بالفسطاط .

٧ — ولكن هذا الاستعمال المحدود للاسم ابتدأ كذلك يتلاشى في مصر في الأزمنة الحديثة ، وغادر الاسم الأنقاض الباقية من قصر الشمع ، وتضاءل حتى غـــدا يطلق على دير قبطي صغير يقع عند البوابة الجنوبية من الحصن ويسمى « دير بابليون »، وعند ذلك الدير الصغير استقر ذلك الاسم التاريخي القديم بعد أن خلفه في تسمية المدينة « لفظ الفسطاط » ، وبعد أن خلفه في تسمية الحصن لفظ « قصر الشمع » [١].

ونحن لا يهمنا من هذا التحليل كله لتطور استعمال كلمة بابليون إلا أن نعرف أن المكان الذي أنشئت عليه الفسطاط كانت تشغله منذ أيام الفراعنة

(١) Butler : Babylon of Egypt. Oxford, 1914, P. 62 – 63.

مدينة كبيرة ذات شأن اتخذها البابليون مكاناً لاستقرارهم ، ثم اتخذها الرومان مقراً لدفاعهم يصلون به الوجهين البحري والقبلي ، ويدفعون منه كل مغير على مصر .

وهذا ما يؤيد الرأي الذي نريد أن نذهب اليه من أنه كان في مصر وقت الفتح مدينتان هامتان : إحداهما الاسكندرية وتعتبر العاصمة الأولى وذلك لقربها من الدولة الرومانية الشرقية صاحبة السيادة وقتذاك ، ولاشرافها على البحر الأبيض المتوسط، وبابليون أو « مصر » ، وتعتبر العاصمة الثانية وذلك لموضعها من رأس الدلتا بحيث تشرف على الوجهين القبلي والبحري ولوقوعها على شاطىء النيل بحيث تكون سهلة الاتصال – بوساطة هذا النهر – بكل أطراف القطر المصري ، ولتوسطها بين النيل غرباً (وهو مورد من الماء لا ينفذ) وبين جبل المقطم شرقاً – وهو حد طبيعي لحمايتها – ، ولهذا نلاحظ أن المصريين منذ القدم كانوا يختارون هذا المكان مقراً لحكمهم للأسباب المتقدم ذكرها [١] ، فاتخذوا منف عاصمة لهم مدة ليست بالقليلة، وكانت هليوبوليس (عين شمس)[٢] كذلك حاضرة لمصر مدة طويلة[٣] ، وبابليون كما ترى تقع بين المدينتين[٤] ، يقول ابن حوقل في كتابه « المسالك والممالك » : عين شمس ومنف قريتان قد خربتا كانتا متنزهاً لفرعون ... عين شمس عن شمال الفسطاط ، ومنف عن جنوبه .. »

---

(١) يقارن هذا بما ذكره ابن خلدون في مقدمته ص ١٩٠ – ١٩١، القاهرة سنة ١٣٢٢هـ، عما تجب مراعاته في أوضاع المدن .

(٢) يقول ابن دقماق ، ج ٤ ، ص ٣ نقلاً عن ابن سعيد : « كانت مبانيها (أي مباني مصر) في قديم الزمان متصلة بمباني عين شمس » .

(٣) وقد بنيت العواصم المصرية الأخرى كلها شمال هذا المكان : « العسكر سنة ١٣٣ هـ ، والقطائع سنة ٢٥٦ هـ ، والقاهرة ، سنة ٣٥٨ هـ » .

(٤) يعين ابن الفقيه في كتابه (البلدان) موقع الفسطاط (بابليون) بالنسبة للمدينتين القديمتين في قوله : « وعين الشمس على ٣ فراسخ من الفسطاط ، ومنف مساكن بينها وبين عين شمس ٣ فراسخ » .

ويؤيد هذا الرأي القائل بوجود هذه المدينة أيضاً قول المقريزي : « وكان بجوار هذا الحصن (بابليون) من بحريه وهي الجهة الشمالية أشجار وكروم ، وصار موضعها الجامع العتيق ، وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى في الموضع الذي يعرف اليوم براشدة ، وبجانب الحصن فيما بين الكروم التي بجانبه وبين الجرف الذي يعرف اليوم بجبل يشكر حيث جامع ابن طولون والكبش عدة كنائس وديارات للنصارى في الموضع الذي كان يعرف في أوائل الاسلام بالحمراء »[1]

وقول ابن سعيد في كتابه المغرب :

«وأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت في القديم متصلة بمباني عين شمس ، وجاء الاسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن »[2] ونحن نعرف أن المعابد عامة — من هياكل وبيع وكنائس ومساجد — منذ أقدم العصور إلى اليوم لا تبنى إلا في المدن أو الأماكن الآهلة بالسكان ، فوجود هذه الكنائس والديارات في الأماكن التي يذكرها المقريزي يثبت إثباتاً قاطعاً وجود مساكن آهلة ومبان عامرة في هذه المدينة القديمة وقت الفتح ، وقول ابن سعيد لا يحتاج إلى هذا الاستنتاج إذ يقول في عبارة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام : « وجاء الاسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن » .

من هذا كله نرى أن اختيار عمرو لهذا المكان لم يقع اعتباطاً ، بل كان اختياراً طبيعياً ؛ كان عمرو يريد أن يتخذ له حاضرة يستقر فيها ، غير أنه ما كان يريد أن يبذل جهداً جديداً في إنشاء هذه الحاضرة بدليل رغبته في اتخاذ الاسكندرية حاضرة ، وبدليل تعبيره عن هذه الرغبة بقوله : «مساكن

(١) المقريزي : المرجع السابق ص ٦٠ .
(٢) نفس المرجع ص ٦٢ .

قد كفيناها »،[1] ولكن عمر قد أمره أن يتحول عن الاسكندرية فكان لزاماً على عمرو أن يحول وجهه شطر العاصمة الثانية وقتـذاك وهي « بابليون » أو « مصر » ، فذهب اليها واتخذ الفضاء المجاور لها مقراً له ولجنوده .

هذه هي الأسباب الطبيعية التي دعت عمراً لاختيار هذا المكان ، غفل عن ذكرها مؤرخو العرب ، ولم يعرها اهتماماً مؤرخو الفرنج .

٢ ـ لم سميت المدينة بهذا الاسم ؟

أما عن الأمر الثاني وهي الأسباب التي دعت لتسمية هذا المكان بالفسطاط فإن الآراء فيها وإن اختلفت وتشعبت فإنها كـذلك لا تصل بنا إلى حل حاسم معقول .

أما مؤرخو العرب فيعتمدون جميعاً على قصة اليمامة ،وأما مؤرخو الفرنجة فتقول غالبيتهم بأن كلمة الفسطاط قد أخذت عن الكلمة الاغريقية Fossatum أي المدينة،وأن العرب نقلوها عن اليونان عند اتصالهم بهم في حروب الشام .

غير انا نرى ان قصة اليمامة مع طرافتها قد تبعد عن الصحة ، وذلك لأنهم يقولون ان عمراً قد أوصى أحد المصريين – في رواية – او صاحب القصر – في رواية اخرى – بالمحافظة على الخيمة « الفسطاط » حتى تفرخ اليمامة وتطير صغارها ، وأنه عند رجوعه وجد الفسطاط في مكانه ، فـــنزل هو وجنده بجواره ، ونحن نشك في صحة هذا الخبر لأن عمراً ولو انه كان قد استولى على حصن بابليون فإن مصر لم تكن قد خضعت كلها لأمره ، ولذلك لا يعقل أن ذلك الرجل المكلف بالمحافظة على الفسطاط يبقى على عهده ويحافظ على وعده مع رجل فاتح لم يثق بعد انه قد أصبح الحاكم على مصر حتى يخشاه ويحافظ على حراسة فسطاطه من أجل يمامة طول ذلك الوقت الذي استنفده عمرو في فتح الاسكندرية وما بين بابليون والاسكندرية من مدن .

---

(١) المقريزي : المرجع السابق ص ٧٥ – ٧٦ .

ويدفعنا أيضاً إلى الشك في صحة هذه القصة ما هو معروف مشهود عن الطيور المختلفة وخاصة الحمام واليمام من انها تتخير لأعشاشها وبيضها وفراخها الأماكن المنعزلة المهجورة البعيدة عن أن يطرقها إنسان أو تنالها الأيدي صونا للأعشاش وحفظاً للبيض وإبقاء على الصغار .

فهل من المعقول إذن أن تترك هذه اليمامة العمرية تلك الأماكن الآمنة لتضع بيضها في معسكر دائم النشاط دائب الحركة ، وفي خيمة القائد وهي أنشط أماكن المعسكر بالحركة وأعمرها بالوافدين ؟

وإذا كانت هذه القصة صحيحة ففي أي مكان من الخيمة تبني اليمامة عشها؟ والخيمة كما نعرفها جميعاً مصنوعة من قماش أملس وهي منحدرة الجوانب إذا نصبت [1].

كل هذا يؤيد شكنا في صحة هذه القصة وكونها أصلاً للتسمية .

أما الرأي الثاني فيبدو كذلك بعيداً عن الصحة ، وذلك لأن ابن قتيبة يروي في كتابه « غريب الحديث » حديثاً للرسول نصه « عليكم بالجماعة فان يد الله على الفسطاط »[2]. ونحن إزاء هذا نجد أنفسنا أمام احتمالين : إما أن يكون الحديث صحيحاً فيبطل الرأي القائل بأن العرب أخذوا كلمة الفسطاط عن الروم عند اتصالهم بهم في حروب الشام ، لأن حروب الشام واتصال العرب بالروم كان بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبالتالي بعد ذكره لهذا

---

(١) يذكر هذه القصة بالتفصيل مؤرخو العرب جميعاً ، انظر مثلا : المقريزي ، المرجع السابق ، ص ٧٦ ، وابن دقماق ، المرجع السابق ، ص٢ ، ومراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ابريل سنة ١٨٤١ ، ج ٢ ص ٣٥٤ ، وأبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج١ ص ٦٤ — ٦٥ ، القاهرة سنة ١٩٢٩ .. الخ غير أنه يتضح بعد مناقشتها أنها من وضع هؤلاء المؤرخين كغيرها من القصص التي تنسب لعهد الفتح ، وخاصة قصة الفتاة التي كانت تقدم ضحية ليفيض النيل ، والخطاب الذي أرسله عمر ليلقى بدلاً من الفتاة .

(٢) ورد هذا الحديث أيضاً في : ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ٢ ؛ أنظر أيضاً : ياقوت : معجم البلدان .

الحديث ، وإما أن يكون الحديث غير صحيح وبذلك يحتمل أن يكون رأي مؤرخي الفرنجة صحيحاً .

غير أننا نحب أن ندلي برأي يخالف هذين الرأيين ، وقد يكون أقرب منهما الى الحقيقة ، وذلك أن كلمة الفسطاط كلمة عربية معناها المدينة ، فإننا إذا رجعنا الى القاموس المحيط وجدنا ان « الفسطاط » بالضم « مجتمع أهل الكورة » ، ووجدنا ان الكورة هي « الصُقْع أو المدينة » ، وبذلك تكون الفسطاط هي مجتمع أهل المدينة .

ويقول ابن قتيبة تعقيباً على الحديث السالف الذكر «والفسطاط المدينة»[1] وينقل عنه المقريزي أيضاً في الخطط ما يلي : « قال ابن قتيبة : كل مدينة فسطاط[2] » .

ويقول المقريزي بعد هذا : « وأخبرني أبو حاتم الأصمعي إنه قال : حدثني رجل من بني تميم قال قرأت في كتاب رجل من قريش : هذا ما اشترى فلان بن فلان من عجلان مولى زياد اشترى منه خمسمائة جريب حيال الفسطاط يريد البصرة »[3] .

ويشبه هذه الرواية الاخيرة ويؤيدها قول ابن الفقيه : « وإنما سميت البصرة فسطاطاً على التشبيه بفسطاط مصر »[4] .

وقريب من هذا المعنى قول المقدسي «الفسطاط هو مصر في كل قول»[5].

فالراجح عقلاً بعد ذكر هذه الآراء جميعاً أن كلمة « فسطاط » كلمة عربية خالصة معناها « المدينة » .

---

(١) ابن دقماق — الانتصار جـ ٤ ص ٢ .

(٢) يقول القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٢٦ : « قال ابن قتيبة ان كل مدينة تسمى فسطاط ، ولذلك سميت مصر الفسطاط » .

(٣) المقريزي ، المرجع السابق جـ ٢ ص ٧٥ — ٧٦ .

(٤) ابن الفقيه ، كتاب البلدان ص ٦٧ .

(٥) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، المرجع السابق ص ١٩٧ .

وخلاصة القول الذي نريد أن نذهب إليه أن العرب اختاروا هذا المكان اختياراً للأسباب السابق ذكرها ، وأنهم سموه « الفسطاط » أي « المدينة » أو « مجتمع أهل المدينة » .

يقصدون بذلك المكان الذي يجتمعون فيه حول جامعهم وحول منزل قائدهم .

تكوين الشعب المصري الجديد[1]

بعد الفتـــح العربي

كان الجيش العربي الذي قام بفتح مصر يتكون من نحو اثني عشر ألف مقاتل من القبائل العربية المختلفة ، وبعد الفتح ظـل العرب يرحلون إلى مصر في أفواج كثيرة متتابعة ، كان أكبرها هجرة قبائل من قيس في سنة ١٠٩ هـ. في خلافة هشام بن عبد الملك ، وولاية الوليد بن رفاعة على مصر .

ويبدو أن هجرة هذه القبائل من قيس كانت تتصل بالسياسة العامة لهشام في الدولة كلها ، إذ كان هشام يرمي إلى إضعاف شأن القبائل اليمنية بالاعلاء من مركز القيسية ، يقول الكندي إن عبيد الله بن الحبحاب لما ولي خراج مصر من قِبَل الخليفة هشام كتب إليه يقول :

« إن أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – قـــد شرّف الحي من قيس ونعّشهم ، ورفع من ذكرهم ، وإني قدمت

(١) نشر هذا البحث في: (مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية، المجلد الرابع عشر، ١٩٦٠).

مصر فلم أرَ لهم فيهـا حظاً إلا أبياتاً من فَهْم ، وفيها كُوَر ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا ، وهي ببلبيس ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحي من قيس فليفعل ، فكتب اليه هشام : أنت وذلك » [1] .

ثم يذكر الكندي بعد ذلك أن هشاماً أرسل إلى البادية فاستقدم أربعمائة أهل بيت من بطون قيس المختلفة ، وأوفدها إلى مصر ، فنزلت بالحوف الشرقي حول بلبيس .

« وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرفها إليهم ، فاشتروا إبلاً ، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم ، وكان الرجـل يصيب في الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل ، ثم أمرهم باشتراء الخيول ، فجعل الرجل يشتري المهر ، فلا يمكث إلا شهراً حتى يُركب ، وليس عليهم مؤونة في إعـلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم ، فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمّل إليهم خمسمائة أهـل بيت من البادية ، فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت ، فمات هشام وببلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس » [2] .

واستمر توافد قيس على مصر ونزولهم بأرضها طوال الفترة الباقية من عصر بني أمية ، وانتهى عهد الدولة بموت مروان بن محمد وبمصر :

---

(١) الكندي : الولاة والقضاة ، طبعة جست ، ص ٧٦ .

(٢) الكندي : المرجع السابق ، ص ٧٧ ، وانظر : المقريزي : الخطط ، مطبعة النيل ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

« ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالدوا ، وقدم عليهم من البادية من قدم » [1] .

واستمرت رحلة القبائل العربية وهجرتهم متتابعة متلاحقة في العصور التالية ، وخاصة في عصر الدولة الفاطمية ، ففي خلافة المستنصر مثلا عظم شأن القبائل العربية النازلة في جنوب الشام حول غزة ، وكثرت ثوراتهم ، واشتدت وطأتهم على الولاة .

« فبعث الوزير الناصر للدين أبو محمد الحسن بن علي اليازوري إليهم في سنة ٤٤٢ يستدعيهم ، وأقطعهم البحيرة . . فاتسعت أحوالهم ، وفخم أمرهم ، وعظم شأنهم . . » [2] .

ووفدت في نفس العهد قبائل أخرى ، غير أنها ما لبثت أن قامت ببعض الشغب والثورات ، فنقلت الدولة بعض هذه القبائل – وخاصة قبيلتي بني سليم وبني هلال – إلى الوجه القبلي ، وبعد قليل عمل الوزير اليازوري على نقل بني هلال إلى شمال أفريقيا لدأبهم على إثارة الشغب ، ورغبة منه في الانتقام من بني زيري الذين خرجوا عن طاعة الفاطميين في أفريقية .

وقدمت قبائل أخرى في خلافة الفائز الفاطمي ووزارة الصالح الطلائع بن رُزِّيك ونزلت في منطقة دمياط والبرلس ، ونزلت بطون من قبيلة جذام في منطقة زفتي وميت غمر .

من هذا البيان الموجز يتضح أن الهجرات العربية الأولى استقرت في جهات أسفل الأرض (الوجه البحري) ، فلما ضاقت هذه البلاد بسكانها نزلت القبائل العربية الوافدة ببلاد الصعيد ، وانتشرت في جميع نواحيه حول أسوان وجنوبها ، وفي منفلوط وأسيوط والأشمونين وإخميم ، وفي الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ، وخاصة صحراء عيذاب .

---

(١) الكندي : ص ٧٧ .

(٢) المقريزي : البيان والاعراب عمن نزل بأرض مصر من الأعراب ، ص ٢٤ – ٢٥ .

وكان العرب في أول أمرهم جنوداً يقومون بالفتوح في الأقاليم المجاورة ، أو بالدفاع عن مصر ، وكانت منازلهم في العاصمة (الفسطاط) أو في الثغور كدمياط وتنيس ورشيد والاسكندرية ، أو على الحدود في الصحراء ، فلما كثر عددهم وتوالت هجراتهم اشتغلوا ايضاً بالرعي على حافتي الوادي ، ثم لم تلبث أن اجتذبتهم الحياة في وادي النيل نفسه ، فأقبلوا عليه ، واشتغلوا بالزراعة ، واختلطوا بالأهلين ؛ وظلت للعرب هذه الصفة — صفة الرعى أو الجندية — حتى كان عهد الخليفة العباسي المعتصم ، وكانت أمه تركية ، فاستكثر من الجند الأتراك في عاصمة الدولة ، ثم لم يلبث أن أرسل إلى كَيَدر نصر بن عبد الله واليه على مصر (٢١٧ — ٢١٩ هـ) .

« وأمره باسقاط مَنْ في ديوان مصر من العرب وقطع أعطياتهم ، ففعل ذلك ... » [١] .

ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالي ؛ ولما ولي أحمد بن طولون على مصر استكثر من العبيد في جيشه حتى بلغت عدة جنده زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركي ، وأربعين ألف أسود ، وسبعة آلاف حر مرتزق .

وباسقاط العرب من ديوان الجند ومنع عطائهم انتشروا في أنحاء مصر وتمّ اختلاطهم بالأهالي .

أما الأقباط فقد كانوا أكثرية وقت الفتح ، يقول المقريزي :

« اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى ، وهم على قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم . أحدهما أهـــل الدولة ، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم

(١) الكندي : المرجع السابق ، ص ١٩٣ ؛ والمقريزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١٥١ .

ديانة الملكية ، وكانت عدتهم تزيد على ثلاثمائة ألف رومي ، والقسم الآخر عامة أهل مصر ، ويقال لهم القبط ، وأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي من الاسرائيلي الأصل ، من غيره ، وكلهم يعاقبة ، فمنهم كتاب المملكة ، ومنهم التجار والباعة ، ومنهم الأساقفة والقسوس ونحوهم ، ومنهم أهل الفلاحة والزرع ، ومنهم أهل الخدمة والمهنة ، وبينهم وبين الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكحتهم ، ويوجب قتل بعضهم بعضاً).[1] .

وقد دارت الحروب بين العرب والروم وقت الفتح ، اما القبط فكانوا عوناً للعرب ، وبعد الفتح كتب عمرو أماناً لبنيامين بطرك الأقباط ، فخرج من مخبئه في الصحراء ، وعاد إلى كرسي بطركيته بعد ان غاب عنه ثلاث عشرة سنة ، واعتبر الأقباط أهل ذمة ، وفرض على كل من بلغ الحلم ديناران[2] — ويستثنى من هذه الضريبة النساء والصبية والشيوخ — ، وظل الأقباط يدفعون هذه الضريبة دون أي شكوى نحو قرن من الزمان ، فلما فكر بعض ولاة مصر في زيادة مقدار الضريبة ولو زيادة طفيفة كان الاقباط يقومون بثورات مختلفة ، وكان الولاة يضطرون إلى العمل على إخماد هذه الثورات بالقوة والعنف :

١ — ففي سنة ١٠٥ هـ كان الوالي على مصر من قبل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك هو الحر بن يوسف ، وكان عامل الخراج هو عبيد الله بن الحبحاب ، فكتب إلى هشام أن أرض مصر تحتمل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطاً ، فانتقضت بعض كور مصر (كورة تنو ، وتمى ، وقربيط ، وطرابية) وعامة الحوف الشرقي ، فبعث إليهم الحر بن يوسف بأهل الديوان (أي بالجند

---

(١) المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٨٧

من العرب) فأخضعوا الفتنة بعد قتل عدد كبير من الثـائرين ؛ وكان هذا الانتقاض في سنة ١٠٧ ، وهو أول انتقاض للقبط[١] بعد الفتح العربي .

وواضح مما ذكر ان الزيادة كانت في ضريبة الأرض لا ضريبة الرؤوس (اي الجزية) ، وأنها كانت زيادة طفيفة تبلغ قيراطاً على كل دينار ، وقد تكون دعت اليها حاجة البلد ، كما ان عامل الخراج ذكر للخليفة ان الأرض تتحمل هذه الزيادة ، ومع هذا فقد ثار القبط في بعض الكور وفي الحوف الشرقي ، لأن المسائل المالية كانت دائماً - في كل العصور وفي كل البلاد - مسائل حساسة تثير شعور الشعوب .

٢ - وكانت فتنة القبط الثانية جزئية كذلك في بعض بلاد الصعيد، وذلك في سنة ١٢١ هـ في ولاية حنظلة بن صفوان الثانية على مصر من قبل هشام بن عبد الملك ، يقول الكندي :

« ثم انتقض أهل الصعيد ، وحارب القبط عما لهم في سنة احدى وعشرين ومائة ، فبعث حنظلة بأهل الديوان ، فقتلوا من القبط ناساً كثيراً وظفر بهم ... »[٢]

ولكن الكندي لم يذكر سبب هذه الفتنة ، وإن كان المقريزي قد ذكر ان حنظلة عندما أتى مصر والياً للمرة الثانية تشدد على النصارى ، وزاد في الخراج ، وأحصى الناس والبهائم ، وجعل على كل نصراني وسماً - صورة أسد - ، وتتبعهم ، فمن وجده بغير وسم قطع يده ؛ فقد تكون هذه السياسة هي السبب في قيام هذه الفتنة .

٣ - وفي سنة ١٣٢ هـ عندما هزم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أمام جيوش العباسيين فر إلى مصر ، وفي مدة وجوده بها ثار بعض القبط

---

(١) الكندي الولاة والقضاة ، ص٧٣ - ٧٤ ؛ والمقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٤

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٨١

بمدينة رشيد ، فبعث إليهم مروان بعثمان بن أبي نسعة فهزمهم[1] ولسنا نعرف أيضاً سبب هذه الفتنة ، وقد يكون أقباط رشيد انتهزوا فرصة الفوضى التي صاحبت زوال دولة بني أمية وقيام الدولة الجديدة فقاموا بهذه الفتنة .

٤ — وفي سنة ١٣٥ هـ في ولاية ابي عون من قبل العباسيين :

« خرج أبو مينا القبطي بسمنود ، فبعث اليه (ابو عون) بعبد الرحمن بن عُتْبة ، فقُتل أبو مينا ... »[2]

وليس في المراجع تعريف بشخصية أبي مينا هـــذا ، ولا ذكر لأسباب خروجه .

٥ — وفي سنة ١٥٠ هـ في ولاية يزيد بن حاتم على مصر (١٤٤ — ١٥٢ هـ) من قبل الخليفة العباس ابي جعفر المنصور خرج القبط بمـدينة سخا ، وانضم إليهم أهالي البلاد المجاورة ، فأرسل اليهم يزيد فرقة من أهل الديوان ، ولكن يبدو ان هذه الفتنة كانت قوية وخطرة ، فقد قتـــل في المعركة بعض قواد العرب ، وجرح البعض الآخر ، وانصرف الجيش الى الفسطاط منهزمين»[3].

٦ — وفي سنة ١٥٦ هـ ، في ولاية موسى بن علي على مصر من قبـــل أبي جعفر المنصور خرجت القبط ببلهيب ، فأرسل إليهم الوالي جنداً هزموهم .

٧ — وفي سنة ٢١٦هـ في ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل الخليفة المأمون ثار سكان أسفل الأرض (الوجه البحري) — عربا وقبطاً — ، وكان سبب هذه الثورة كما يذكر الكندي « سوء سيرة العمال فيهم »[4] وبذل الوالي عيسى بن منصور ، والقائد العباسي الأفشين جهدهما لاخضاع هذه الثورة التي ظلت

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٦

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٢

(٣) المرجع السابق ، ص ١١٦ - ١١٧

(٤) المرجع السابق ، ص ١٩٠

قائمة نحو ثمانية شهور – من جمادى الأولى إلى ذي الحجة من سنة ٢١٦ هـ – حتى اضطر الخليفة المأمون ان يأتي إلى مصر بنفسه لاخضاع هذه الثورة ، واخضعها وعاقب كلاً من الحاكم والمحكومين بما يستحق ؛ أما الوالي عيسى بن منصور فقد عزله المأمون بعد أن عنفه بقوله :

« لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس ما لا يطيقون ، وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد »[1] .

أما ابن عبيدس الفهري قائد الثورة من العرب فقد فر إلى الصعيد فظفر به وقتل ، وأما الثائرون من الأقباط « فنزلوا على حكم أمير المؤمنين ، فحكم بقتل الرجال ، وبيع النساء والأطفال ، فبيعوا ، وسبي أكثرهم ... »[2] يقول المقريزي :

« ومن حينئذ ذلت القبط في جميع أرض مصر ، ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان ، وغلبهم المسلمون على عامة القرى ، فرجعوا من المحاربة إلى المكايدة واستعمال المكر والحيلة ، ومكايدة المسلمين ، وعملوا كتّاب الخراج ، فكانت لهم وللمسلمين أخبار كثيرة ... »[3]

هذا موجز لأهم الثورات التي قام بها الأقباط في القرنين الأول والثاني للهجرة ، وقد أخضعت كلها بالقوة ، وكان من أهم نتائجها جميعاً ان اعتنق عدد كبير من الأقباط الإسلام بعد كل ثورة – رغبة أو رهبة – .

وكان من الطبيعي – وهذه العوامل تعمل مجتمعة لإدماج الشعبين أحدهما

---

(١) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٩٢

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٩٢

(٣) المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٦

في الآخر – ان تنتشر اللغة العربية بين الأقباط ليمكن التفاهم بين الحاكم والمحكوم » وظل انتشار اللغة العربية بطيئاً طـــول القرن الأول للهجرة ، وقبيل نهاية هذا القرن ، أي في سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ م)، وفي ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك أمر بالدواوين « فنسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية »[١] .

ففي القرن الأول للهجرة كانت أوراق الدواوين تكتب باللغة اليونانية ، وكانت بعض الأوراق تكتب باللغتين العربية واليونانية ؛ ويرجع تاريخ اقدم ورقة مكتوب عليها بهاتين اللغتين إلى سنة ٢٢هـ (٦٤٣م) ، ويرجع تاريخ آخر ورقة إلى سنة ١٠١ هـ (٧١٩م) ، كما يرجع تاريخ آخر ورقة بردية مكتوب عليها باليونانية فقط إلى سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠م) ، أما أقدم ورقة مكتوب عليها بالعربية فقط فتاريخها سنة ٩٠ هـ (٧٠٩ م) .

وظل هذا التحول من الكتابة باللغة اليونانية في الدواوين ، والتحدث بالقبطية بين عامة الناس إلى الكتابة والتحدث باللغة العربية ، ظل هـــذا التحول يتم بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حتى إذا كان القرن الرابع (١٠ م) كانت غالبية الشعب المصري يتكلمون العربية، ولا يفهمون القبطية ، بدليل أن رجال الكنيسة المصرية اضطروا في هذا القرن أن يلقوا مواعظهم في الكنائس باللغة العربية .

وليس معنى هذا أن اللغة القبطية تلاشت تماماً ، بل لقد ظلت موجودة، بدليل ما يذكره المقريزي من أن الخليفة المأمون كان يتنقل في ريف مصر ومعه مترجم ينقل عنه وإليه ، وما يذكره المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم» (ألفه حوالي سنة ٣٧٥ هـ) من أن بعض مسيحي مصر كانوا يتحدثون بالقبطية[٢] .

---

(١) الكندي : المرجع السابق ، ص ٥٨ – ٥٩ ، وجاء في دائرة المعارف الاسلامية مادة « ديوان » ومادة « قبط » ان الدواوين في مصر كانت تكتب باليونانية لا القبطية .

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٨ .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن بعض المسلمين تعلموا القبطية في هذا العهد الأول — عهد الاختلاط —، يذكر الكندي أن القاضي خير بن نعيم (ولي القضاء من ١٢٠ — ١٢٧) كان « يسمع كلام القبط بلغتهم ، ويخاطبهم بها » [١] ، كما يذكر أن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، والي الشرطة على الفسطاط (سنة ١٤٤ هـ) كان يتكلم القبطية [٢] .

وذكر البلوي في كتابه « سيرة أحمد بن طولون » أن ابن طولون تغير على أحد رجاله ، ففر منه ، فأرسل ابن طولون أحد رجال دولته في طلبه ، وأوصاه أن لا يبحث عنه في داره بالفسطاط ، ولا في ضيعته ، بل أمره أن يبحث عنه في « الديارات وعند النصارى ... لأنه حـــاذق بالقبطية فصيح بها » [٣] .

ونستطيع الآن أن نلخص خطوات الاختلاط والتحول التي انتهت بتكوين الشعب المصري في العصور الوسطى في النقط الآتية :

١ — امتاز القرن الأول للهجرة بكثرة الهجرات العربية المتتابعة، وكانت أكبر هذه الهجرات هجرة القبائل القيسية من سنة ١٠٩ إلى سنة ١٣٢ هـ (أي من عهد هشام بن عبد الملك إلى عهد مروان بن محمد) ، وقبيل نهاية هذا القرن أيضاً (في سنة ٨٧ هـ) كان تحويل الدواوين المصرية من اليونانية والقبطية إلى العربية .

٢ — ويمتاز القرن الثـــاني بثورات الأقباط المختلفة — (من سنة ١٠٥ إلى سنة ٢١٦ هـ) ، وكان من نتائج هذه الثورات دخول كثير من الأقباط في الإسلام .

---

(١) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٣٤٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١١٣ .

(٣) البلوى : سيرة أحمد بن طولون ، نشر محمد كرد علي ، ص ١٣٠ — ١٣١ .

٣ — وفي القرن الثالث أُسقط العرب من ديوان الجند ، ومنعت أعطياتهم ، فانتشروا في القرى المصرية ، واشتغلوا بالزراعة ، وتزوجوا من المصريات .

ففي هذا القرن تم امتزاج الشعبين .

٤ — ولم يكد يبدأ القرن الرابع حتى كان في مصر شعب جديد — هو خليط من الشعبين العربي والقبطي — يدين معظمه بالدين الإسلامي ، ويتكلم السواد الأعظم منه — مسلمين وأقباطاً — باللغة العربية .

ونستطيع أخيراً أن نفسر اندماج الأقباط في العرب ، واعتناقهم الإسلام بالأسباب الآتية :

١ — يقول ابن خلدون « المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب » ، وهذه حقيقة ثابتة نشاهدها في تاريخ الشعوب المختلفة ، فليس من البعيد إذن أن يفكر بعض الأقباط في اعتناق الدين الاسلامي — دين الدولة الحاكمة — ، وأن يتعلموا اللغة العربية — لغة الحكام — رغبة في أن ترتفع مكانتهم ويسهل اتصالهم برجال الدولة ، ويتمتعون بما يتمتع المسلمون به من مركز مرموق

ولم يكتف نفر من الأقباط باعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية ، بل تغالوا فادعوا النسب العربي ، وبذلوا المال الكثير لإثبات هذا النسب في وثائق رسمية .

ذكر الكندي أن جماعة من القبط يسمون « أهل الحرس » سعوا لدى قاضي مصر عبد الرحمن بن عبد الله العمري (١٨٥ — ١٩٤ هـ) ليسجل لهم سجلاً بإثبات أنسابهم ، ودفعوا له ستة آلاف دينار ، فرفع العمري الأمر إلى الخليفة الرشيد ، وسافر رجلان من « أهل الحرس » إلى بغداد ، وأنفقا هناك مالاً كثيراً ، وادعوا أنهم ينتسبون إلى حوتكة بن أسلم بن الحاف بن قضاعة ، وعند وصولهم إلى بغداد مات الرشيد ، وولي الخلافة ابنه الأمين ،

فرفعوا اليه قضيتهم ، وأيدهم في دعواهم جماعة من أهل الحوف الشرقي وبادية الشام .

ثم عاد الوفد ومعهم كتاب الأمين إلى العمري بالتسجيل لهم ففعل .

وقد ثار المجتمع العربي في الفسطاط لهذه القضية ، وأعلن عن غضبه على القاضي العمري في شعر كثير [١] ينتقد فيه حكم هذا القاضي ، ويطعن في قضاياه ، ولم تهدأ ثائرتهم حتى عزل العمري عن قضاء مصر ، ووليه هشام بن أبي بكر البكري (١٩٤ – ١٩٦ هـ) من قبل الأمين أيضاً .

وسافر وفد من العرب إلى بغداد للطعن في حكم العمري ونسبة « أهل الحرس » للعرب .

« فكتب محمد الأمين إلى البكري بكتاب يذكر فيه أنه لا يمنح أحداً من غير العرب اللحاق بالعرب ، ويأمره أن يردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم » [٢] .

فدعا البكري « أهل الحرس » ، وطلب منهم سجل قضيتهم الذي أثبت فيه العمري انسابهم ، ثم أخرج مقراضاً من تحت مصلاه فقطع السجل به ، وقال لهم :

« العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاض ، ان كنتم عرباً فليس ينازعكم أحد » [٣] .

٢ — كان الأقباط يتولون وظائف الدولة الصغرى والكبرى — في المدن وفي القرى — ، غير أنهم أخذوا يدخلون في الإسلام ويتعلمون اللغة العربية رويداً رويداً ، وخاصة بعد صدور الأمر بتدوين الدواوين في مصر باللغة العربية ، وكان الدافع الأكبر لاقبالهم على اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية

---

(١) أنظر هذا الشعر وتفاصيل القضية في (الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٢٩٧-٣٩٩) .
(٢) ، (٣) الكندي : المرجع السابق ، ص ٤٠٣ .

رغبتهم في الاحتفاظ بالوظائف التي يلونها ، فقد روى ساويرس بن المقفع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١ هـ) أرسل إلى مصر كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلي عن وظائفهم ما دلموا على دينهم ، ومن أراد الاحتفاظ بعمله فليدخل في دين محمد ، وبهذا سلم الأقباط ما بأيديهم من الأعمال والوظائف إلى المسلمين [١] .

ويؤكد هذه الرواية ما ذكره الكندي من أنه في خلافة عمر بن عبد العزيز « نزعت موازيت القبط عن الكور ، واستعمل المسلمون عليهم » [٢] .

ومن البديهي أن نستنتج أن عدداً كبيراً من أقباط مصر قد دخلوا في الإسلام وتعلموا اللغة العربية للاحتفاظ بوظائفهم أو العودة اليها بعد تخليهم عنها .

ومع هذا فإنه يبدوا أن تنفيذ هذا الأمر لم يكن عاماً ، أو أنه لم يلتزم فيما تلا عصر عمر بن عبد العزيز من سنوات ، بدليل أن الأقباط ظلوا يشغلون كثيراً من وظائف الدولة ، بل لقد ظل بعض الموازيت يختارون من الأقباط ، فقد ذكر في إحدى الأوراق البردية المحفوظة في هيدلبرج ، والمؤرخة بسنة ١٧١ هـ اسم مازوت قبطي [٣] .

٣ – ما كان يحدث عقب كل ثورة من دخول كثير من الأقباط في الإسلام – طوعاً أو كرهاً – وخاصة بعد الثورة الكبرى التي حدثت في عهد المأمون .

٤ – اعتنق بعض الأقباط الإسلام فراراً من الضرائب التي كانت مفروضة عليهم ، وقد يؤيد هذا أن أول انتقاض للقبط في العهد الإسلامي (سنة ١٠٥هـ) كان لأن عامل الخراج زاد على كل دينار قيراطاً

---

(١) ساويرس بن المقفع ، سير الآباء البطاركة ، ج ٥ ، ص ٧١ – ٧٢ .
(٢) الكندي ، المرجع السابق ، ص ٦٩ .
(٣) سيدة اسماعيل الكاشف : مصر في فجر الاسلام ، ص ٢٠٩ .

ولم يكد ينتهي القرن الأول للهجرة حتى أحسّ والي مصر ما لكثرة دخول الأقباط في الإسلام من أثر في نقص قيمة الخراج ، فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) كتب إليه عامله على مصر أيوب ابن شرحبيل يشكوا كثرة دخول الناس في الإسلام ؛ ويذكر له ما لهذا التحول من أثر في نقص قيمة الخراج ، ثم استأذنه في فرض الجزية على من أسلم فرد عليه عمر رده المشهور :

« قبّح الله رأيك ، إن الله إنما بعث محمداً هادياً ، ولم يبعثه جابياً ، فضع الجزية عمن أسلم ، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يديه ... »

٥ – وهناك سبب أخير قد يكون له من القوة ما يفوق الأسباب السالفة مجتمعة ، وذلك أن دخول الأقباط في الإسلام كان دخولاً طبيعياً ، يسير مع التطور المنطقي للحوادث وللتاريخ في مصر بعد الفتح العربي ، وأن الدين الاسلامي ببساطته وبساطة تعاليمه وعقائده قد جذب هؤلاء الأقباط اليه ، يقول بهذا الرأي شاهد من أهل الديانة المسيحية ، هو المؤرخ والمستشرق الانجليزي المعروف « سير توماس أرنولد » ، فقد قال في كتابه « الدعوة إلى الاسلام » :

« والحق أن كثيراً من مسيحيي مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التي اعتنقوا بها النصرانية في مستهل القرن الرابع الميلادي... كما أن سرعة انتشار الاسلام في الأيام الأولى من الاحتلال العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الاسلام .

وإن الأساس اللاهوتي لبقاء اليعقوبين حزباً منفصلاً ،

والشعائر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ بها وقتاً طويلا ، ودفعوا ثمناً غالياً في هذا السبيل قد اجتمعت في عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضا وابهاماً من الناحية الميتافيزيقية ، ولا شك أن كثيراً من هؤلاء قد تحولوا – وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ واستولى على نفوسهم الضجر والاعياء من ذلك الجدل السقيم الذي احتدم من حولهم – إلى عقيدة تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد »[1]

(١) توماس أرنولد : الدعوة الى الاسلام (الترجمة العربية للدكتور حسن ابراهيم حسن وزميليه) ص ٩٣ – ٩٤

نظـــام الوزارة في العصر الفاطمي [١]

ظلت مصر منذ الفتح العربي ولاية تابعة للخلافة ، وفي منتصف القرن الثالث الهجري حاول ابن طولون المحاولة الاولى للاستقلال بمصر ، وفي عهد الدولتين الطولونية والاخشيدية اتخذ بعض حكام مصر الوزراء لأول مرة ، فكان ابو بكر محمد بن رستم الماذرائي وزيرا لخمارويه ، وكان ابو الفضل جعفر بن الفرات وزيرا لكافور الاخشيدي .

ولفظ الوزارة كما يقول ابن خلدون : « يدل على مطلق الإعانة فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة وهي المعاونة ،أو من الوزر وهو الثقل » .

وتنقسم الوزارة في العالم الإسلامي – ومنه مصر – إلى : وزارة تنفيذ وفيها يقوم الوزير بتنفيذ أوامر الخليفة ،ووزارة تفويض وفيها يكون الخليفة مغلوبا على أمره والأمور كلها بيد الوزير .

وقد كانت الوزارة في القرن الأول من الحكم الفاطمي في مصر وزارة تنفيذ كما كانت في القرن الثاني وزارة تفويض .

---

(١) نشر هذا البحث في (مجلة الثقافة ، العدد ٦٣٨ ، ١٩ مارس سنة ١٣٧٠هـ ١٩٥١ .

وأول من اتخذ وزيراً من الخلفاء الفاطميين هو العزيز بالله ، وكان وزيره هو يعقوب بن كلّس ، وذلك « لأن الامام المعز لدين الله — عليه السلام — كان يباشر التدبير بنفسه ، ولا يعول فيه على غيره » .

ولم يلقب بلقب الوزير في عهدي العزيز والحاكم إلا يعقوب بن كلّس وإنما كانت تطلق على وزارة هذين العهدين لفظ « وساطة » أو « سفارة » ، يقول المقريزي : « فلما مات ابن كلس لم يستوزر العزيز بالله بعده أحداً ، وإنما كان رجل يلي الوساطة والسفارة » فاستقر في ذلك جماعة كثيرة بقية أيام العزيز وسائر أيام ابنه أبي علي منصور الحاكم بأمر الله ، ثم ولي الوزارة احمد بن علي الجوجرائي في ايام الظاهر ... وما زال الوزراء من بعده واحدا بعد واحد وهم ارباب اقلام حتى قدم امير الجيوش بدر الجمالي » .

وكان وزراء العهد الأول من الحكم الفاطمي — كما يتضح من النص السابق — من ارباب الأقلام . اما وزراء العهد الثاني — اي من وزارة بدر الجمالي إلى وزارة صلاح الدين — فكانوا جميعـــاً من ارباب السيوف ، اي من رجال الجيش .

وكان زي الوزير من ارباب الأقلام : المناديل الطبقيات بالأحناك حتى حلوقهم ، والثياب القصار التي يقال لها الذراريع وهي مشقوقة امام وجهه إلى قريب من رأس الفؤاد بـــأزرار وعرى ، ومنهم من تكون أزراره من ذهب مشبك ، ومنهم من ازراره من لؤلؤ ، وهذه علامة الوزارة » .

وكانت تحمل للوزير الدواة المحلاة بالذهب من خزانة الخليفة ويقف بين يديه الحجاب ، كما كان امره نافذاً في ارباب السيوف وارباب الأقلام .

وكان آخر وزير من ارباب الأقلام هو الوزير ابن المغربي ، ثم ولي من بعده اول وزير من ارباب السيوف ، وهو الوزير بدر الجمـــالي ، واصبحت الوزارة منذ عهده وزارة تفويض ، وانشىء له سجل خاص بهذا التفويض جاء فيه :

« وقد قلّدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره ، فباشر ما قلدك امير المؤمنين من ذلك ، مدبراً للبلاد ، ومصلحاً للفساد ، ومدمراً لأهل العناد » ، واصبحت الأمور كلها مردودة اليه ،والاتصال بينه وبين الخليفة اتصالاً مباشراً ، وجعل له تعيين قاضي القضاة وداعي الدعاة ، وخلع عليه بالعقد المنظوم بالجوهر مكان الطوق ، وزيد له في الحنك مع الذؤابة المرخاة والطيلسان المقور ، وهو زي قاضي القضاة ...

ولقب بالقاب كثيرة ، منها : كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، وأهم هذه الألقاب : « السيد الأجل ، أمير الجيوش » ، وهو اللقب الذي توارثه من بعده وزراء التفويض من ارباب السيوف في العهد الثاني من الحكم الفاطمي ..

ولم يحدث أن ولى الوزارة ابنٌ بعد أبيه في العهد الاول ، وانما حدث هذا في العهد الثاني ، فولي الوزارة بعد بدر الجمالي ابنه شاهنشاه ، فوزر للمستنصر ثم للمستعلي ، وفي عهد هذا الخليفة الاخير لقب شاهنشاه بالأفضل، واضيف هذا اللقب للوزراء من بعده ..

ومنذ عهد الخليفة الحافظ لقب الوزير بلقب « الملك » ، وأول من لقب به رضوان بن ولخشي ، فقيل له : « السيد الاجل الملك الافضل » وذلك في سنة ٥٣٠ ، ولقب به من أتى بعده من الوزراء ، فقيل للصالح طلائع بن رُزّيك « الملك المنصور » ، ولقب ابنه رزيك بن طلائع « بالملك العادل » ولقب شاور « بالملك المنصور » ولقب صلاح الدين — وهو آخر وزراء الدولة « بالملك الناصر » ، وظل يحمل هذا اللقب حتى آخر حياته ، بل لقد اصبح هذا اللقب تقليداً يتبع طول عهدي الدولتين الايوبية والمملوكية ، وانما للسلاطين لا للوزراء .

وخير ما تدل عليه هذه الالقاب أن الوزير في العهد الثاني من الحكم الفاطمي اصبح هو كل شيء في الدولة ، فقد أصبح السيد الاجل ، ثم امير

الجيوش ، ثمّ الافضل ، ثم الملك . يقول المقريزي : « وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر إلى آخرالدولة هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد، وإليه الحكم في الكافة من الامراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية ، وهو الذي يولي أرباب المناصب الديوانية والدينية » .

وكان من زي الوزير في العهد الثاني الذؤابة المرخاة والطيلسان المقوَّر ، وهو زي قاضي القضاة ، كما كان يتقلد السيف وذلك « إشارة إلى أنه كبير أرباب السيوف والأقلام » .

وكان مقرر الوزير في العصر الفاطمي ثلاثة آلاف دينار في الشهر منها ألف وخمسمائة دينار كراتب ، وألف دينار لنيابته في العلامة ، وخمسمائة دينار رواتب لمائة غلام برسم مجلسه وخدمته ، لكل غلام منهم خمسة دنانير في الشهر ، كما كانت تدر عليه إقطاعاته نحو خمسين ألف دينار في السنة .

ولم يكن يسمح لأحد بالجلوس في حضرة الخليفة إلا للوزير، فكان يجلس على يمين الخليفة ، وتطرح له مخدة تشريفاً ، كذلك كانت له مرتبة خاصة معدة لجلوسه عند باب قاعة الذهب من القصر الكبير .

وفي العهد الثاني من حكم الفاطميين بنيت في القاهرة دار خاصة للوزير سميت دار الوزارة الكبرى، قيل إن الذي بناها هو أمير الجيوش بدر الجمالي، وقيل إنما بناها ابنه الأفضل شاهنشاه — وهو الأرجح — ، وكانت هذه الدار تشتمل على عدة قاعات ومساكن وبستان ، وكان فيها عشرون مَقسماً للماء الذي يجرى في بركها ومطابخها ، وكان يحيط بها سور من الحجارة . يقول المقريزي : « وما زال وزراء الدولة الفاطمية أرباب السيوف من عهد الأفضل ابن أمير الجيوش يسكنون بدار الوزارة هذه إلى أن زالت الدولة ، فاستقر بها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب » ، وظلت هذه الدار مقراً لسلاطين بني ايوب حتى عهد الملك الكامل محمد فنقل مقر الحكم الى قلعة الجبل .

وقد كان لسياسة التسامح الديني ـالتي امتازت بها الدولة الفاطميةـ أثرها في اختيار بعض الوزراء او الوسطاء من المسيحيين واليهود. فمن تولى الوزارة او الوساطة من المسيحيين : زرعة بن نسطوروس ، وأخوه صاعد بن عيسى ابن نسطوروس – في خلافة الحاكم بأمر الله – ، وأبو سعد منصور في خلافة المستنصر ، وممن تولاها من اليهود : يعقوب بن كلس في خلافة العزيز وأبو منصور صدقه بن يوسف الفلاحي ، وابن أبي سعد ابراهيم بن سهل التستري – في خلافة المستنصر – غير أن هؤلاء جميعاً لم يلوا الوزارة وهم على دينهم ، بل أسلموا قبيل توليها

مظاهرة النساء في القاهرة[1]

قبل مظاهرة النساء في باريس بسبعة قرون

في سنة ١٧٨٩ قام الفرنسيون بثورتهم الكبرى التي غيرت مجرى تاريخ، وأثّرت في تاريخ العالم اجمع ، فقد حملت الى الشعوب جميعاً المبادىء الانسانية الثلاث : الحرية والاخاء والمساواة .

وحوادث هذه الثورة مليئة بصفحات المجد والبطولة . ولعل أروع هذه الصفحات ما سجّله نساء باريس في مظاهرتهن التي قمن بها في ٥ اكتوبر سنة ١٧٨٩ من باريس إلى فرساي ، وقد تقدمتهن فتاة تحمل في عنقها طبلة تدقها منادية « الخبز .. الخبز ... »

عنى المؤرخون والأدباء من كل الشعوب بهذه الصورة فرسموها بأقلامهم ممجدين المرأة الفرنسية وشعورها الوطني ، أما نحن ففي تاريخنا صفحات مجيدة كثيرة لا نعلم عنها شيئاً وإن علمنا فإنا نمر بها مر الكرام دون أن نشيد بها

(١) نشر هذا الفصل في مجلة الثقافة العدد ٦٢٠ ، ١٣ نوفمبر ١٩٥٠

وننشرها لمواطنينا ونستغلها لإذكاء الروح وإحياء النفوس ، كل ذلك لأن تاريخنا القومي لم يكتب بعد .

وإن كان المؤرخون والكتاب قد مجدوا وطنية المرأة الفرنسية وبطولتها وهم يؤرخون لمظاهرة النساء في باريس في القرن الثامن عشر الميلادي فما أحرانا نحن أن نمجد وطنية المرأة المصرية وشجاعتها وقد سبقت أختها الفرنسية بسبعة قرون فقادت مظاهرة القاهرة تنادي نفس النداء «الخبز..الخبز ...»، وكان لهذه الظاهرة أثرها الفعال ، فقد دفعت أولى الأمر الى اتخاذ التدابير الحاسمة لانقاذ الشعب المصري من مجاعة طاحنة كانت توشك أن تقضي عليه.

كانت مصر ولا تزال هبة النيل ، هذا النهر الخالد المبارك الغدوات والروحات ، يحمل الى الوادي المقدس الخصب والري والخير ، وفي سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) — في خلافة المستنصر الفاطمي — قصّر النيل في فيضانه ، فقلت المحصولات واختفت الاقوات — وخاصة القمح والخبز — من الاسواق ، واستغل التجار الجشعون الفرصة كالعادة واختزنوا الغلال والدقيق ليبيعوهما في السوق السوداء ، يطلبون بذلك الثراء الحرام الفاحش .

وظل النيل على قصوره سبع سنوات طوالا ، والحالة تتطور من سيء إلى أسوأ ، سنة بعد سنة ويوماً بعد يوم حتى اختفى الخبز تماما من أسواق القاهرة والفسطاط، وطلب الناس الرغيف الواحد بخمسة عشر ديناراً (سبعة جنيهات ونصف تقريباً) فما وجدوه ، فأكل المصريون بعضهم البعض الآخر وجمعوا الكلاب والقطط من الطرقات واختطفوا الأطفال الصغار يأكلونها .

ويروي التاريخ [١] أن سيدة غنية من نساء القاهرة آلمها صياح أطفالها الصغار وهم يبكون من الجوع ، فلجأت إلى حجرتها الخاصة وفتحت صندوق

---

(١) اخذت المادة التاريخية لهذا المقال من كتاب « اغاثة الأمة بكشف الغمة لتقي الدين المقريزي ، وقد قام على نشره كاتب هذا المقال مع الدكتور محمد مصطفى زيادة .

حليها وأخذت تقلب ما به من در ولؤلؤ وذهب وعقيق ، إنهـا تملك ثروة طائلة ولكنها لا تستطيـع شراء رغيف واحد ، واختارت السيدة من هـذه الحلى عقداً ثميناً من اللؤلؤ قيمته ألف دينار وخرجت تطوف به أسواق القاهرة والفسطاط تعرضه للبيع فما رضي أحد أن يشتريه، واخيراً استطاعت أن تقنع أحد الباعة فأخذه منها وباعها به كيساً صغيراً من الدقيق .

واستأجرت السيدة بعض الرجال يحملون لها هذا الكيس من النهاية حتى تصل إلى بيتها ، ولكنها لم تكد تخطو بعض خطوات حتى هاجمها الجياع من كل ناحية ، فاغتصبوا الكيس وما فيه ورأت هي هذا المنظر فهجمت مع الهاجمين واختطفت لنفسها حفنة من الدقيق وانطلقت تجري بها حتى وصلت إلى دارها .

وآلم السيدة ما حدث ، وأحست في نفسها دافعاً قوياً أن تفعل شيئاً من أجل بلدها وشعبها ، فنسيت أطفالها وجوعهم ، وعجنت هذه الحفنة من الدقيق قرصة صغيرة وخبزتها ثم أخفتها في ملابسها وخرجت إلى الشارع وفي عنقها طبلة كبيرة تدقها وهي تنادي : « الجوع .. الجوع .. الخـــبز .. الخبز .. » .

والتفّ حولها الرجال والنساء والاطفال ، واتخذت الجموع طريقها إلى قصر الخليفة المستنصر . وأعلنت المرأة نهداً من الأرض أمام القصر وأخرجت القُرْصة من طيات ثيابها ورفعتها في يدها وصاحت : « أيها الناس : فلتعلموا أن هذه القرصة تقومت علي بألف دينار ، فادعوا معي لمولاي السلطان » .

وسمع الخليفة صياح الصائحين ، فأطلّ من شرفته وعلم ما حدث فاشتد به الجزع على شعبه ، وأرسل فاستدعى والى القاهرة ، وأمره أن يتخذ التدابير الحاسمة الحـــازمة كي تخرج الغلال إلى الأسواق وإلا فصل رأسه عن جسده .

وكان الوالي ماكراً ، وزاده الحرص على الحياة مكراً ودهاء فخرج في

الحال ، وأرسل فاستدعى جماعة من المجرمين المحكوم عليهم بالسجن سنوات طوالاً ، وألبسهم ملابس التجار الأثرياء وحجزهم في غرفة من داره، ثم أرسل فاستدعى تجار القمح والدقيق والخبز بالقاهرة والفسطاط فلما تكامل عددهم أمر حاجبه فأحضر واحداً من أولئك المجرمين ، ولم يكد الرجل يدخل وهو يرفـــل في ثيابه الأنيقة كأنه أغنى التجار وأوسعهم رزقاً حتى فاجأه الوالي بقوله : « ألم يكفك أيها الرجل أن عصيت أمر مولانا الخليفة حتى احتجزت الغلال ومنعتها عن الاسواق وتسببت في هذه المجاعة التي كادت تؤدي بالمصريين ؟ » وقبل أن يفيق الرجل من ذهوله ، وقبل أن يفتح فمه للدفاع عن نفسه أمر الوالي السيَّاف فقطع رأسه .

واستدعى الوالي مجرماً آخر ففعل به ما فعل بزميله . وهنا علت التجار صفرة الموت وخروا ركعاً يتوسلون إلى الوالي أن يعفو عنهم على أن يخرجوا القمح والدقيق إلى الأسواق في الحال ، وعلى أن يرخصوا الأسعار فيبيعوا الخبز كل رطل بدرهم . ولكن الوالي لم يقبل ، بل طلب اليهم أن يبيعوا كل رطلين بدرهم ، فاسرعوا باجابته إلى طلبه .

وفي ساعات قليلة امتلأت الأسواق بالقمح والدقيق والخبز ووقف الباعة أمام حوانيتهم ينادون على الخبز كل رطلين بدرهم وطعم الشعب وفرح .

وخرجت سيدة الأمس العظيمة ــ التي لم يحفظ لنا التاريخ اسمها ــ فقادت مظاهرة أخرى تهزج أهازيج الفرح والسرور وتغني أغاني الشبع والرضى ، وتنشد أناشيد الشكر للخليفة أمير المؤمنين .

شاعر من البيت الأيوبي

يموت في سن الشباب

مات نجم الدين ايوب ليلة الثلاثاء سابع عشر ذي الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة ، وترك من الاناث اثنتين ، هما : ست الشام ، وربيعة خاتون ، ومن الذكور ستة ، هم : الملك الناصر يوسف صلاح الدين وهو البطل المعروف مؤسس الدولة الايوبية ، والملك العادل سيف الدين أبو بكر ، وشمس الدولة توران شاه — وهو أكبرهم — وشاهِ شاه ، وسيف الاسلام طُغتَكين ، وتاج الملوك بوري وهو أصغرهم .

وقد كان لكل واحد من هؤلاء الذكور شأن اي شأن في التاريخ، فأسس صلاح الدين دولة حكمت مصر والشام والنوبة والمغرب واليمن ،وخلف العادل أولاد صلاح الدين وحكم هذه الامبراطورية (٥٩٦ — ٦١٥) ، وفتح ثالثهم توران شاه اليمن وحكمها (٥٦٩ — ٥٧٧) وخلفه في ولاية اليمن — بعد موته — أخوه طُغتكين (٥٧٧ — ٥٩٣) ، أما شاهِ شاه فكان من قواد

نور الدين ، وقتله الفرنج سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة « لما كانوا منازلين دمشق[1] » .

وحديثنا في هذا الفصل عن أصغر هؤلاء الاخوة الأمجاد تاج الملوك بوري ابن أيوب .

ولد بوري في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة ، ونشأ في كنف الدولة النورية ، وفي رعاية أب وإخوة كلهم رجال حرب ونضال ،فلا عجب أن ترعرع شابا موفور الصحة،كامل النشاط ، شجاعاً مقداماً طموحاً للمجد، وكان إلى هذا « مليح الأعطاف ، عذب العبارة ، حلو الفكاهة ، مليح الرمي بالقوس ، والطعن بالرمح ، شجاعاً باسلاً ، مقداماً على الأهوال ، وكان قد جمع إلى ذلك الكرم ، والتفنن في الأدب[2] .

ويتفق مؤرخو الدولة الأيوبية جميعاً على مدح تاج الملوك ، ونعتـه بهذه السجايا وكثير غيرها . والحقيقة أنه كان أحد أرباب السيف والقلم، ولو قدر له أن يمتد به العمر لبذّ اخوته وأبناء عمومته ، فقد كان بطلا صنديداً وشاعراً ممتازاً ، ولكنه لقي حتفه ولما يتم الثالثة والعشرين من عمره ، بعد أن أصيب في حومة الوغى ، وبعد أن ترك لقراء العربية ديواناً يضم ما قاله من شعر تغلب عليه العاطفة الجامحة المحلقة ، ولا غرو فقد نظم شعره هذا وهو في ميعة الصبا وريعان الشباب .

حدث نزاع بين صلاح الدين وعماد الدين زنكي ابن سيده نورالدين،وتحصن عماد الدين بقلاع حلب ، وأكثر من الجند ، ورام مقاتلة صلاح الدين ،ولكن السلطان الأيوبي كان حفاظاً للجميل ، فدبّر في نفسه انه يستطيع الاستيلاء

---

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ١١ أ ، وهو مخطوط مجهول المؤلف ومنه صور شمسية بمكتبة الجامعة المصرية رقم ٢٤٠٣١ .

(٢) الروضتين ج ٢ ص ٤٤ .

على حلب دون قتال ، « ولكن الشباب وجهال الأصحاب راموا القتال ، وأحبوا النزال ، وتقدموا وأقدموا ، والسلطان ينهاهم فلا ينتهون ، وكان فيهم تاج الملوك بوري أخو السلطان ، فطُعِن في فخذه[1] » .

فمن هذا يتبين أن تاج الملوك كانت تدفعه حماسة الشباب وفورته إلى الإقدام والمخاطرة ، بل لقد كان دائماً في مقدمة الجيش إذا حارب ، وإلى القارىء وصف القاضي الفاضل لبوري وشجاعته من كتاب له :

« نزلنا تل خالد يوم الثلاثاء ثاني عشر المحرم، وكان قد تقدمنا الأجل تاج الملوك إليها ، وأناخ عليها ، وقابلها وقاتلها ، وعالجها ولو شاء لعاجلها[2] » .

وبعد الاستيلاء على تل خالد تقدمت الجنود الأيوبية وفي مقدمتها تاج الملوك نحو حلب ، ونزلوا خارجها في سادس عشر المحرم سنة ٥٧٩ وفي نفس اليوم أصيب في ركبته إصابة خطرة .

ولما أحاطت جند صلاح الدين بحلب تحقق عماد الدين أنه ليس له قبل بها ، وسفر بينه وبين صلاح الدين الأمير حسام الدين طمان ، فاتفقا على أن تسلم حلب للسلطان على أن يعطى عماد الدين سنجار . وأعد صلاح الدين وليمة لابن زنكى ، وبينا هما في سرور والجند حولهما يأكلون مما لذ وطاب ، ويتبادلون الشهي من الحديث إذ حضر أحد الحجاب فأسرّ إلى صلاح الدين خبر وفاة أخيه تاج الملوك متأثراً بالجرح الذي أصابه ، فلم يزد صلاح الدين على أن قطب وجهه ثم بشّ ثانية ، وعاد إلى ما كان عليه . ولم « يتغير لذلك ولا اضطرب ، ولا انقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح. وبذل الاحسان ، وأمر بستر ذلك ، وتوعّد عليه إن ظهر ، وكظم حزنه ، وأخفى رزيته ،

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ٤٢ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

وصبر على مصيبته ، ولم يزل على طلاقته وبشاشته إلى وقت العصر »[1] ، فانفض الجمع ، وتفرّق الجند ، وانفرد صلاح الدين بخاصته ، واسترجع الحادث ، وبكى حزناً على أخيه ، فكان كما كان دائماً عند ملاقاة الخطوب ، ومقابلة الأرزاء ، جلداً صبوراً ، بطلاً كظيماً لألمه وحزنه ليُسر الغير ويسعدهم .

هذا هو صلاح الدين تزينه أخلاق الملوك ، وهذا هو أخوه بوري الجندي والقائد . أما بوري الشاعر فقد ترك لقراء العربية ديواناً فياضاً بالعواطف (هذا الديوان مفقود الآن) تقتبس كتب التاريخ التي ترجمتُ له بعض أبياته ، ومن دراستها نستطيع أن نحكم أنه كان شاعراً فذاً ، موفور الذكاء ، فياض الشعور ، خفّاق القلب ، عذب اللفظ ، حلو الحديث ، محباً يجيد وصف ما يحس من ألم البعد ولذعة الصد ، وكان بوري أيضاً يحب مصر وغيد مصر ، ويفضل نيلها وماءه على الفرات ومائه إذ يقول :

شربتُ من الفراتِ ، ونيلُ مصرٍ أحبُّ إليَّ من ماءِ الفراتِ
ولي في مصرَ مَنْ أصبو إليه ، ومَنْ في قُربِهِ أبداً حياتي
فقلتُ وقد ذكرت زمانَ وَصْلٍ تمادى بعده روح الحياة
أرى ما اشتهيه يفرُّ مني ، وما لا أشتهيه إلي يأتي[2]

وأكثر ما يقول بوري في الغزل ، فمنه قوله :

يا هذه وأماني النفس قربكم ، يا ليتها بلغت منكم امانيها
إن كانت العينُ مُذْ فارقتكم نظرتْ إلى سواكم ، فخانتها أماقيها[3]

وينقل عنه صاحب الشفاء هذين البيتين ، ويُعلق عليها بقوله : « وإنه

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ٤٤ والشفاء ص ١٤ أ .
(٢) الشفاء ص ١٢ أ .
(٣) الروضتين ج ٢ ص ٤٤ .

عليه سامحه الله » :

يا غزالا يُميتُ طوراً ويُحيي ، وهو برؤ السقامِ سقم الصحيحِ
هـــذه المعجزات ليست لظبيٍ إنما هذه فعالُ عيسى المسيح[1]

وقريب من هذا المعنى ويزيد عليه وصفه للحبيب في قوله :

يا حياتي حـــينَ يرْضى ، ومـمـــاتي حين يسخط
آه من وردٍ على خدٍّ يُـسك بالمسك منقـــط
بين أجفـــانك سلطانٌ على ضعـفي مسلـــط
قـد تصبَّرتُ وإن بَرّح بـي الشوقُ وأفـــرط
فلعـلَّ الدهرَ يومــا بالتلاقي منك يغلـــط[2]

وقد كان لحياة الجندية التي عاشها بورى أثر بالغ في شعره ، فهو يكثر من استعمال ألفاظ الحرب كالسيف ، والعضب ، والرمح ، والطعن ، والضرب ، ومن ذلك قوله : —

أيا حامل الرمح الشبيه بقدّه ، ويا شاهراً سيفاً حكى لحظه عضبا
ضع الرمح واغمد ما سللتَ فربما قتلتَ ، وما حاولت طعناً ولا ضربا[3]

وقوله : —

بُليتُ بمن لا يعرف العطفَ قلبُه ولا يسمع الشكوى لمن كان شاكيا
من الترك ميـــاس القوام كأنه يجرد لي لحظاً من السيف ماضيا
يعاندني فيه الزمان تعمداً ، فيا عجباً ما للزمان وما ليا
يخالفني في كل شيء أريـــده ، فلا القلب مسروراً ولا العيش صافيا

---

(١) الشفاء ص ١٣ أ .

(٢) ابن خلكان ، الوفيات ، طبعة رفاعي ج ٣ ص ٨٩ .

(٣) الشفاء ص ١٣ أ ، وابن خلكان المرجع السابق نفس الصفحة .

فلولا شقائي مـــا بليتُ بخائن عهودي، ولاصافيتَ مَنْ لا صفا ليا
وإني لاستشفي من الموتِ بالردى ، وحسبك داء أن ترى الموتَ شافيا[1]

ويبدو أنه قـال هذه الأبيات قبيل موته ، فإن صاحب الشفاء يُعقّب عليها بقوله : « وكان فألا عليه » .

كذلك ملك ركوب الخيل على تاج الملوك لبّه وقلبـــه في ميداني الحرب والحب ، رأى أحد مماليكه مقبلاً من ناحية المغرب وهو يركب فرساً أشهب فقال : —

أقبل من أعشقـــه راكباً من جـــانب الغرب على أشهبِ
فقلت : سبحـانك يا ذا العلا أشرقتْ الشمسُ من المغربِ[2]

ومات بورى كما ذكرنا ثالث عشري صفر سنة ٥٧٩ هـ عن اثنتين وعشرين سنة وأيام . وبكاه صلاح الدين بعد انتهاء الحفل وهو يقول : « مـا وقتْ حلب بشعرة من أخي تاج الملوك بورى » ، وكان يقول أيضـاً : « ما أخذنا حلب رخيصة[3] » ، وأمر به فغُسل ودُفن بمقام إبراهيم بظاهر حلب ، ثم حمله بعد ذلك إلى دمشق ودفنه بها .

---

(١) الشفاء ص ١٣ ب .
(٢) ابن خلكان ، المرجع السابق ص ٨٨ .
(٣) الشفاء ص ١٤ أ وابن خلكان ص ٩١ وابو المحاسن ، النجوم ج ٦ ص ٩٥ .

ابن عنين[1]

٥٤٩ – ٦٣٠ هـ .

الشاعر الوحيد الذي هجا البطل صلاح الدين

حياة الشاعر ابن عنين أعجوبة من الأعاجيب ، فهو رجل طوّف شمالاً وجنوباً وشرقاً ، أصله من دمشق ، وجاب بـــلاد المشرق ، فزار العراق والجزيرة وخراسان وأذربيجان وخوارزم ، حتى إنه ليقول :

أشقق قلب الشرق حتى كأنني أفتش في سودائه عن سنا الفجر

وارتحل إلى مصر ، ومنها إلى اليمن ثم الهند ، وعاد من الهند إلى مصر ، وترك مصر إلى وطنه .

كان شاعراً مجيداً قال في الخمر والغزل والوصف والدعابة والفخر ، ومدح كثيراً ، ولكنه كان مولعاً بالهجاء وبه اشتهر ، واشتغل بالتجارة ، ثم اتصل في آخر حياته ، بالمعظم عيسى بن العادل أبي بكر في دمشق ووزر له .

وعرف عنه حبه لابنة العنقود، وقيل انه يُخل بالصلاة ، ورُمي بالزندقة ،

---

(١) نشر هـذا الفصل في « مجلة الثقافة » العدد ٢٥٤ ، ٩ نوفمبر سنة ١٩٤٣

ولكنه اتصل بالإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي، وتتلمذ له ومدحه، وتاب في السنين الأخيرة من حياته، وبنى مسجداً دفن فيه بعد وفاته.

هو أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن نصر بن الحسين بن عنين الأنصاري الملقب شرف الدين[1]، اصله من الكوفة من الخطة المعروفة بمسجد ابن النجار[2]، وولد في دمشق يوم الاثنين تاسع شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة.

لا نعرف شيئاً كثيراً عن نشأته الأولى أو عن المعاهد التي تلقى العلم فيها، أو الأساتذة الذين تتلمذ عليهم، وكل ما يذكره عنه المؤرخون أنه كان: «من أفاضل العصر لغوياً أديباً شاعراً مجيداً» وأنه كان غزير المادة من الأدب مطلعاً على معظم أشعار العرب، وأنه «أخذ عن الحافظ أبي القاسم ابن عساكر وغيره وهو يستحضر كتاب الجمهرة لابن دريد وبرع في الشعر وحلى الألغاز» وأنه «كان من أظرف الناس وأخفهم روحاً وأحسنهم مجوناً».

ويبدو أيضاً أنه لم يقتنع بهذا القدر من الثقافة، فارتحل — شأن العلماء في ذلك العصر — إلى العراق والجزيرة وخراسان وأذربيجان وخوارزم، فاتصل بمشايخ تلك الأقطار وعلمائها وشعرائها وأدبائها، وتدل سيرته على أنه كان ذكياً ممتازاً في ذكائه، نشيطاً موفور النشاط، ولعله عاد بعد هذه الرحلة واسع العلم غزير المادة، فحاول أن يتخذ لنفسه مقاماً علياً بين قومه في دمشق، وكان قد تركهم وهو نكرة لا يلتفت إليه إنسان فأبوا عليه

(١) انظر ياقوت، معجم الادباء، جـ ١٩ ص ٨١ طبعة دار المأمون، وابن خلكان، وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٢٥ المطبعة الميمنية — القاهرة سنة ١٣١٠ هـ.

(٢) ياقوت المرجع السابق نفس الجزء ص ٨١ — ٨٢ وابن خلكان المرجع والجزء السابق ص ٢٥ و ٢٧ وان كان ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٩٣ يذكر أن أصله من حوران.

سعيه ، فاستثار هذا الإباء عنده غريزة الدفاع عن النفس وانطلقت شاعريته، وهجا فأقذع في الهجاء .

وكان صلاح الدين بن أيوب قد قضى على دولة بني فاطمة في مصر ، وبدأ يكوّن لأسرته فيها دولة جديدة ، فاجتذبت هذه الدولة الفتية الشاعر المفتن ابن عنين إليها ، كما اجتذبت غيره من الشعراء والفقهاء والصوفية والقادة والوزراء ، فارتحل إليها ينشد مجداً وجاهاً وثراء ، ولكن صلاح الدين لم يكن خلي البال ليتخذ لنفسه بطانة من الشعراء ، فأعرض عن ابن عنين ومن شابهه من الشعراء والندماء ، الذين كانوا يطمعون أن يغدق عليهم العطاء ، كعمارة اليمني مثلا ، فقد كانت في مصر ثلة من بقايا الدولة الفاطمية المحتضرة تود أن تقضي عليه وأن تعيد الحياة إلى الدولة التي زالت ، ليعود إليها هي أيضاً مجدها .

وكان على القرب منه في بلاد الشام الصليبيون رابضين متحفزين ، فعقد العزم ، وأخلص النية أن يعد الجهد كله والفكر كله والمال كله للقضاء على هذين الخطرين . لهذا نجد اليأس يتسرب إلى نفس عمارة — بعد سعي ملح ليكون من رجال صلاح الدين — فينضم إلى أعدائه في مصر ، ويشترك في مؤامرتهم التي يفتضح أمرها ، فيقضي عليه بالشنق ، أما ابن عنين فكان أقل جرأة ، فاتخذ من لسانه سلاحاً يهاجم به صلاح الدين ورجال دولته فيقول [1] :

سلطانا أعرجٌ ، وكاتبُه أعمشُ ، والوزير منحدبُ
وصاحب الأمر خُلقه شَرِسٌ ، وعارض الجيش داؤه عجب

(١) ابن الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، ص ١٠٥ ب ، منه صور شمسية في مكتبة جامعة فؤاد الاول ، وانظر ايضاً ابن تغري بردي ، المرجع والجزء السابق ص ١١٣ ، وابن خلكان ، المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة حيث يذكر أن السلطان نفاه من دمشق بسبب وقوعه في الناس — وعندي أن الرأي الأول أرجح .

والدولعيُ الخطيبُ منقلبٌ وهو على قشر بيضةٍ يَثِبُ
ولابن باقي وعظٌ يغرُّ بــه الناسَ ، وعبد اللطيف محتسبُ

وبلغ هذا القول صلاح الدين فنفاه إلى الهند ، فأذعن وسافر ، ولكنه أرسل إليه هذين البيتين :

فَعَلامَ أبعدتُمُ أخا ثقةٍ ، لم يقترفْ ذنبــاً ولا سرقا
انفوا المؤذنَ من بــلادكم ، إن كان يُنفى كلُّ من صدقا

واشتغل في الهند بالتجارة ، وأفاد منها ، ولكنه كان شديد الحنين إلى وطنه دمشق ، وإلى أهله ، فكان يقول فيهما الشعر الكثير ، فمن ذلك قصيدته الطويلة في دمشق التي مطلعها :

ألا يا نسيمَ الريح من تلِّ راهطٍ وروض الحمى كيف اهتديت إلى الهند؟

ومنه هذان البيتان أرسلهما إلى أخيه :

سامحت كتبك في القطيعة عالماً أن الصحيفة لم تجد من حامل
وعذرتُ طيفك في الجفاء لأنه يسري فيصبح دوننــا بمراحل

والبيت الثاني للمعري استعمله هنا مضمناً هذا التضمين اللطيف .

ولما اشتد به الحنين إلى وطنه احتال للعودة ، فغــادر الهند إلى اليمن واتصل هناك بسلطانها الملك العزيز سيف الإسلام طُغْتكين بن أيوب أخي صلاح الدين — (ولي اليمن من ٥٧٧ — ٥٩٣ ﻫ) ومدحه بغرر القصائد ، فأحسن اليه وأجزل صلته ، واكتسب من جهته مالاً وافراً وخرج به من اليمن ، فلما وصل إلى الديار المصرية وسلطانها يومئذ الملك العزيز عمــاد الدين عثمان بن السلطان صلاح الدين ، (حكم مصر من ٥٨٩ — ٥٩٤ ﻫ) ألزمــه أرباب ديوان الزكاة بدفع الزكاة من المتاجر التي وصلت صحبته ، فقال في ذلك : —

مـا كلُّ من يتسمّى بالعزيز لهـا أهلٌ، ولا كلُّ برقٍ سُحبُهُ غَـدِقَـه
بين العزيزيْن بَوْنٌ في فعـالهما ، فذاك يُعطى ، وهذا يأخذ الصدقة

ويتضح من هذه الرواية أن ابن عنين بقي في اليمن ولم يفكر في العودة إلى مصر ، أو إلى دمشق خوفاً من صلاح الدين ، فلما علم بوفاته جمع ماله ومتاعه ومتاجره وعاد إلى مصر عن طريق الحجاز[1] ،ولكنه لم يلقَ من ولد صلاح الدين ، أو على الأصح من حكومته خيرا مما لقي من صلاح الدين نفسه، غير أن العزيز عثمان لم يعمر بعد ذلك طويلاً ، ومات سنة ٥٩٤ هـ وخلفه ابنه الملك المنصور محمد ، ثم أتى من بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب فتولى عرش مصر سنة ٥٩٧ هـ .

وطمع ابن عنين في حلم العادل وعطفه ، وكان رجلاً سياسياً داهية يغضي كثيراً لتتألف القلوب ، وكان ابن عنين قد غاب عن وطنه دمشق وعن أهله وأصدقائه سنين طويلة، وأحسَّ الشوق الشديد إلى العودة إلى مسقط رأسه ، ولهذا نرى قصيدته التي أرسلها إلى العادل يستعطفه ويستأذنه في العودة إلى الشام جميلة كل الجمال ، رقيقة غاية الرقة ، قوية بالغة في القوة فهو يبدؤها بهذا الغزل اللطيف :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى؟ وعليهم لو سـاعحوني بالكرى
جنحوا إلى قول الوشاة وأعرضوا والله يعـلم أن ذلك مفترى
يا معرضاً عني بغـير جناية إلا لمـا نقل العذولُ وزوّرا ...
هبني أسأتُ كما يقول ويفترى ، وأتيت في حبيك شيئاً منكراً
ما بعد بعدك والصدود عقوبة يا هاجري ما آن لي أن تغفرا
لا تجمعن عليَّ عتبَك والنوى ، حسبُ المحبِّ عقوبةً أن تهجرا
عبء الصدود أخفُّ من عبء النوى لو كان لي في الحب أنْ أتخيّرا

---

(١) ياقوت ، المعجم ١٩ / ٨٢ .

ثم ينتقل من هذه الديباجة الجميلة إلى هدفه الأصلي فيقول :

فسقى دمشق ووادیها والحمى متواصل الإرهام منفصم العرى

إلى أن يقول :

أرضٌ إذا مرتْ بها ريحُ الصبا حملت على الأغصان مسكاً أذفرا
فارقتُها لا عن رِضاً ، وهجرتها لا عن قِلىً ، ورحلت لا متخيرا
أسعى لرزقٍ في البلاد مشتتٍ ، ومن العجائب أن يكون مقترا (١)
وأصون وجه مدائحي متقنعا ، وأكف ذيل مطامعي متسترا (٢)

ثم ينتقل من هذا إلى الشكوى ومديح العادل فيقول :

أشكو إليك نوىً تمادى عمرها، حتى حسبتُ اليومَ منها أشهرا
لا عيشتي تصفو ، ولارسم الهوى يعفو، ولا جفني يصافحه الكرى
ومن العجائب أن يُقيل بظلكم كلُّ الورى، ونبذتُ وحدي بالعرا

ويقول ابن خلكان (الوفيات، جـ ٢ ص ٢٦) : « وهذه القصيدة من أحسن الشعر ، وعندي هي خير من قصيدة أبي بكر بن عمار الأندلسى التي أولها « أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى ... الخ »

ولكن ابن عنين لم يكد يستقر في دمشق حتى عادت إليه طبيعته الجامحة الشموس فبدأ يعتز بنفسه ويهجو فقال :

هجوتُ الأكابر في جلّقٍ ، ورعتُ الوضيعَ بسبِّ الرفيع
وأُخرجتُ منها ، ولكنني رجعتُ على رغم أنفِ الجميع

وتمادى في الهجاء حتى هجا الملك العادل نفسه بقوله :

إن سلطاننا الذي نرتجيه واسعُ المال ضيقُ الإنفاقِ

---

(١) و (٢) لعل في هذين البيتين تأييداً لرأينا الذي أبديناه في أول المقال .

هو سيفٌ كما يقال ، ولكن قاطعٌ للرسوم والأرزاقِ ...

وهجا أناساً كثيرين من خيرة رجال الدولة كالمحدث الفاضل بن دحية الكلبي . ودفعته طبيعته الثائرة إلى نظم قصيدة طويلة كلها هجاء مقذع ، وسماها « مقراض الأعراض » تفنن فيها كما يقول ياقوت « بأساليب السب والثلب ، فأورد ما لا يحسن إيراده » .

وتتابعت السنون ، وخفت حدة ابن عنين ، وقلّ هجاؤه ، واستقر في دمشق ، وإن كان يغادرها أحياناً إلى بلدان أخرى قريبة ، ولكنه كان لا يلبث أن يعود إليها ، وقد اتصل في هذه الرحلات القصيرة في تلك الفترة من الزمن بالإمام فخر الدين الرازي ، وحضر مجالسه وحلقات درسه وتتلمذ عليه ومدحه مدائح كثيرة[1] .

وتتابعت السنون ثم تتابعت ، والكبر ينال من ابن عنين ويفل من شوكته ، ويضعف من قوته ، فهذه سنة ٦١٦ هـ . وقد بلغ ابن عنين السابعة والستين من عمره — وقد مات العادل أبو بكر ، وانفرد ابنه المعظم عيسى بحكم دمشق ، وحدثت بينه وبين القاضي الوقور زكي الدين وحشة ، فأراد أن ينال من مقامه فأرسل إليه بقجة فيها قباء وكَلَوْتة (وهما من ملابس الجند) ، وأمره ان يحكم بين الناس وهما عليه ، « فلبسهما من خوفه » ولكن هذا الحادث آذى القاضي ونال منه ، فمرض ، ويعقب صاحب شفاء القلوب على هذا بقوله[2] :

« وكان ابن عنين الشاعر قد تزهد ، فبعث اليه المعظم قنينة خمر ونرداً ، وقال : سبح بهذه ، فقال ابن عنين في ذلك :

---

(١) ياقوت ، المعجم ، جـ ٩ ص ٨٢ — ٨٣ و ٨٨ وابن خلكان جـ ١ ص ٤٧٤ — ٤٧٥ و جـ ٢ ص ٢٦ ، وانظر السبكي ، طبقات الشافعية ، المطبعة الحسينية بالقاهرة جـ ٥ ص ٣٤ و ٣٥ و٣٦ .

(٢) ص ٧٧ أ وقد روى هذه القصة كذلك السبكي — طبقات الشافعية ، ج ٥ ص ٥٨ عند ترجمته للقاضي زكي الدين .

يا أيها الملكُ المعظم سنّــةً أحــدَثتها تبقى على الآباد
تجري الملوك على طريقك بعدها: خِلَعُ القضاةِ وتُحْفَةُ الزهّاد

فأين هذا من هجائه العنيف للبطل القديس صلاح الدين وللحاكم الداهية القدير العادل أبي بكر .

٦١٧ — ٦١٨ هـ . وعجلة الزمن تدور ، وبلغ ابن عنين التاسعة والستين من عمره ، ولكن روحه لا زالت قوية تحس معاني الجد وتعتز بنصر المسلمين أقوى وأشد اعتزاز ، فقد وصلته اخبار انتصار المسلمين بقيادة الملك الكامل محمد عند دمياط ، فكان ابن عنين أول المهنئين ، وكانت قصيدته درة الدرر يومذاك ، نقرأها فنحسّ أن قائلها شاب باسل في عنفوان شبابه خاض غمار الوغى وامتطى صهوة الجياد ، وامتشق الحسام ، استمع إليه وهو يقول[1] :

سلوا صهواتِ الخيلِ يومَ الوغى عنّا إذا جهلتْ آباتنا والقَنَا اللدُنا
غداةَ التقينا دون دمياطَ جَحْفَلاً من الروم ، لا يُحصى يقيناً ولا ظنّا
قد اجتمعوا رأياً وديناً وهِمّةً ، وعزماً ، وإن كانوا قد اختلفوا سِنّا
تداعوْا بأنصارِ الصليب ، وأقبلت جموعٌ كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرورٌ ، فأرقلوا إلينـــا سراعاً بالجهاد وأرقلنـــا
فما برحتْ سُمْرُ الرماح تنوشهم بأطرافها ، حتى استجاروا بنا مِنّا

إلى أن يقول :

سرى نحــو دميــاط بكل سميدعٍ إمامٌ يرى حسن الثنا المغنم الأسنى
مآثرُ مَجْدٍ خدرتْهــا سيوفُه ، طوال المدى، يفني الزمانُ ولا تفنى
وقـــد عرفتْ أسيافُنا ورقابُهم مواقعها منا ، فإن عاودوا عُدْنا
منحناهم منـــا حياةً جديـــدةً فعاشوا بأعنــاقٍ مقلّدةٍ منـــا

---

(١) شفاء القلوب ص ٨٣ أ و ٨٣ ب ، والسلوك للمقريزي نشر الدكتـــور زيادة ، جـ ١ ق ١ ص ٢١١ .

ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا ولوغاً ، ولكنا ملكنا فأسجحنا

ويبدو من هذه القصيدة أن العلاقة بين ابن عنين وبني أيوب قد تحسنت ، وحل الصفاء محل الجفاء ، فقرّبه المعظم عيسى إليه ، وأرسله في سفارات له ، فابن خلكان يروي أنه قابل ابن عنين في مدينة إربل سنة ٦٢٣ هـ ولم يأخذ عنه شيئاً ، « وكان قد وصل اليها رسولا عن الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق » ، ثم يقول في آخر ترجمته لابن عنين : « وتولى الوزارة بدمشق في آخر دولة المعظم ومدة ولاية الملك الناصر بن المعظم (٦٢٤ — ٦٢٦ هـ .) ، وانفصل منها لما ملكها الأشرف (أي سنة ٦٢٦ هـ .) ، وأقام في بيته ، ولم يباشر بعدها خدمة[1] » .

لا زالت عجلة الزمن تدور ، ولكنها دورات بطيئة مسرفة في البطء : ٦٢٧ — ٦٢٨ — ٦٢٩، وفي سنة ٦٣٠ بلغ ابن عنين الحادية والثمانين من عمره، وبلغ الكتاب أجله ، فانتقل الشاعر إلى جوار ربه في التاسع من شعبان من تلك السنة ، ودفن بمسجده الذي بناه بأرض المزة وهي قرية على باب دمشق، قال ابن الدبيثي : « زرت قبر بلال مؤذن رسول الله ﷺ بمقابر باب الصغير ظاهر دمشق ، فلما خرجت من تربته ، وجدت على الباب قبراً فقيل لي هذا قبر ابن عنين ، فوقفت وترحمت عليه[2] » .

هذا ولم يعرف عنه أنه ألف أو قال غير الشعر ، وإن كان ابن خلكان

---

(١) الوفيات ، ج ٢ ص ٢٥ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٦ — ٢٧ .

يقول : « ولم يكن له غرض في جمع شعره ، فلذلك لم يدونه ، فهو يوجد مقاطيع في أيدي الناس ، وقد جمع له بعض أهل دمشق ديواناً صغيراً لا يبلغ عشر ما له من النظم ، ومع هذا ففيه أشياء ليست له[1] » .

(١) ابن خلكان ، الوفيات ج ٢ ص ٢٧ ، وقد نشر مقالنا هذا لأول مرة في ١٩٤٣ ، وفي سنة ١٩٤٦ نشر ديوان ابن عنين نشرة علمية محققة ، عنى بنشره وتحقيقه المرحوم خليل مردم بك ضمن مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .

الجاسوسية
في حروب بني أيوب

منذ أقدم العصور وتاريخ الحرب يصاحب تاريخ الإنسانية ، وكان قواد الجيوش في كل حقبة من حقب التاريخ يعتمدون — لإحراز النصر — على الجاسوسية أكثر مما يعتمدون على الخطط الحربية وإعداد الجيوش . فالجواسيس هم الذين يزودون الخصم بمواطن الضعف في جيش خصمه ونواحي النقص في جنده وسلاحه ، وهم الذين يدعون له في نفوس الشعب الذي يحاربه، ويمهدون له السبيل ليسهل عليه النصر ، وهم أخيراً الذين يقدمون للقواد الوصف المسهب لأصلح الطرق وأقربها وأوهنها لتسير الجيوش عبرها .

ولقد كان تاريخ ملوك بني أيوب جميعاً تاريخ حرب وجهاد فسطع نجم مؤسس الدولة صلاح الدين في ميادين القتال ، وظل خلفاؤه جميعاً في نضال يتممون رسالته ، وقضى آخر عظيم منهم وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو يبذل الجهد أكبر الجهد لصد الفرنسيين عن مصر . وفي تراجم هؤلاء الأفذاذ صفحات مجيدة من تاريخ الجاسوسية فيها صور واضحة لما كان يسديه جواسيس المسلمين من خدمات جليلة إلى جيوشهم ، كان لها دائماً فضل

كبير في كسب المعارك وإحراز النصر ، وسنحاول في هذا الفصل عرض بعض هذه الصور :

كان الصراع على أشده بين جنود المسلمين وجنود الصليبيين في الشام ، وأعدّ صلاح الدين لعدوه ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل ، وحشدت أوربا رجالها وصفوة شبابها وأرسلتهم وفوداً بعد وفود يقودهم جميعاً أعاظم ملوك هذه القارة .

وفي سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩م) حاصر الفرنج ثغر عكا براً وبحراً واشتدوا في حصارها وضيقوا عليها الخناق نيفاً وسنتين ، ولاقى المسلمون داخل حصونها المحن والشدائد وهم يجاهدون في سبيل الله . وقلق صلاح الدين فكان دائم التفكير في أخوته سكان عكا من أهلين وجنود ، فكان يرسل إلى مصر يأمر رجاله بها أن يبعثوا إلى عكا بالسفن محملة بالقوت والذخيرة ، وخرجت هذه السفن تحميها شواني الأسطول المصري ، وحملت إلى المحاصرين الزاد والمؤونة ، وكان صلاح الدين يختار من العوّام من اشتهر بالمهارة في السباحة يحمّلهم المال والكتب يربطونها على أوساطهم ثم يعومون بها إلى أن يصلوا عكا ويعودون إلى قائدهم البطل بأجوبة الرسائل وأخبار المدينة وأهليها وجنودها .

وكان في معسكر صلاح الدين جندي شغف حباً بتربية الحمام الزاجل يرسله ليطير ويطوف بخيمته ، وأقام له برجاً من خشب ليرتحل طول نهاره ثم يعود فيحط عليه ، فكان صحبه من الجند يتندرون عليه ويقولون: ما لهذا الرفيق يولع بما لا فائدة فيه وطائل تحته ، فلما كان هذا الحصار المضروب حول عكا أفاد هذا الحمام كل الفائدة ، فكان يطير بالرسائل بين السلطان وجند المسلمين داخل أسوار عكا ، فساعده هذا على معرفة أخبار العدو تباعاً ، فكان يدبر له الخطط التي تقسد عليه ما يبذل من جهد لتضييق الحصار على المدينة .

وكان أجرأ هؤلاء السابحين بين معسكري المسلمين مسلم من أهل الساحل

اسمه عيسى ، وهب نفسه للجهاد ، فكان يخاطر بروحه ويلقي بنفسه في اليم فيتخذ طريقه في البحر سرياً بين سفن العدو المحاصرة للمدينة يحمل إلى مسلمي عكا المال والرسائل ، وكان إذا ترك البلد عائداً أطلق الحمام بالرسائل تفيد خبر رحيله ، ولكنه عام مرة ليلاً نحو عكا وعلى وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر ، ومضت أيام وقد أبطأ في العودة والمسلمون يرتقبون على الشاطىء أن يروه كالعادة يغالب الموج في عودته ظافراً بأخبار المدينة والبِشر والفرح يطفحان على وجهه — ولكنه لم يعد ، وتقوّل عليه البعض وتناولته الظنون أن يكون قد خان جيشه ودينه .

ولكن عيسى كان أنبل نفساً وأقوى روحاً ، فقــد قضى عليه البحر ومات شهيد الواجب والجهاد وظلت الأمواج تتقاذفه حتى القته بعد أيام على ساحل عكا والأموال والرسائل كما هي على وسطه لم يمسها إنسان .

وفطن الفرنج لهؤلاء السابحين وحاولوا ان يفسدوا على المسلمين طريقتهم في استطلاع أخبار المدينـــة ، ويقضوا على هؤلاء الجواسيس فنصبوا الشباك في البحر ، فكان إذا خرج سابح وقع فيهــا ، فقبض على البعض بهذه الطريقة وتخوّف البعض الآخر فامتنعوا عن السباحة وأحجموا عن المخاطرة بأرواحهم .

واشتد الضيق ثانية بأهالي عــكا وانقطعت أخبارهم عن السلطان ، وبعث قراقوش — والي المدينة والمدافع عنها — على أجنحة الحمام يشكو قلة الميرة ، فلجأ صلاح الدين إلى طريقة أخرى تعتبر في الحق من أحدث طرق الجاسوسية : أعدّ السلطان بطسة (سفينة) كبيرة وملأها بنفر من نصارى بيروت الذين أسلموا ، فأمرهم فتزيوا بزي الفرنج ، وحلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على ظهر البطسة ورفعوا الصلبان ، وخرجت السفينة بهم ، فاعترضتها سفن الفرنج وحسبوها من سفنهم فقالوا : « نراكم قاصدين البلد ؟ » — قالوا : — « أو ما أخذتموه بعد ؟ » قالوا : « لا » — قـــالوا : « وراءنا بطسة أخرى

ردوها » ، فذهبوا عنهم فردوا القلاع إلى البــلد ودخلوا الميناء (عكا) ، وكبّر المسلمون[1] .

هذا ما حدث إبان حصار عكا في عهد صلاح الدين ، وشبيه به ما حدث سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) عند حصـــار الفرنج لمدينة دمياط في عهد الملك الكامل الأيوبي ، فقد أحاطوا في هذه السنة بالثغر المصري ، وأهله يدافعون عنه الدفاع المجيد ، ويبذلون الأرواح فداءً لبلدهم ، مع قلة الأقوات وغلاء الأسعار .

وكان الملك الكامل يعسكر بجيشه جنوب المدينة ، وتحــايل ليعرف أخبارهم ، فلم يستطع حتى تقدم له رجل أصله من بعض قرى حماة واسمه علم الدين شمائل ، وسعى حتى صار يخدم في الركاب السلطاني جانداراً « فكان يخاطر بنفسه ويسبح في النيل – ومراكب الفرنج به محيطة ، والنيل قد امتلأت به شواني الفرنج – فيدخل إلى مدينة دمياط ويأتي السلطان بأخبار أهلها . فإذا دخل إليها قوّى قلوب أهلها ، ووعدهم بقرب وصول النجدات[2] . وقد أعجب السلطان به وبجرأته فشمله بعنايته ورقـــاه حتى صار أمير جانداره ، ثم عيَّنه أخيراً والياً على القاهرة .

ويقول صاحب شفاء القلوب إن المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر كان يختار الجواسيس – أثناء جهاد الأيوبيين ضد الصليبيين – ليأتوه بالأخبار ، وكان هؤلاء الجواسيس – شأن الجواسيس في كل زمان ومكان يعتمدون على النساء في تصيد الأخبار ، فقد جاء في هذا الكتاب أن جواسيس المعظم في جبل عكا كانوا قد اتفقوا مع بعض نساء الفرنجة بها أن يشرن اليهم بالشموع ليلاً لينقلن اليهم أخبار العدو ، فإذا عزم الفرنجة على إخراج مائة جندي

---

(١) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ١٤٥ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، نشر الدكتور زيادة ج ١ ص ١٩٨ .

أوقدت المرأة شمعة واحدة ، وإن كانوا مائتين أوقدت شمعتين وهكذا ، ثم تشير المرأة بهذه الشموع إلى الجهة التي يريد الجند قصدها ، وكان المعظم لا يضنّ بالمال الوفير يُعطى لهؤلاء النسوة جزاء لما يؤدين من خدمة جليلة ، فحدثه بعض الخاصة مرة منتقداً بقوله : « هذا إسراف لا يحل » فقال : « أنا أفدي الكثير باليسير » .

ويروي المعظم عن نفسه أن الانبرور (يقصد الامبراطور فردريك الثاني) لما عزم على غزو الشام بغتة أرسل فارساً من لدنه يستطلع له الأخبار، فبعثت امرأة فرنجية جميلة — كانت على اتصال بهذا الفارس — بالخبر إلى المعظم، فأرسل اليها « الثياب الحرير وعنبراً وأشياء كثيرة » فلما عاد الفارس ووجد هذه الهدايا عندها ، سألها عن مرسلها فأخبرته ، فذعر أول الأمر ، ولكنها ما زالت به تلاطفه وتتودد اليه حتى اتفقا ، فكان إذا أتاه خطاب بعد ذلك من الامبراطور حمله اليها فترسله إلى المعظم مختوماً كما هو .

وقد أرسل الملك المعظم عيسى مرة إلى واليه على الشوْبَك يأمره بنفي راهب كان يسكن الجبل منفرداً يتعبد فنفاه،وبعد قليل جاءه خطاب المعظم يأمره باعادة الراهب ويوصيه به خيراً ، ويقول الوالي إنه عجب لهذا التصرف : « فبحثت عن القصة فاذا به قد بعثه بكشف أخبار الا نبرور ، وإنما نفاه لئلا يُتهم ، وأطلق له أرضاً ، وأعطاه مائة دينار » .

وبعد فهذه صور طريفة مما حفظه المؤرخون عن أخبار الجاسوسية في حروب الأيوبين بينها وبين أساليب الجاسوسية الحديثة شبه كبير،فهل نستطيع أن نقول مع القائلين : إن التاريخ يعيد نفسه وإن اختلفت المسوح التي يبدو فيها في كل عصر عنها في العصر الآخر .

الاحتفـــال بوفاء النيل

في مصر الاسلامية [1]

كان المصريون منذ أقدم العصور يحتفلون بوفاء النيل ، ويفتنون في هذا الاحتفال الذي كان يتخذ أشكالاً متباينة وصـــوراً مختلفة ، تبعاً لاختلاف العصور والحكومات والأديان .

أما المصريون القدماء فقد ألهوا النيل وعبدوه ، لأنه مصدر الخير والبركة، يشربون من مائه العذب السلسبيل ، وإذا فاض سقى أراضيهم ورواها ، وبعث فيها الحياة، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وعلى صفحته تسير قواربهم تصيد الأسماك ، وسفنهم الشراعية تحمل التجارة من حب ٍّ وفاكهة إلى أهالي الشمال من الجنوب ، وإلى أهالي الجنوب من الشمال .

وتقول الرواية العربية التي تنقلهـــا جمهرة المؤرخين المسلمين عن ابن عبد الحكم :

أن المصريين كانوا يزينون للنيل فتاة ً بكراً جميلة ، فيطيبونها ويعطرونها

(١) نشر هذا البحث في مجلة (الثقافة) العدد ١٤٠ بتاريخ ٢ سبتمبر ١٩٤١ .

ويحملونها أجمل حليها ولآلئها وجواهرها ، ثم يلقونها إلى النيـــل قربانا ، فلا يلبث أن يزيد ماؤه ويفيض ويغطي الأرضين ، غير أن معظم المؤرخين المحدثين يشككون في صحة هذه الرواية ، وبرهان شكهم أن العرب دخلوا مصر وهي مسيحية حكومة وشعبا ، فلو فرض أن مصر الفرعونية الوثنية كانت تقترف هـــذا الإثم ، فليس من المعقول ان تستمر على إباحة اقترافه المسيحية ، وهي دين سماوي يمنع قتل النفس دون جريرة ، غير أن الأمر الذي لا شك فيه أن الحكومات المختلفة التي توالت على مصر كانت تهتم الاهتمام كله بمقاييس النيل لتترقب وفاءه ، ولتحتفل بهذا الوفاء ، لأن فيه صلاح الارض وخصبها ، وحياة النباتات وإزهارها وإثمارها ، وكيف يستطيع المصري الحياة إذا قصّر النيل ، ولم تنبت الأرض ؟؟ .

مقاييس النيل :

وقد تغيّر مكان المقياس في العصور المختلفة ، وإن كان المتفق عليه بين مؤرخي العرب أنه قد كان بمصر قبيل الفتح مقاييس كثيرة في بلدان مختلفة ، غير أننا لا نستطيع تحقيق اماكنها او اسماء الملوك الذين أنشأوها، فالمسعودي يقول مثلاً :

« ووضعت « دلوكة » العجوز ملكة مصر بعد فرعون مقياساً بأنصنا ، صغير الأذرع ، ووضعت مقياساً آخر بإخميم ، ووضعت الروم مقياساً بقصر الشمع » .

ويقول القضاعي : —

« ثم جاء الإسلام ، وفتحت مصر والمقياس بمنف » .

ويذكر القلقشندي أن مكان المقياس كان بمنف معروفاً حتى عَهده (القرن التاسع الهجري — الخامس عشر الميلادي) فيقول . —

« وموضع المقياس بمنف إلى الآن معروف على القرب من الأهراء اليوسفية من جهة البلدة المعروفة بالبدرشين » .

وبقي النيل بعد دخول العرب بمدة يقاس بمنف ، ويدخل القيّاس إلى الفسطاط فينادى به ، ثم بنى عمرو بن العاص مقياساً بأسوان ، وآخر بدندرة ، وفي أيام معاوية بُني مقياس ثالث بأنصنا ، ولما ولي عبد العزيز بن مروان حكم مصر ، واتخذ مدينة حلوان مقراً لحكمه ، بنى بها مقياساً صغير الأذرع ، كذلك بنى أسامة بن يزيد التنوخي سنة سبع وتسعين من الهجرة (٧١٥م) في عهد ولايته لمصر مقياساً في جزيرة الروضة (أو جزيرة الصناعة كما كانت تسمى) . وذلك بأمر سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي – ويقول صاحب صبح الاعشى :–

« ثم بنى المتوكل مقياساً أسفل الأرض بالجزيرة المذكورة (جزيرة الروضة) في سنة سبع واربعين ومائتين (٨٦١ م) في ولاية يزيد بن عبيدالله على مصر وهو المعمول به إلى زماننا هذا » (القرن التاسع الهجري) . ونضيف نحن أيضاً أن هذا المقياس هو المعمول به إلى سنتنا هذه .

وكان المتفق عليه في تاريخ مصر الإسلامية أن يحتفل بوفاء النيل إذا بلغ ستة عشر أو سبعة عشر ذراعاً ، ويعتبر النيل مقصراً إذا قل الرقم الأول ، ويعتبر الفيضان خطراً إذا زاد عن الرقم الثاني ، وفي هذا المعنى يقول الصلاح الصفدي :

قالوا : علا نيل مصر في زيادته حتى لقد بلغ الأهرام حين طما
فقلت : هذا عجيب في بلادكم أن ابن ستة عشر يبلغ الهرما !

وكانت النصارى تتولى قياس النيل منذ الفتح العربي إلى زمن المتوكل ، فعزلهم واختار له رجلاً مسلماً صالحاً يسمى عبد الله بن عبد السلام من أبي الرداد المؤدب ، وأجرى عليه سليمان بن وهب صاحب خراج مصر يومئذ

سبعة دنانير في كل شهر ، وبقيت هذه الوظيفة في نسل هذا الرجل حتى القرن التاسع هجري ، كما يقرر ذلك السيوطي في حسن المحاضرة ، والمقريزي في الخطط ، والقلقشندي في صبح الأعشى .

وكان النيل إذا بلغ ستة عشر ذراعاً ، وهو المعبر عنه بماء السلطان ، كُسر خليج القاهرة ، ولكسر الخليج كما يقول المقريزي :

« يوم معدود ، ومقام مشهود ، ومجتمع خاص ، يحضره العام والخاص ». ويقول عنه القلقشندي هو :

« يوم مشهود ، وموسم معدود ، ليس نظير في الدنيا ، وفيه تُكتب البشارات بوفاء النيل إلى سائر أقطاب المملكة ، وتسير بها البُرُد » .

ويقول السيوطي :

« جرت العادة كل سنة إذا وفي النيل أن يرسل السلطان بشيراً بذلك إلى البلاد ، لتطمئن قلوب العباد ، وهذه عادة قديمة ، ولم يزل كتّاب الانشاء ينشئون في ذلك الرسائل البليغة . . »

ويورد السيوطي بعد ذلك أربع رسالات في هذا المعنى : إحداهـا من إنشاء القاضي الفاضل ، والثانية من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، والثالثة كتبها الصلاح الصفدي ، والرابعة كتبها الأديب تقي الدين أبو بكر ابن حجة .

حفلات الوفاء :

حافظ المصريون بعد إسلامهم على تقاليدهم القديمة ، فعنوا بمقاييس النيل والاحتفال بوفائه ، وإن كانوا قد أدخلوا على هذا الاحتفال بعض التعديل الذي يتفق والدين الجديد ، وأقدم وصف عثرتُ عليه لهذا الاحتفال هو لابن رُسْتَة (جغرافي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري —

التاسع الميلادي) في كتابه « الأعلاق النفيسة » ، وهذا الوصف يبين جمال الاحتفال وبساطته في أول العهد ، فقد كان الموكلون بقياس النيل يرقبون الزيادة إصبعاً إصبعاً ، وذراعاً وذراعاً ، فإذا وفى ساروا في موكب جليل إلى المسجد الجامع (جامع عمرو) ، يحملون الزهور والرياحين ، ويقفون هناك حلقات حلقات ، يعلنون وفاء النيل ويشكرون الله ، ويتراشقون بالأزهار. ولا شك عندي انهم كانوا يعلنون هذا كله في أهازيج واناشيد خاصة ، ويبدو أن المتولين أمر المقياس كانوا ينادون في الناس معلنين الزيادة إصبعاً إصبعاً ، وذراعاً ذراعاً ، حتى أتى المعز لدين الله الفاطمي ، فمنع من النداء بزيادة النيل ، وأن لا يكتب بذلك إلا اليه ، وإلى القائد جوهر ، فإذا بلغت الزيادة ستة عشر ذراعاً أباح النداء ، وكُسر الخليج ، ويقول المقريزي في الخطط معلقاً على هذا التعديل :

« فتأمل ما أبدع هذه السياسة ، فإن الناس دائماً إذا توقف النيل في أيام زيادته أو زاد قليلاً يقلقون ويحدثون أنفسهم بعدم طلوع النيل ، فيقبضون أيديهم على الغلال ويمتنعون من بيعها رجاء ارتفاع السعر ، ويجتهد من عنده مال في خزن الغلة ، إما لطلب السعر أو لطلب إدخار قوت عياله ، فيحدث بهذا الغلاء ، فإن زاد الماء انحلّ السعر ، وإلا كان الجدب والقحط ، ففي كتمان الزيادة عن العامة أعظم فائدة وأجل عائدة . »

وكانت الحفلات التي تقام والمهرجانات التي تعقد ابتهاجاً وسروراً بوفاء النيل في عهد الفاطميين بالغة الحد الأقصى من الجمال والبهجة والروعة والأناقة ، وأهم هذه المواكب موكبان : أحدهما لتخليق المقياس عند وفاء النيل ، والثاني لكسر الخليج ، وبينهما ٣ أو ٤ أيام ، وكانت الدولة كلها ، خليفتها ووزراؤها وقضاتها وقوادها وفقهاؤها وشعراؤها وفنانوها وموسيقيوها وشعبها أخيراً ، كان هؤلاء جميعاً يشتركون في هذه المواكب الحافلة ، فلا غرو أن قامت للآداب والفنون دولة عظيمة الشأن في هذا العصر ، ولا غرو إذاً أن سعد الشعب المصري ونعم وأحس السرور في جنبات حياته تحت حكم الفاطميين .

وفي كتب المؤرخين صور واضحة لهذه المواكب ، نحاول هنا نقل صورة لها لجمالها وروعتها :

موكب التخليق :

كان الموكلون بالمقياس يرفعون إلى ديوان الانشاء كل يوم رقعة بها مقدار الزيادة ، فلا يطلع عليها إلا الخليفة والوزير ، فاذا بلغت الزيادة ستة عشر ذراعاً أمر بان يبيت في جامع المقياس ليلة الوفاء قراءُ الحضرة والمتصدرون بالجوامع بالقاهرة ومصر لختم القرآن الكريم ، وتمد لهم الاسمطة وتوقد الشموع الكثيرة ، وفي الصباح يلبس الخليفة الحلل الفاخرة ، والتاج الذي فيه اليتيمة ، ويخرج من القصر في موكب زاخر ، وفي ركابه الوزير والامراء والجند ، فيشق القاهرة ويمر من باب زويلة إلى الصليبة ، ثم يعرج على جامع ابن طولون إلى أن ينتهي به السير إلى دار الصناعة ، ويشق الفسطاط حتى يصل إلى شاطىء النيل ، وتكون سفينته الخاصة (الحراقة) معدة في النيل :

« وقد حمل إليها من القصر بيت مثمن من العاج والابنوس ، كل جانب منه ثلاثة أذرع ، وطول قامة رجل تام ، فيُرَكَّب في السفينة وعليه قبة من خشب محكم الصنعة ، وهو وقبته ملبس صفائح الفضة المذهبة ... » ، ثم يخرج الخليفة ومعه الوزير وبعض خاصته إلى هذه السفينة ، ويجلسون في هذا البيت المثمن ، وتسير بهم إلى المقياس ، ويصلي كل منهم ركعتين وحده ، ثم يتناول الخليفة إناء بيده ويذيب فيه الزعفران ، ويتناوله صاحب بيت المال فيعطيه لابن أبي الرداد متولي المقياس ، فيلقى هذا بنفسه وهو بملابسه في الفسقية ، ويمسك بالعمود برجليه ويده اليسرى ، ويخلّق المقياس بيده اليمنى ، وبعد التخليق يعود الخليفة إلى حراقته التي تنقله إلى البر حيث يعود إلى القاهرة .

« ويكون في البحر ذلك اليوم نحو ألف مركب مشحونة بالناس للتفرج وإظهار الفرح ... »

موكب كسر الخليج :

وبعد ٣ او ٤ أيام تقام في بيت المال موائد من :

« التماثيل المختلفة من الغزلان والسباع والفيلة والزراريف وغيرها ، منها ما هو ملبس بالعنبر ومنها ما هو ملبس بالصندل .. مفسرة الأعين والأعضاء بالذهب ، وكذلك تعمل أشكال التفاح والأترج وغير ذلك . »

وتخرج خيمة الخليفة الكبيرة فتنصب على البر الغربي للخليج عند منظرة السكرة ، وتنصب بجريها خيام أخرى للأمراء والخاصة حسب مراتبهم .

وفي الصباح يلبس الخليفة ثوباً يسمى البَدَنَة ، وهو حرير مرقوم بذهب لا يلبسه غير ذلك اليوم ، ويخرج في مثل موكبه السابق في أجمل هيئة وأكمل أبهة ، ويسير الخليفة في موكبه من القصر وحوله الوزير والاستاذون المحنكون في الطريق السالف الذكر إلى أن يصل جامع ابن طولون ، حيث يجد قاضي القضاة والشهود في انتظاره على بابه ، فيسلم عليهم ، وينضمون إلى موكبه الذي يستأنف السير إلى أن يصل إلى الخيمة ، فيترجلون ويجلسون على نظام خاص مقرر ، وقراء الحضرة هناك يتلون القرآن الكريم لمدة ساعة ، فإذا انتهوا استأذن صاحب الباب للشعراء ، فيدخلون حسب مراتبهم ، وينشد كل واحد فيما يناسب الحفل ، والحضور ينتقدون ما يسمعون ، فيقرظون شعر البعض ، ويجرحون شعر البعض الآخر . وفي المقريزي (الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٦٥ ، طبعة النيل) صورة طريفة لهذا المهرجان الأدبي وآراء الحاضرين في نقد ما قيل فيه من شعر .

عاشوراء [1]

اليوم هو عاشوراء ، والأمس كان تاسوعاً ، وفيهما احتفل المصريون بالموسم ، وإن كان الكثيرون منهم لا يعرفون ما هو هذا الموسم ولمَ كان موسماً .

وإنما هم حريصون الحرص كله على الاحتفال به بذبح الطيور ، ومد الموائد ، وشراء الحلوى والفاكهة والتوسعة على أولادهم ، ولهذا اليوم قصة لعله من المفيد أن نرويها هنا للسادة المستمعين .

فعاشوراء هو اليوم العاشر من المحرم ، وهو اليوم الذي قتل فيه أبو الشهداء الحسين بن علي — رضي الله عنه — في موقعة كربلاء ، وقد حزن الشيعة لمقتله حزناً شديداً ، وظلوا يقيمون المآتم في هذا اليوم من كل عام ، ويعتبرونه يوم حزن عام، يطوفون فيه بالأسواق يندبون ويبكون وينشدون، ولا زال الأمر على هذا في إيران والعراق حيث يسود المذهب الشيعي .

ولما قامت الدولة الفاطمية في مصر — وهي دولة شيعية — اتخذ الاحتفال

(١) اذيع هذا الحديث في اذاعة اسكندرية بمناسبة الاحتفال بموسم عاشوراء .

بهذا اليوم شكلاً رسمياً ، وأصبحت الدولة تحتفل به وتعتبره عيداً من أعيادها الرسمية ، ولكنه على العكس من الأعياد الأخرى كلها كان عيد حزن وبكاء – ففي هذا اليوم كانت تعطل الأسواق ، وتقفل الدكاكين ، ويخرج الناس ومعهم المنشدون إلى الجامع الأزهر ، وتتعالى أصواتهم بالنحيب والنوح والنشيد ، وعندما نقلت رأس الحسين إلى القاهرة وبنى لها المشهد الحسيني في أواخر الدولة كان خروج الناس إلى هذا المشهد لا إلى الجامع الأزهر .

وكانت صفة الاحتفال أن يحتجب الخليفة عن الناس ، وفي أول النهار يركب قاضي القضاة والشهود بملابس عادية ، ويذهبون إلى المشهد الحسيني فاذا جلسوا فيه ومعهم قراء الحضرة والمتصدرون في الجوامع جاء الوزير فجلس في الصدر ، وعلى جانبيه القاضي والداعي ، ويبدأ القراء في قراءة القرآن ثم ينشد جماعة من الشعراء شعراً في رثاء أهل البيت عليهم السلام ، وذلك لمدة ثلاث ساعات يُستدعون بعدها إلى القصر ، فيدخل قاضي القضاة وداعي الدعاة ومن معهما إلى باب الذهب ، فيجدون الدهاليز قد فُرشت بالحصر بدل البسط ، فإذا اكتمل هذا الجمع بدأ القراء يقرأون ، والمنشدون ينشدون للمرة الثانية ، ثم يُمد سماط يسمى سماط الحزن ، لأنه يختلف عن أسمطة الأفراح والأعياد ، فلا تقدم فيه الحلوى والأطعمة الفاخرة ، وإنما تقدم فيه ألف زبدية من العدس الأسود ، والعدس المصفى ، والملوحات والمخللات ، والأجبان والألبان الساذجة ، وعسل النحل ، والخبز والفطير المصنوعان من الشعير وقد غير لونها قصداً ، ويدعى الحضور والناس للأكل من هذا السماط ، وفي ذلك الوقت يمر النُّوَّاح بأسواق القاهرة يرفعون أصواتهم بالبكاء والنحيب والإنشاد .

ولما زالت الدولة الفاطمية وقامت دولة صلاح الدين الأيوبي – وهي دولة سنية – تغيّرتْ طريقة الاحتفال بهذا اليوم ، واعتبر ملوك بني أيوب هذا اليومَ يومَ فرح وسرور ، يوسعون فيه على عيالهم ، ويكثرون من الأطعمة

القاخرة ، ويصنعون ألوان الحلوى ، ويكتحلون ، ويدخلون الحمام ، يقول المؤرخ المصري المقريزي إنهم فعلوا ذلك جرياً على عادة أهل الشام التي سنّها لهم الحجّاجُ في أيام عبد الملك بن مروان ليرغموا بذلك آناف الشيعة .

وظلّ هذا التقليد — وهو الاحتفال بيوم عاشوراء على النمط الذي رسمه الأيوبيون — متبعاً في عصر المماليك، وفي العصور التالية حتى وقتنا الحاضر.

غير أن هذا الاحتفال صحبه خـــلال العصور المختلفة نشوء كثير من الخرافات التي انمحى بعضها الآن نتيجة لانتشار التعليم والثقافة وبقي البعض الآخر متداولاً بين أولاد البلد في القرى وفي الأحياء الوطنية من المدن الكبرى .

فمن هذه الخرافات أن العامة في مصر كانوا يعتقدون أن الجن يزورون بعض الناس في إحدى الليالي العشر من المحرم، وفي اعتقادهم أن الجن يظهرون أحياناً على هيئة سَقّا يسمى : « سَقّا العَشْر » ، وأحياناً أخرى على هيئة بغلة تسمى : « بغلة العَشْر » ، فإذا ظهر الجنى في شكل سقا فإنه يطرق باب النائم بعد منتصف الليل فيسأل هذا : « مَنْ بالباب ؟ » فيجيبه الجني : « أنا السقا ، أين أفرغ القربة ؟ » فيقول له : « أفرغ في الجرّة » ، وبعد خروجه يجد صاحب المنزل الموعود الجرة ملأى بالذهب .

أما بغلة العشر في اعتقادهم فإنه من المعتاد أن تأتي وعليها خُرْج مملوء ذهباً وفوقه رأس قتيل ، وفي عنق البغلة أجراس صغيرة تحركها عند باب الشخص الذي أتت لتجلب له الثروة والغنى ، فإذا كان هذا الرجل مجدوداً فإنه يخرج ولا يخاف عند رؤية رأس القتيل ، بل يأخذها ويفرغ الخُرْج ، ثم يملأه تبناً أو نخالة ، ويضعه ثانية على ظهر البغـــلة ويقول : « اذهب يا مبارك » .

ومن هذه العادات المتبعة في هذا اليوم البخور ضد الحسد ، وهذه العادة

لا زالت متبعة في مصر حتى اليوم ، وهي أن يطوف بعض الباعة في شوارع القاهرة – وقد رأيت بعضهم في شوارع الاسكندرية – يبيعون المَيْعة المباركة ، وهم ينادون عليها بصوت ملحن : « يا بخور عاشورا المبارك » ، « يا بركة عاشورا المبارك » ، « أبرك السنين على المؤمنين يا ميعة مباركة » ، ويحمل البائع عادة على رأسه صينية مستديرة يغطيها بقطع من الورق المختلف الألوان ، ويضع عليها هذه الميعة وهي خليط من أنواع البخور، ويتوسط الصينية عادة كوم من مادة حمراء اللون ممزوجة بقليل من «الميْعة» والكزبرة والحبة السوداء ، ويحيط به أكوام خمسة صغيرة ، ثلاثة منها من الملح الملوّن باللون الأزرق والاحمر والاصفر ، والرابع من الشيح ، والخامس من تراب اللبان ، وهذه جميعاً تكون المَيْعة المباركة .

وينادي المشتري البائع إلى داخل المنزل ، فيضع هذا الصينية على الأرض ويتناول صحناً أو قطعة من الورق ، ويضع فيها قليلاً من كل صنف ، ويلقى أثناء ذلك نشيداً طويلاً يبدأ بقوله : « باسم الله وبالله ، لا غالب إلا الله ، رب المشارق والمغارب ، كلنا عبيده ، يلزمنا توحيده ، وتوحيده جلاله »

ثم يثنى على مزايا الملح،ويبدأ يرقي أصحاب المنزل بأقوال غريبة مضحكة لا شيء فيها إلا أنها تعتمد على السجع ، فيقول مثلاً : « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، ومن كل عين حاسد ، بسم الله أرقيك ، والله يشفيك ، من كل نفس أو عين أرقيك ، من عين البنت ، أحمى من الخشت ، ومن عين المرة أحمى من الشرشرة ، ومن عين الولد أحمى من الزَرَد ، ومن عين الراجل أحد من المناجل ... الخ »

ثم يروي بعد ذلك كيف أبطل سليمان حسد العين، ويأخذ في تعداد أثاث المنزل ورقيته واحدا واحداً ، فيقول مثلاً : « بخرت السلالم ، من عين أم سالم ، بخرت الكرسي من عين أم مرسي ، بخرت اللحاف من وجع الأكتاف ... إلخ » .

ومن العادات التي لا تزال متبعة حتى الآن لون من الحلوى يصنعه الناس في هذا اليوم ويسمونه « عاشورا » ، وهو نوع يصنع من الحبوب أو من القمح عادة الذي يُطبخ على شكل البليلة المعروفة ، ثم يصفى ويضاف إليه اللبن والسكر وبعض النقل مثل الجوز واللوز والبندق ، ويُغرف في الأطباق بعد ذلك .

وبعد ، فهذا عيد من الأعياد القومية التي كان يحتفل بها المصريون في العصور الماضية ، وهذه بعض الخرافات والعادات التي صحبته ، زال بعضها وبقى البعض الآخر ، وخاصة التوسعة على العيال ، وذبح الطيور ، وإقامة الموائد ، وطبق عاشوراء ، وعلل العامة هذه التوسعة فقرنوا بين لفظ توسعة ولفظ تاسوعا ، وهو اليوم السابق لعاشوراء ، مع أن اللفظين من أصلين مختلفين ، ولا علاقة بينهما إلا التشابه في الحروف ، وقد يتسآل الناس عن السر في احتفال المسلمين بهذا اليوم ، وقيل في الرد على هذا السؤال أقوال كثيرة ، منها أنه اليوم الذي تقابل فيه آدم وحواء لأول مرة بعد طردهما من الجنة ، ومنها أنه اليوم الذي خرج فيه نوح من سفينته ، ومنها ان العرب كانوا يصومون هذا اليوم قبل الإسلام وظل المسلمون الأوائل يصومونه ، ولكن السبب الأكبر لتقديس المسلمين لهذا اليوم هو انه استشهد فيه الحسين رضي الله عنه ، ثم تغير احتفالهم به من احتفال حزن إلى احتفال فرح عند السنيين ابتداء من العصر الأيوبي .

عيد الأضحى
في التاريخ

في اليوم العاشر من ذي الحجة يحتفل المسلمون في جميع أنحاء الأرض بالعيد الإسلامي الأكبر ، عيد الأضحى ، عيد الفداء ، وهم إذ يحتفلون بهذا العيد ، إنما يحتفلون بكثير من المعاني السامية والمثل العليا .

ولهذا العيد جذور عميقة تمتد في التاريخ إلى آماد بعيدة ، وتنتهي إلى عصر إبراهيم الخليل أبي الأنبياء ، وتتصل قصة هذا العيد بمصر اتصالاً وثيقاً ، فقد كانت هاجر زوج إبراهيم وأم ولده إسماعيل مصرية .

كان إبراهيم عراقياً ، وكان أبوه نجاراً يصنع الاصنام ويبيعها لقومه ، فيعكفون عليها عابدين ، ولما بلغ إبراهيم مبلغ الشباب بدأ الشك يساوره في قيمة هذه الاصنام التي كان يشترك مع أبيه في صنعها ، وتحدث بهذا الشك إلى أبيه وإلى قومه ،فلم يستمع إليه أحدمنهم ، وأراد أن يسخر من هذه الآلهة المصنوعة ، فحمل فأسه وحطمها صنما صنما إلا كبيرها ، فقد تركه قائماً ، فلما سألوه : « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ » – رد عليهم ردا

كله سخرية لاذعة بهم وبآلهتهم : « قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » .

وقضى إبراهيم فترة من الشك والحيرة يبحث عن ربه بعد أن صدف عن عبادة الأصنام، وأيقن أنها عبث من العبث ، وأنها لا تأتي خيراً ولا تمنع ضراً ، وكان كلما رأى آية من آيات الخالق الكبرى في كونه ظنها الإله الحق ، وظل صريع هذا القلق إلى أن هداه الله إلى الدين الحق، إلى الحنيفية السمحة إلى الإسلام الأصيل، وعند ذلك آمن بالله الحق الواحد الأحد ، خالق الكون جميعاً ، وفاطر السموات والأرض ، وقد صوّر القرآن الكريم هذه التجربة القاسية التي مرّ بها إبراهيم أبدع تصوير في قوله تعالى : « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لا أحب الأفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما افل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » .

ودعا إبراهيم قومه إلى هذا الدين الجديد ، فلم يستمعوا له ، بل ألقوه في النار ، فأنجاه الله منها ، وخرج بعد ذلك من وطنه وفي صحبتــــه زوجه سارة ، واتجه إلى فلسطين ومنها إلى مصر — وكانت مصر حينذاك يحكمها ملوك الهكسوس ، وكان من عادتهم ان يغتصبوا كل زوجة جميلة — وكانت سارة رائعة الجمال ، فخشي إبراهيم ان يقتله الملك ليتخذها زوجة له، فادعى ان سارة اخته ، ومع ذلك فقد سعى الملك للزواج من ساره ، ولكنه رأى فيما يرى النائم انها ذات بعل، فردّها الى إبراهيم بعد ان عاتبه وقدم له بعض الهدايا ، ومن بينها جارية مصرية اسمها هاجر ، وكانت سارة قد قضت سنين طويلة دون ان تنجب من إبراهيم ، فأشارت عليه ان يدخل بهاجر ،ففعل ، ولم تلبث هاجر ان ولدت له اسماعيل ، وبعد ان شبّ إسماعيل وكبر ولدت سارة إسحق .

وتوالت الايام ورأى إبراهيم في منامه ان الله يأمره ان يذبح ابنه ، وان يقدمه قرباناً له ، وكان هذا المنام إشارة من الله سبحانه وتعالى اراد بها ان يمتحن طاعة نبيه وعبده إبراهيم في اعز من عنده في ابنه ووحيده إسماعيل الذي رزقه على كبر وبعد يأس ، وان يمتحن طاعة الابن لأبيه في اعز مـــا يملك ، بل في كل ما يملك ، في روحه وحياته وبقائه ، قال تعالى :

« فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني ارى في المنام اني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت إفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتلّه للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم . »

وهكذا بدأت قصة الذبح والفداء ، وهكذا ظلّ أتبـــاع دين إبراهيم يحتفلون بذكراها ، وهكذا أحيا الإسلام سنة الاحتفال بهذه الذكرى العظيمة ، لما تتضمنه من معاني سامية ، ولما تشتمل عليه من مثل عليا ، لعل أقواها وأبرزها مثل التضحية والفداء ، ومن هنا سمي هذا العيد في الاسلام بعيد الأضحى .

وتسير القصة في مسراها الطبيعي لتتم فصولها ، فقد شبّ الوليد الجديد إسحاق إلى جانب أخيه الأكبر إسماعيل ، ولكن الغيرة بدأت تدب في نفس الزوجة الاصيلة سارة ، مذ رأت إبراهيم يساوي في معاملته بـــين ولديه : إسحق ابنها ، وإسماعيل ابن آمتها ، وأحس إبراهيم أن العيش لن يطمئن له مع وجود المرأتين في كنفه ، فصحب هاجر وابنها واتجه جنوباً حتى وصل إلى الوادي الذي تقوم فيه مكة اليوم ، وكان هذا الوادي ملتقى القوافل حين تنفصل من اليمن إلى الشام أو من الشام إلى اليمن ، اما فيما عدا هذا من أوقات السنة فقد كان خلاء قلّ أن ينزل به انسان .

وفي هذا الوادي ترك إبراهيم هاجر وابنه ، وخلّف لهما بعض الماء وبعض ما يقتاتان به ، ثم كر راجعاً .

ونفد الطعام ، ونفد الماء ، وأحس الطفل العطش ، وأخذت هاجر تجيل طرفها فيما حولها ، وبدأت تهرول في الوادي بين الصفا والمروة ، تلتمس لوليدها شربة من ماء دون جدوى ، وأتمت السعي سبعاً ، وعادت واليأس يكاد يقتلها ، ولكنها فوجئت بابنها وهو يفحص الأرض بقدمه ، والماء ينبع من تحتها ، وكانت تلك بئر زمزم التي لا يزال الحجيج من المسلمين يحرصون حتى اليوم أثناء أدائهم للفريضة على الشرب منها شفاء وبركة .

واستهوت بئر زمزم بعد ذلك افئدة من قبائل العرب ، فاتخذت هذه البقعة المباركة لها مقراً ومقاما ، وتردد إبراهيم بعد ذلك على هذا المكان لزيارة ابنه إسماعيل ، وتعاون الاب والابن على إقامة الكعبة بيت الله الحرام ، وهو أول بيت وأقدم مسجد ذكر فيه اسم الله ، يقول الله سبحانه وتعالى :

« إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً » .

وكان بناء البيت الحرام عاملاً آخر قوياً من العوامل التي دفعت الناس إلى الحج إلى هذه البقعة المباركة والمقام بها وعمرانها ، قال تعالى :

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات من آمن بالله واليوم الآخر ومن كفر فامتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .

ثم جاء محمد عليه السلام بدين الاسلام مجدداً لدين إبراهيم فلا عجب

أن جعل الله سبحانه وتعالى البيت الحرام القبلة التي يتجه اليها المسلمون في صلاتهم : « فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » ولا عجب أن جعل الله سبحانه وتعالى الحج إلى بيته ركناً من اركان الاسلام. « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ».

* * *

هذه المعاني التاريخية السامية تحتشد كلها اليوم في نفوس المسلمين جميعاً وهم يحتفلون بعيدهم الأكبر ، عيد التضحية والفداء ، وهم يرددون نشيداً من اناشيد الإسلام القوية التي يستجيبون فيها لدعوة الله ، ويمجدون فيها قدرة الله ، ويحمدون فيها الله ، ويوحدون فيها الله الواحد الأحد الذي لا شريك له .

بهذا النشيد وبهذه التلبية ارتفعت أصوات المسلمين منذ كان الاسلام ، وسترتفع دائماً في هذا اليوم إلى أن يشاء الله مرددة :

« لبيك اللهم لبيك
لبيك لا شريك لك — لبيك
ان الحمد والنعمة لك
والملك ، لا شريك لك »

طريقة مسح الأراضي وتقدير الخراج

في مصر الاسلامية [1]

كانت الحكومات الملكية المختلفة التي تعاقبت على حكم مصر من أقـــدم العصور تعتبر الأرض المصرية عامة ملكاً خالصاً للملوك الحاكمين ، ولما كان هؤلاء الملوك لا يستطيعون زراعة هذه الأرض والعناية بأمرها وجمع خراجها بوساطة رجالهم فحسب، فقد كانوا يتركونها للفلاحين ـ الذين أتقنوا صناعتهم ـ يعنون بأمرها ويفلحونها ويدفعون أموالها .

وكانت هذه الحكومات تشهر خراج الأقاليم المختلفة لبيعها بالمزاد العلني ، وذلك لكي تنجو بنفسها من تحمل المرتبات الضخمة التي تدفعهـــا للجباة ، ولتضمن الحصول على الأموال التي تريدها في ميعاد معين . أما الملتزمون الذين تنتهي اليهم صفقات هذه الأراضي فقد كانت تترك لهم الحرية التامة في كثير من الأحيان والمحددة في بعض الأحيان ـ للعنـــاية بري الأرض وصرفها وزراعتها وجباية أموالها .

---

(١) نشر هذا البحث في مجلة الثقافة ، السنة الثانية العدد ٩٧ الثلاثاء ٥ نوفمبر ١٩٤٠ .

وكان الحاكم يحفظ لنفسه نصيباً من هذه الأرض – هو أجود الأنصبة دائماً – كما كان يمنح أمراءه وجنوده وحرسه الخاص الإقطاعات المختلفة التي تدر عليهم الربح الوفير بدلاً من المرتبات الواجب صرفها لهم .

ولما دخل العرب مصر واستوطنوها وحكموها وامتزجوا بأهلها وانتشروا في ربوعها لم يدخلوا في نظمها شيئاً من التجديد اللهم إلا فيما يتعلق بالشئون الدينية كالصلاة والصوم ، وقوانين المعاملات ، كالزواج والطلاق وغيرهما ... أما النظم الاقتصادية وخاصة ما تعلق منها بالأرض وريعها وزراعتها وجباية أموالها فقد آثروا اتباع الطريق التي اتبعها سلفهم من قبل ، فكان يجلس متولي الخراج كما يروي المقريزي :

« في جامع عمرو بن العاص من الفسطاط في الوقت الذي تتهيأ فيه قبالة الأراضي وقد اجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل فينادي على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدي متولي الخراج يكتبون ما ينتهي إليه مبالغ الكور والصفقات على ما يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقلبوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك ، فإذا انقضى هذا الأمر خرج كل من تقبّل أرضاً وضمنها الى ناحيته ، فيتولى زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك ، ويحمل ما عليه في إبانه على أقساط ، ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه تلك الأراضي ما ينفقه على عمارة جسورها وسدّ ترعها وحفر خلجها ، بضرابة مقدرة في ديوان الخراج ، ويتأخر من مبلغ الخراج في كل سنة في جهات الضمان والمتقلبين بقايا لما تأخر من مال الخراج البواقي – وكانت الولاة تشدد في طلب ذلك مرة وتسامح به مرة ، فإذا مضى من الزمان ثلاثون سنة – حولوا السنة وراكوا البلاد كلها ، وعدلوها تعديلاً جديداً ، فزيد فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ، ونقص فيما يحتاج إلى التنقيص منها ، ولم يزل ذلك يعمل في جامع عمرو بن العاص إلى أن عمّر أحمد بن طولون جامعه ، وصار العسكر

منزلاً لأمراء مصر ، فنقل الديوان إلى جامع أحمد بن طولون ، ثم نقل أيام العزيز بالله نزار إلى دار الوزير يعقوب بن كلّس ، فلما مات الوزير نُقِل الديوان إلى القصر بالقاهرة ، واستمر به مدة الدولة الفاطمية ، ثم نقل منه بعدها ... » (١)

هذه وثيقة نادرة تبين في وضوح مسائل هامة ، نلخصها ليسهل فهمها فيما يأتي :

١ — أن متولي الخراج كان يجلس في الوقت الذي تتهيأ فيه قبالة الأرض — في المسجد — وكُتّاب الخراج بين يديه .

٢ — كان للخراج سجلات خاصة أدرجت فيها أسماء الكور ومبالغ الصفقات .

٣ — أن الناس كانوا يحضرون من مختلف الجهات ، فتعرض الصفقات للضمان بطريق المزاد العلني .

٤ — أن المتقبلين كانوا يتقبلون الأرض لمدة اربع سنوات .

٥ — أن كل من تقبّل أرضاً كان يتولي زراعتها وإصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها :

أ — بنفسه ب — وأهله ج — ومن ينتدبه لذلك .

٦ — أن المتقبل كان : « يحمل ما عليه إبانه (أي في وقته المحدد) على أقساط ، (وأحسبها على أقساط سنوية في أشهر الحصاد ...) .

٧ — ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضي (أي يخصم مما يدفع) مـا ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجها ، بضرابة مقدرة في ديوان الخراج (أي بنسبة معينة في هذا الديوان) .

(١) المقريزي ، الخطط ، مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ . ج ١ ، ص ١٣١ — ١٣٢ .

٨ – وأن بعض المتقلبين كانوا يتأخرون في دفع الاقساط إما عجزاً أو تهربا ، وأن الولاة كانوا يتشددون في جمع هده البواقي[١] مرة ويتسامحون مرة أخرى .

٩ – ان الولاة كانوا يتبعون نظاماً دقيقاً مقرراً ، وذلك أنهم يروكون البلاد – أي يمسحونها – كل ثلاثين سنة ، ويعدلونها تعديلاً جديداً ، فيزيدون فيما يحتمل الزيادة من غير ضمان البلاد ، وينقصون فيما يحتاج إلى التنقيص منها ، وهذه سياسة دقيقة قوية ، لأنها تدل على يقظة النظام المتبع الذي فطن الى جواز زيادة الأرض المتزرعة إذا عُنيَ صاحب الضمان بإصلاح وسائل الري وضم الأراضي البور المجاورة لأرضة ، وإلى جواز نقصان هذه الأرض في بعض النواحي إذا ظهر فسادها أو بعدها عن المجاري المائية[٢] .

١٠ – وأن عملية بيع الخراج كانت تحدث في المسجد الجامع ، فإنه كان يعتبر كديوان للمالية ، فكان الديوان أول الامر في مسجد عمرو ، ثم نقل إلى مسجد أحمد بن طولون بعد بنائه ، وفي عهد العزيز بالله نقل الديوان الى قصر وزيره إبن كلس ، وبعد وفاة الأخير نقل الديوان الى القصر الخليفي .

ويبدو أن هذا النظام استمر متبعاً في عهود الدولتين الفاطمية والأيوبية ، وأن القواعد المقررة من جعل المدة بين كل روكين ثلاثين عاماً روعيت في عهد الدولة الفاطمية ، فإن المقريزي يذكر نقلاً عن الأمير جمال الدين والملك موسى

---

(١) قدرت البواقي في زمن الوزير الناصر للدين الحسن بن علي اليازوري بمائتي ألف دينار هي عبارة عن « معلول ومنكسر على موتى وهراب ومفقود » . المقريزي ، الخطط ج ١ ص ١٣٣

(٢) ولقد كان لنظام الروك فائدة أخرى جليلة اذ يستطيع الباحث بعد قراءة سجلات كل روك ان يعرف بالضبط عدد جنود الجيش المصري في كل عهد ريكت فيه البلاد ، أي كل ثلاثين سنة ، وفيما يلي نص له قيمته يذكر بوضوح عدد الفرسان في الجيش المصري زمن الناصر محمد بن قلاوون : « وعساكر مصر في الدولة التركية على قسمين : أجناد الحلقة ، والمماليك السلطانية ، وأكثر ما كانت أجناد الحلقة في أيام الناصر محمد بن قلاوون ، فانها بلغت على ما رأيته في جرائد ديوان الجيش بأوراق الروك الناصري أربعة وعشرين ألف فارس » (المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٥٣) .

ابن مأمون البطائحي في تاريخه من حوادث سنة إحدى وخمسمائة أن الأفضل بن أمير الجيوش راك البلاد المصرية ، فحلّ جميــع الإقطاعات وراكها « وأمر الضعفاء من الأجناد أن يتزايدوا فيها فوقعت الزيادة في إقطاعات الأقوياء إلى أن انتهت الى مبلغ معلوم .

وكتبت السجلات بأنها باقية في أيديهم الى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليهم فيها زائد»[1] .

والوثيقة الأولى التي نقلناها عن المقريزي هامة كل الأهمية لدراسة نظام الروك أو مسح الأراضي المصرية ، وتقرير خراجها ، وطرق جبـــاية هذا الخراج ، وتحديد مدة الضمان بأربع سنوات ، وتحديد المدة بين كل رَوْكين بثلاثين سنة ، غير أن الأمير البحاثة عمر طوسون لم يشر إلى هذه الوثيقة عند الكلام على الخراج في كتابه « مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن » ، ولذلك لم يتناول بالبحث نظام الروك في هذا الفصل من كتابه ، كما أنه ذكر أن مصر ريكت في العهــد الاسلامي خمس مرات فحسب[2] ، يذكرها بالترتيب ، ويجعل آخرها الروك الناصري ، ولكنه لم يذكر من بينها الروك الأفضلي[3] السابق ذكره ، وروكاً آخر تم في عهد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي[4] .

---

(١) المقريزي – خطط ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) عمر طوسون مالية مصر ، مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية ١٩٣١ ص ١٩٧ .

(٣) نسبة الى الأفضل بن أمير الجيوش ، وقد لاحظت أن أحداً ممن تناول هــذا الموضوع بالبحث لم يشر الى هذا الروك ولا الى الروك الصلاحي .

(٤) ذكر هذا الروك صاحب صبح الأعشى (ج ٣ ، ص ٤٥٢) نقلا عن ابن مماتي فقال: « فذكر ان قطيعة القمح كانت الى آخر سنة سبع وستين وخمسمائة عن كل فدان ثلاثة أرادب ، ثم انه تقرر عند المساحة في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة أردبان ونصف أردب ». وانظر أيضاً المقريزي – الخطط ج ١ ، ص ١٦٣ .

والمعلومات التي أثبتها مؤرخو العرب عن كيفيـة مسح الأراضي المصرية في هذه المرات السبع (وقد تعثر على أكثر منها ما دام المقريزي يقرر أن الأرض كانت تراك كل ٣٠ سنة) قليلة جداً ، اللهم إلا الروكين الأخيرين : الحسامي والناصري ، فقد أفاض المؤرخون بعض الشيء في ذكر أخبارهما .

وثمّ كتاب خـــاص يتحدث عن الروك الناصري ، ومؤلفه هو الشيخ أشرف الدين بن يحيى بن المقر بن الجيعان .

وفي الفصل التالي حديث مفصل عن هذا الروك الناصري .

الروك الناصري [1]

ينسب ابن الجيعان [2] في مقدمة كتابه « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » [3] هذا الروك إلى الأشرف شعبان ، غير أنه من الواضح جداً أن هذا الروك هو الروك الناصري ، كما أثبت ذلك كل من P. Moritz [4] في المقدمة الفرنسية التي قدم بها كتاب « التحفة السنية » ، والأمير عمر طوسون في كتابه « مالية مصر »[5] .

---

(١) نشر هذا البحث في مجلة الثقافة ، السنة الثانية العدد ٩٧ ، الثلاثاء ٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠ .

(٢) يترجم له ابن اياس (ج ١ ص ١٩٦) في كلمات قليلة فيقول : « وفي جمادى الأولى توفي القاضي شرف الدين يحيى ابن الجيعان مستوفي ديوان الجيش ، وهو يحيى بن شاكر بن عبد الغني الشافعي وكان عالماً فاضلاً رئيساً حليماً ، وله اشتغال بالعلم والفرائض » .

(٣) طبعته دار الكتب المصرية في المطبعة الأهلية سنة ١٨٩٨ ، وأشرف على نشره وقدم له بالفرنسية (P. moritz) .

(٤) المرجع السابق المقدمة ص IV – I .

(٥) عمر طوسون (مالية مصر) ص ٢٥٢ .

والكتاب المذكور ليس إلا ثبتاً حافلاً بأسماء الجهات ومساحاتها ومقدار خراجها ، ونستطيع أن نحس هذه الأهمية إذا عرفنا أن المؤلف كان مستوفي ديوان الجيش كما يذكر ابن أياس ، فهو ينقل عن السجلات التي بين يديه ، غير أن الكتاب تنقصه ناحية أخرى طريفة لم يتعرض لذكرها البتة ، وهي كيفية الروك ونتائجه ، وقد تناول المقريزي في الخطط هذه الناحية بشيء من الإسهاب ، فسدّ هذه الثغرة في كتاب ابن الجيعان ، وأصبح كل من المرجعين يكمل أحدهما الآخر ...

وسنحاول هنا أن نلخص الكيفية التي اتبعها الناصر محمد بن قلاوون في روكه الأخير في النقط الآتية :

١ — يذكر المقريزي أن الذي ساعد الناصر في إعداد معدات هذا الروك وإتمامه هو القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش ، فقد أعدّ له أوراقاً :

« بما عليه عبر النواحي ومساحتها ...(١) »

٢ — وقسم الناصر الديار المصرية إلى أربعة أقسام :

أ — الغربية

ب — الشرقية

جـ — المنوفية والبحيرة

د — الوجه القبلي

وانتدب لمسح كل قسم منها الأمراء والكتاب والمستوفين والقياسين ، وكان هؤلاء يسترشدون في مهمتهم في كل قرية بمشايخ البلاد ودلائها ، وعدولها ، وقضاتها ، وسجلاتها .

---

(١) المقريزي ، الخطط : ج ١ ، ص ١٤٢ .

٣ — وأنهم أتموا عملهم هذا في مدى خمسة وسبعين يوماً :

« وقد تحرر في الأوراق المحضرة حال جميع أرض مصر ومساحتها وعبرة أراضيها ، وما يتحصل عن كل قرية من عين وغلة وصنف [١] » .

٤ — وأن الناصر أبطل بعد انتهاء هذا الروك كثيراً من المكوس الجائرة المجحفة ، يذكر المقريزي منها أربعة عشر مكساً ، ويتحدث عن كل واحد منها على حدة ، ومن هذا الحديث نستطيع أن نلمس مقدار الجور الذي كان يتحمله المصريون قبل هذا العهد .

(٥) أن السلطان قسم الإقطاعات أربعـــة وعشرين قيراطاً (قسماً) ، احتفظ لنفسه منها بعشرة قراريط ، وترك للأمراء والأجنـاد أربعة عشر قيراطاً .

٦ — وكان غالبية الكتاب والأدلاء من الاقباط ، والمقريزي لا ينسى أثر مكرهم ودهائهم في هـــذا الروك ، فيقول :

أ — بأنهم : بدأوا بأن أضعفوا عسكر مصر ، ففرقوا الاقطاع الواحد في عدة جهات ، فصار بعض الجي في الصعيد ، وبعضه في الشرقية ، وبعضه في الغربية ، إتعاباً للجندي ، وتكثيراً للكلفة » .

ب —« وأفردوا جوالي الذمة من الخاص ، وفرقوها في البلاد التي أقطعت للامراء والاجناد،فإن النصارى كانوا مجتمعين في ديوان واحد ، فصار نصارى كل بلد يدفعون جاليتهم إلى مقطع تلك الضيعة ، فاتسع مجـــال النصارى ، وصاروا يتنقلون في القرى ، ولا يدفعون من جزيتهم إلا ما يريدون ، فقل متحصل هذه الجهة بعد كثرته » .

جـ — « وافردوا مـــا بقي من جهات المكوس برسم الحوائج خاناه التي

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

تصرف للسماط ، ليتناولوا ذلك ، ويوردوا منه ما شاءوا ، ثم يتولوا صرف ما يحصل منه في جهات تستهلك بالأكل ... »

٧ — وأن الناصر — بعد أن تم له هذا الأمر — جلس بايوانه في القلعة في المحرم من سنة ست عشرة وسبعمائة ، وكان يستعرض كل يوم أميرين من الامراء المقدمين بمضافيهما ، وكان نقيب الجيش يقدمهم واحداً واحداً إلى السلطان ، فيسأله دون وساطة : « عن اسمه ، وأصله ، وجنسه ، ووقت حضوره إلى ديار مصر ، ومع من قدم ، وإلى من صار من الامراء وغيرهم ، وعن مشاهده التي حضرها في الغزو ، وعما يعرفه من صناعة الحرب ، وغير ذلك من الاستقصاء ، فإذا انتهى استفهامه إياه ناوله بيده مثالاً من غير تأمل ، بحسب ما قسم الله له . . »

وتدل هذه الطريقة التي اتبعها الناصر في توزيع الاقطاعات على نزاهته التامة ، بل لقد تمادى الناصر في هذه النزاهة ، وذهب فيها إلى أبعد حد ، فأخذ — كما يقول المقريزي — في مواربة الامراء ، فما أثنوا على أحد في مجلس العرض إلا وأعطاه السلطان مثالاً باقطاع رديء ، فلما علموا ذلك أمسكوا عن الكلام معه جملة ...

٨ — كان من الطبيعي — إتباعاً لطريقة الاقتراع — أن يخرج لبعض الأمراء إقطاعات لا تروقهم ، وأن تخرج لغيرهم إقطاعات تسرهم ، وكان من الطبيعي أيضاً أن يثور من لا يرضى عن إقطاعه ، ويبدي امتعاضه وغضبه ، ولكن الناصر — لكي يضمن السمع والطاعة من أجناده وأمرائه — أمر أن لا يردّ أحدٌ مثالاً أخذه من السلطان ، ولا يشفع أمير في جندي ، وان من خالف ذلك ضرب ، وحبس ، ونفي ، وقطع خبزه ، فعظمت مهابة السلطان وقويت حرمته [1] ... »

(١) كان الناصر حازماً كل الحزم في اصداره هذا الأمر ، غير أنه كان الى ذلك قاسياً كل القسوة مع كل من تعرض لنظام الروك بالنقد ، وليس أدل على شدته وقسوته من قصة مضحكه الذي ربطه الى الساقية وأمر أن تدور به مدة ساعة كاملة حتى أشرف على الموت ، وذلك لأنه حاول أن يضحك الناصر بنكتة فيها نقد لنظام الروك ، انظر : المقريزي - خطط ج ١ ص ١٤٦ .

وأخيراً ، يتضح من دقة هذه الاجراءات وسرعتها ، والنزاهة والحزم اللذين اتبعا في توزيع الإقطاعات ، أن هذا الروك كان عمـــلا عظيماً يستحق الاعجاب والتقدير ، لذلك يعلن الأمير عمر طوسون إعجابه به فيقول :

« وهذا الروك كان محكماً في بابـــه ، ولم يكن فقط أكثر استيفاء من المساحات التي سبقته في العهد العربي ، بل كان عملا متقناً تفتخر به أي مصلحة من مصالح المساحة الحالية [1] ». وقد قام الأمير بمهمة شاقة حين أحصى جهات كل إقليم كما ذكرها ابن الجيعان ، ثم أحصى خراجها ، وأعد لذلك ثبتاً خاصاً خرج منه بهذه النتيجة الطيبة :

النواحي التي ذكر خراجها ومساحتها	١٨٢٨
النواحي التي ذكرت مساحتها ولم يذكر خراجها	٢٣١
النواحي التي لم يذكر خراجها ولا مساحتها	٦٣
النواحي التي ذكر خراجها ولم تذكر مساحتها	١٩٧
الجملة	٢٣١٩

ثم حاول الأمير سد هذا النقص بفروض تقريبية خرج منها بنتائج قريبة أو تكاد تكون قريبة من الحقيقة .

وإذا عرفنا أن كتاب ابن الجيعان ليس إلا ثبتاً بالأسماء والأرقام ، أدركنا الجهد الكبير الذي عاناه الأمير عند تركيز هذه الأسماء والأرقـام حتى انتهى إلى هـــذه النتيجة الطيبة في جداول واضحة تبين مساحة كل إقليم ومقدار خراجه ، متوخياً في نفس الوقت سد النقص الموجود في كتاب ابن الجيعان ..

* * *

وبعد فهذه محاولة ضعيفة حاولت بهـــا نشر صفحة من صفحات الحياة الاقتصادية في مصر الاسلامية كما حاولت بها أيضاً توجيه الأنظار إلى طرافة هذا النوع من البحث وأهميته ، وارجو أن أكون قد وفقت فيما حاولت بعض التوفيق .

---

(١) عمر طوسون (مالية مصر) ص ٢٥٩ .

الأساطيل المصرية[1]

ومحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس

في عهد السلطان المملوكي جقمق

لم تكن محاولات سلاطين المماليك للاستيلاء على جزيرة رودس الصغيرة ، أثناء القرن الخامس عشر الميلادي، مجرد حركة أريد بها إشباع شهوة اعتدائية غاشمة ، بل إن ما قام به أولئك السلاطين من الأعمال الحربية بشرق البحر الأبيض المتوسط في ذلك القرن، كالاستيلاء على جزيرة قبرص أولا ، ثم التثنية على ذلك بمحاولة الاستيلاء على جزيرة رودس ، لم يكن في الواقع إلا رداً – وإن جاء بعيداً – على ما أنزلته هاتان الجزيرتان وأحلافهما الأوربيون من الدمار بالشواطىء المصرية وثغرها الإسكندري قبل ذلك بخمسين سنة تقريباً. ثم إن تلك الأعمال الحربية المملوكية أملتها حين ذاك – في غير شك – رغبة

(١) كتب هذا الفصل أصلا باللغة الانجليزية الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وقد قمت بترجمته الى اللغة العربية ، ونشرت هذه الترجمة لأول مرة في : (مجلة الجيش المصري ، عدد ٣٢ مجلد ٢٨ يناير ١٩٤٦) – جمال الدين الشيال .

خالصة في تأمين التجارة المصرية من عبث القبارصة وأضرابهم من متحرّمة البحر ، وهذا فضلا عما انطوت عليه من عزم لتصفية مـــا تبقى ماثلا مثولاً ماديا من الحروب الصليبية وفكرتها بالشرق ، في شخص ملوك لوزينيان (Lusignans) بجزيرة قـــبرص ، وجمـاعة الفرسان الاسبتارية (Knights Hospitallers) بجزيرة رودس .

على أن اهتمام سلاطين المماليك بهاتين الجزيرتين لم يكن جديدا ، بل تبدو جزيرة رودس — كما تبدو أختها قبرص — بالحوليات الإسلامية الأولى ميدانا من الميادين التي شهدت جهود المسلمين ، ليجعلوا لدولتهم الجديدة قوة بحرية وسيطرة بشرق البحر المتوسط . ففي سنة ٦٥٣ م — أي بعد أربع سنين من الفتح الإسلامي الأول لجزيرة قبرص — استولى المسلمون على رودس ، وظلوا بها حتى سنة ٦٥٨ م، عدا فترات قصيرة بين هذين التاريخين . ثم تطلب الأمر فتحها ثانية سنة ٦٧٢ م ، على يد القائد « جناد بن أبي أمية » ، وذلك قبيل حصار المسلمين للقسطنطينية للمرة الأولى من مرات محاولاتهم الكثيره ضد العاصمة البيزنطية . ثم أعقب الخليفة معاوية ذلك الفتح الثاني لجزيرة رودس بإقامة جالية إسلامية بقيت بها على مضض حتى اعتلى عرش الخلافة ابنه يزيد الأول ، فأشفق يزيد على المسلمين من الخطر الذي يهددهم من سكان تلك الجزيرة ، ومـــا قد تبيته الإمبراطورية البيزنطية ضدهم ، فاذن بعودتهم إلى أوطانهم ، ومن المحتمل أنهم عادوا قبيل وفاته سنة ٦٨٢ م . ولم يمض على ذلك خمسة وثلاثون عاماً حتى كانت الدولة الإسلامية أعدت العدة في البر والبحر للقيام بآخر محاولة ضد القسطنطينية في تلك العصور ، واستـــولى الأسطول الإسلامي وهو في طريقه إلى تلك المحاولة الشهيرة على جزيرة رودس مرة أخرى سنة ٧١٧ م ؛ على أن النار الإغريقية والأنواء التي أنقذت العاصمة البيزنطية من يد المسلمين تلك السنة أدت أيضاً الى عودة رودس إلى حظيرة الامبراطورية . ثم حدث في سنة ٨٠٧ م أن قام أسطول هارون الرشيد بقيادة حميد بن قحطبة بهجوم مفاجىء على تلك الجزيرة ، ولكن المغيرين لم ينجحوا

في الاستيلاء على مينائها ، فاكتفوا بتخريب ما استطاعت أيديهم أن تمتد اليه ، وأبحروا عنها محملين بغنائم وفيرة وعدد كبير من الأسرى .

انقضت خمسة قرون بين تلك الأحداث وبين مقدم الفرسان الاسبتارية من الشام إلى جزيرة رودس سنة ١٣٠٩ م ، وهم المعروفون أيضاً باسم فرسان القديس يوحنا ؛ وعانت الجزيرة صنوف العدوان خلال تلك القرون على يد التجار البنادقة ، برغم تبعيتها للامبراطوريه البيزنطية ، وانتهى الأمر بانتقالها إلى بعض المغامرين الإيطاليين في أوائل القرن الثالث عشر ، بعد أن طردت الامبراطورية البيزنطية عن القسطنطينية على يد الصليبيين ، ولم يبق منها إلا ما هو معروف باسم إمبراطورية نيقية بناحية من آسيا الصغرى ، ومـــا هو معروف باسم إمبراطورية طرابزون بناحية أخرى من ذلك الإقليم .

ولقد غدت رودس منذ قدم إليها الاسبتارية — كما غدت قبرص منذ قامت بها مملكة اللوزنيان — حصناً من الحصون الباقية لحكم الصليبيين بشرق البحر المتوسط . وكان طبيعياً وضروريا أن تتحد أغراض الاسبتارية واللوزنيان ، وأن تقوم بينهما سياسة تعاونية متبادلة ، أمام الخطر المشترك الذي يهدد كيان كل منهما تهديداً واضحا ، وهو مـــا قد تعتزمه الدولة المملوكية بمصر والشام ضدهما صونا لمصالحها وسواحلها بشرق البحر الأبيض المتوسط ، أو مـــا قد تنتويه نحو إحداهما أو كليهما دولة الاتراك العثمانيين الرابضة بآسيا الصغرى .

ولذا أضحى من مصلحة الجزيرتين أن تعملا معاً يداً واحدة ، ونتيجة لذلك التشابه في الأغراض وحفظ الكيان بات تاريخ الواحدة منهما — وخاصة في السياسة الخارجية — مختلطاً بتاريخ الأخرى ، وأصبح نشاطهما يكمل بعضه بعضا . غير أن ذلك ينطبق على رودس تحت حكم الاسبتارية أكثر مما ينطبق على قبرص وملوكها اللوزنيان الذين بدت مملكتهم في حال من الانحلال منذ أواخر القرن الرابع عشر ، مما دلت عليه أعمال الحملات المصرية الحاسمة بين

سنتي ١٤٢٤ و ١٤٢٦ م . يضاف إلى ذلك أن قبرص كانت قد دفع بها في غمار المنافسة التجارية بين جمهوريتي جنوة والبندقية ، فأمست جهودها موجهة ضد احتكارات الجمهوريتين أكثر من توجهها نحـــو مدافعة القوى الإسلامية المهددة لوجودها ، بله القيام بحروب صليبية من الطراز القديم، أو ما يشبهه . ويلاحظ هنا أيضاً أن جنوة والبندقية أخذتا تدعوان حينذاك إلى سياسة تجارية جديدة ، مؤداها أنه تجب العناية بتنمية التجارة مع المدن والموانى المملوكية والعثمانية ، مع اليقظة إلى كبح الاعتداءات التي عساها تأتي من هاتين الناحيتين . أمـــا الاسبتارية بجزيرة رودس فقد ظلت تنظر إلى المسلمين — « الكفرة » في عرفها — بالروح القديمة ، كأعداء للمسيحية من الواجب سلبهم واستعبادهم أو قتلهم ، حيث كانوا وأيا كانوا . واعتنق هذه الفكرة كل رئيس تولى أمرهم ، واعتقد أن واجبه الأول لا يقف عند صيانة الجزر التابعة للاسبتارية ، بل يتعداه إلى الدفاع عن جميع القوى المسيحية بالشرق كأنه قائد عام مندوب لها .

وكانت قبرص على وجه الخصوص موضع عناية الاسبتارية ، لما لهم بالجزيرة من مصالح مادية هامة تتمثل في بعض الإقطاعات والضياع التي أطلق عليها إجمالا « دائرة الاسبتارية بجزيرة قبرص » ، ومركزها بلدة كولوس قرب ليماسول ، وذلك فضلاً عن الصلات الروحية التي تربطهم باللوزنيان إخوانهم في الدين والحماسة الصليبية قديما . ولذا كان من القواعد المقررة عند كل رئيس من رؤساء الاسبتارية أن « أي انسان يدبر لملك قبرص إيذاءاً أو ضرراً أو تعدياً ، أو ينال منه على أية صورة ، أو من ممتلكاته ، أو من رعيته ، فإن عليه أن يدرك أنه قد فعل او أوشك أن يفعل ذلك بنا وبممتلكاتنا ، وإننا سنساعد الملك ونداقع عن ممتلكاته بكل ما لدينا من قوة » ، أي أن هذة القاعدة انطوت على نوع من التعاون الدفاعي والهجومي . ولذا اشتمل الاسطول المسيحي الذي فاجأ الإسكندرية بقيادة بطرس الأول لوزنيان سنة ١٣٦٥ م على بوارج من رودس وبوارج من قبرص أيضاً ، ومع ان تلك الحملة لم تؤد إلى

نتيجة حاسمة ، فإن تجارة مصر الخارجية اضطربت بسببها فترة من الزمن ، مما دعا السلطنة المملوكية سنة ١٣٦٧ م إلى اقتراح عقد معاهدة تجارية مع قبرص ورودس معاً ، من شروطها أن يكون للجزيرتين قناصل يخولون سلطة القضاء في شؤون رعاياهما بالإسكندرية . وتطوعت كل من جنوة والبندقية للقيام بدور الوسيط في المفاوضات لحمل الجزيرتين على قبول تلك المعاهدة السخية ، ولكن بعض الاعتداءات على تجار الجنوية والبنادقة بالثغر الاسكندري دفعت بالجمهوريتين إلى الانضمام لأهل رودس وقبرص في أعمال عدائية جديدة بشواطىء مصر والشام ، مما أدى الى عرض السلطنة لمعاهدة أسخى شروطاً عن ذي قبل . وظلت تلك المعاهدة الثانية قائمة حتى أوائل القرن الخامس عشر ، واعقبتها معاهدة مماثلة لها سنة ١٤٠٣ م بين الرئيس نايلاك (Naillac) والسلطان فرج بن برقوق ، فانشئت قنصليات لرودس بالإسكندرية ودمياط والرملة وبيت المقدس ، ووضع نظام للتجارة بين رودس والإسكندرية ودمياط ويافا وبيروت وطرابلس ودمشق ، فضلاً عن نظام لسفر الحجاج الذاهبين من رودس الى فلسطين ؛ وبمقتضى هذه المعاهدة ساد السلام بين الاسبتارية وسلطنة المماليك أربعين عاماً ، توفي خلالها الرئيس نايلاك . وخلفه في الرياسة في رودس فلوفيان (Fluvian) مدير الممتلكات الاسبتارية بقبرص سابقاً ، فجاء تعيينه سبباً لازدياد اهتمام الاسبتارية بشؤون الجزيرة . وإتباعاً لنصيحته رضي الملك جيمس الأول لوزنيان بعقد معاهدة سلمية بين قبرص وجنوة سنة ١٤١٤ م ، بل صرف فلوفيان كل ما في وسعه من أجل قبرص خلال الحملات المملوكية سنة ١٤٢٤ — ١٤٢٦ م . ونتيجة لتدخله الحربي هاجم المماليك مركز الاسبتارية في كولوس ، وهي المعروفة في المراجع العربية بإسم إسلسا ، وانتقموا من أصحابها « بهدم المنازل وقطع الاشجار واقتلاع الكروم ، حتى غدت تلك الادارة خراباً بعد أن كانت اغنى متلكات الفرسان » . ولكن تلك الاعمال التخريبية لم تفت في عضد الرئيس فلوفيان أو تقلل من عزيمته في الاخذ بناصر جزيرة قبرص ، فشارك بأكبر نصيب في

تدبير فدية الملك جانوس لوزنيان الذي أقتاده المماليك أسيراً الى القاهرة .

ولقد خشي الرئيس فلوفيان ان انتصار المماليك بجزيرة قبرص ربما حفزهم على الإقدام على محاولة مشابهة لإخضاع رودس ، ولم تكن مخاوفه مبنية على مجرد الظن ، فإن السلطان برسباي أشار عرضاً أثناء المفاوضات التي جرت بالقاهرة لفدية الملك جانوس إلى عزمه لتدبير حملة ضد رودس . وعلى أساس هذه الاشارة كلف فلوفيان رسوله الذي رافق وفد الفدية من قبرص بأن يعقد مع السلطان معاهدة جديدة ، وأن يستوعده ألا يشن حرباً على رودس . وجاء الرسول إلى حضرة السلطان ، وقدّم اليه هدية قدّرت بستمائة دينار ؛ ويبدو من سياق الحوادث انه نجح في مهمته ، إذ غادر مصر إلى قبرص في حاشية الملك بعد افتدائه . على ان فلوفيان رأى ان يكون على حذر برغم ما أخبره به رسوله من وعد برسباي ، فأخذ في تحصين رودس لكيلا يؤخذ على غرة إذا نكث السلطان وعده ، وكان جواسيس الاسبتارية بالاسكندرية قد روّجوا ذلك الاحتمال غير ان السلطان برسباي لم يقم بشيء في تلك الناحية ، وذلك رغماً عن الحوادث المتكررة التي قام بها بعض القراصنة والمتحرمة من الفرنجة ، والتي كانت أشباهها بعضاً من الاسباب التي أدت إلى غزو قبرص . ذلك أن برسباي كان وقتذاك في شغل شاغل بالملك شاه رخ بن تيمورلنك والأمير عثمان قرايلك زعيم قبيلة آق كيونلو التركانية ، وقد سار برسباي نفسه لمحاربة قرايلك في ربيع سنة ١٤٣٣ م ؛ ثم حلّت بالبلاد المصرية في السنين الباقية من عهد برسباي جملة من الطواعين والمجاعات والقلاقل المملوكية وارتفاع الاسعار ، ومات برسباي في يونيه سنة ١٤٣٨ م ، وقبل ذلك بعام تقريباً مات فلوفيان ، وانتخب من بعده لاستيك (Lastic) رئيساً للاسبتارية .

أما برسباي فقد خلفه ابنه يوسف ، ثم عزل هذا الابن بعد أشهر من توليته نزولاً على الطريقة المملوكية المعروفة ، وآلت السلطنة من بعده إلى جقمق . وقد كان جقمق رجلاً تقياً محباً للسلام ، كما يستدل من تمنياته عند اعتلائه العرش سنة ١٤٣٨ م أن يسود السلام العالم الاسلامي ، وكما تشهد به الوفود

الاجنبية المختلفة التي جاءت إلى القاهرة لتهنئته . ولكنه لم يكن من المنتظر أن تؤدي التقوى وحب السلام بالسلطـــان جقمق إلى الإغضاء عن متحرمة الفرنج ، او الوقوف مكتوف اليدين إزاء غاراتهم المتكررة على سواحل بلاده وعلى السفن الاسلامية بشرق البحر الابيض المتوسط ، بل انه – على قول السخاوي المؤرخ المعاصر « ذكرّ ما أنزله سلفه برسباي بجزيرة قبرص، وارتغام الفرنج كافة بذلك ... [و] أحب تجديد العهد بما فيه ذلهم » ، أو بعبارة أخرى انه كان يتمنى أن يستقيم له مثل ما استقام لبرسباي من نصر ، وأنــه وجد ضالته في القرصنة الضاربة بالمياه المملوكية ليجعل منها سبباً لغزو رودس في السنة الاولى من سلطنته . ولهذا أعدّ جقمق العدّة من سفن ورجال للقيام بحملة ليس مقصدها رودس بالذات ، ولكن لتكشف عن حقيقـــة أصحاب الغارات الفرنجية الأخيرة على الشواطىء المصرية ، أو تلتقـــي بهم في عرض البحر ؛ كما أعلن برسبـــاي عشيـــة همت حملتـــه الأولى بالرواح الى جزيرة قبرص . ولا بد ان جقمق في دخيلة نفسه رحّب بتلك الفرصة الـــتي واتته في مستهل حكمه ، والتي لا يمكن إلا أن تزيد في مكانته بين المسلمين ، ويضيف المؤرخ فرتو (Vertot) الى ذلك كله ان السلطان العثماني مرادا الثاني حرّض جقمق على إنفاذ تلك الحملة الى رودس ، رغبة منه في صرف الاستبارية الى الدفاع عن جزيرتهم ، بدلاً من الانضمام إلى الحلف المسيحي الذي كان على وشك القيام بحرب كبرى ضد العثمانيين بالبلقان .

ولقد علم الرئيس لاستيك بخبر ذلك التحريض العثماني للسلطان جقمق ، فرأى قبل أن يتورط في البدء بالعداء أن يتأكد تمام التأكد من حقيقة ما وقع بين العثمانيين والمماليك من اتفاق ، وأرسل إلى مراد الثاني رسولاً يعرض عليه رغبته في تجديد المعاهدة التي عقدها الاسبتارية مع سلفه . غير أن مرادا الثاني رفض في لباقة أن يدخل في مفاوضات جديـــدة ، ما دامت المعاهدة القديمة كافلة لسلام الطرفين؛ ولذا عاد هذا الرسول إلى رودس ليخبر الرئيس لاستيك « أن مصر وإن لم تعلن الحرب ، فإن السلم لم يعد من المحتمل طويلاً » . وبذا

لم يبق لدى الرئيس لاستيك إلا أن يتعرف مدى استعداد المماليك ، فأرسل وكيل الاسبتارية في سفينتين لكشف أخبار السواحل المصرية ؛ وعلم الوكيل بكل مـــا يجري من الاستعداد لغزو رودس من مسيحي من أهل دمياط ، وأبحر من ثم صوب الشواطىء الشامية، وهاجم سفينة من سفن المطوعة التابعة لبحر دمياط ، وذلك في يوليه سنة ١٤٣٩ م . ثم عاد الوكيل إلى رودس ، وأخبر أن الجزيرة لن تلبث طويلاً قبل أن تغير عليها السلطنة المملوكية بكل ما لديها من قوة ؛ واعتماداً على تقديره أعدّ لاستيك ثمانية غلايين وأربعة شوان وجملة من النقالات وشحنها بالمقاتلة ، وباتت رودس وممتلكاتهـــا على أهبة للدفاع وردّ المغيرين .

أما القوى البحرية المملوكية التي غادرت بولاق في اليوم الثـامن من شهر أغسطس سنة ١٤٤٠م ، فقد تألفت من خمس عشرة سفينة من الطراز المعروف إذ ذاك باسم الغراب ، وعليها مائتان من الجند بقيادة الاميرين تغري برمش السلاح دار ويونس المحمودي أمـــير آخور . وازداد عدد اولئك المحاربين بانضمام كثير من المطوعـــة من أهل القاهرة ودمياط ، حتى بلغ عددهم قرابة الف محارب حين أقلعت الاغربة من دمياط إلى جزيرة قبرص مباشرة . وفي قبرص امدّ الملك حنا الثاني تلك الحملة المملوكية بالمؤن ، فتوجهت منها إلى العلايا بالساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، حيث امدّها اميرها أيضاً بسفينتين من طراز الإبريق وعدد من الجند .

ومن ثم أقلعت الحملة إلى مدينة رودس ذاتها،فوصلتها في الخامس والعشرين من شهر سبتمبر ، وبُهت الجند حين وجدوا المدينة مهيأة للقتال . ولما تحقق المماليك من استحالة اقتحام الثغر ، أرسوا سفنهم بالقرب من الرأس الرملية بأقصى الشمال من الجزيرة ، فـــدهمهم اسطول رودسى مؤلف من عشر سفن أكثرها صغير الحجم، وبعد معركة متقطعة لم ينتصف فيها أحد الفريقين أبحر المماليك في غسق الليل يتعقبهم الرودسيون . وفي الصبـــاح التالي وقعت بين الفريقين معركة أخرى غير فاصلة على مقربة من ساحل آسيا الصغرى ، فيمم

المماليك بعدها نحو مصر ، وقلوبهم مفعمة بالخيبة والبغضاء ؛ على أنهم تمكنوا في طريقهم من تخريب قرية رودسية عزلاء ، فنهبوا بهـا مصنعاً للسكر ، وأسروا عماله وغيرهم من السكان الذين وجدوهم في الحقول المجاورة . ثم عادوا إلى دمياط وصعدوا في النيل صوب القاهرة ، فبلغوهـا في الثامن عشر من أكتوبر ؛ وقبل ذلك بأحد عشر يوماً وصلت السلطان أخبـار زائفة تنبئه بانتصار الحملة ، ولكن السلطان جقمق لم يلبث أن علم الحقيقة ، حين قصّ عليه الجند قصة محزنة خلاصتها أنهم لم يكونوا أنداداً للرودسيين .

والواقع أن هزيمة المماليك نفخت في كبرياء أهـل رودس ، فعتوا عتوّاً كبيراً ، وازدروا قوة السلطان علانية ؛ ولذا عزم جقمق على إعداد حملة ثانية تكون أشد بأساً وأعز نفرا . ويقال إنه حدثت وقتذاك مناقشة دينية في حضرة السلطان ، جاء في غضونها ذكر لحديث شريف عن نزول المسلمـين الأولين بجزيرة رودس في عهد الخليفة عثمان ، فحفز ذلك الحديث جقمق الى العمل ، فأمر أن يصلح ما لديه من سفن قديمة ، وأن تصنع سفن جديدة ، بالغة النفقات مـا بلغت ؛ وباتت دور الصناعة في شغل بإعداد السفن عدة شهور . وقد أحب السلطان أن يخفي نيته حتى يتم الاستعداد ، كما رأى أن يمهد طريق النجاح للحملة بضمان الحياد من جانب جيران رودس المشكوك في موقفهم من السلطان إذا ما قامت الحرب ، فأبرم معاهدة مع فانتين كوريني صاحب جزيرة كوس ، ولم يلق صعوبة في عقد مثل تلك المعاهدة مع حنا الثاني ملك قبرص ، حتى إذا اطمأن من هذه الناحية أيضاً انفذ جماعة من الجند في خمس سفن ليأتوه بالأخبار عن مـدى الاستعداد بجزيرة رودس . ذلك أن الرئيس لاستيك كان قد عكف على تهيئة الحصون بجزيرة رودس وممتلكاتها للحرب من بعد رجوع الحملة المملوكية الأولى خائبة إلى مصر ، لأن جواسيسه أعلموه بما يجري في مصر سراً من الاستعداد لحملة ثانية ، بـل إنه أرسل القصاد إلى معظم ملوك أوربا يطلب منهم العون . على أن الردود التي وصلته من مختلف الملوك لم تتعدّ « عبارات فارغة لا تنبيء عن شيء سوى

العطف الذي لا فائدة فيه » ، كما قال المؤرخ فرتو ؛ ولم يتحرك لمحالفة رودس سوى حنا الثاني باليولوجوس إمبراطور الدولة البيزنطية في أشد أيامها ضعفاً، ولذا لم يكن لذلك الحلف نتيجة أو أثر . ويظهر أن لاستيك نالت منه الحيرة وقتئذ حتى أنه حاول الدخول في مفاوضات سلمية مع السلطان لاجتناب الحرب ، ولكن رسله الذين وصلوا إلى القاهرة في أواخر أبريل سنة ١٤٤٣ م – محملين بالهدايا وصحبتهم جملة من الأسرى المسلمين – لم يجدوا من أحد أذناً صاغية ، بل قبض عليهم وأودعوا سجن « المقشرة » قرب باب الفتوح الحالي ، مع أرباب الجرائم .

وبعد شهرين فقط من ذلك التاريخ كانت السفن – وعليها من الجند ألف عدا المطوّعة – قد تجهزت للإبحار ، تحت قيادة الأمير « إينال العلائي » الذي قدّر له أن يصبح سلطاناً فيما بعد . وهكذا أقلعت الحملة الثانية على رودس من دمياط ، في أواسط أغسطس سنة ١٤٤٣ م ، قاصدة الشواطىء السورية ، لتجمع اليها الأمداد من طرابلس . وقد صادفتها في طريقها رياح وأنواء اضطرتها الى التفرق شذر مذر ، فوصل بعضها إلى بيروت ، ووصل البعض الآخر إلى طرابلس ، حيث علم الأمير إينال العلائي أن الأمداد السورية خشيت طول الانتظار ، وأنها سبقته إلى المياه القبرصية . وفي قبرص اجتمعت القوى المملوكية كلها ، وأرست أخيراً قبالة ثغر ليماسول للامتيار ، وذلك في أواخر أغسطس .

غير أن ليماسول فزعت لمقدم الحملة ، مما يدل على أن أخبارها لم تكن ذاعت ، وأن حنا الثاني ملك قبرص أخفى ما عنده من قرب وصولها الى الجزيرة ، أو غير ذلك من الاحتمالات . ولذا لم تكد الحملة تنزل بعض جنودها الى الساحل حتى أسرع أهل ليماسول وحاكمها الى الهرب بما استطاعوا حمله من المتاع ، وهنالك سنحت الفرصة للمماليك للتخريب والتدمير ، بعد أن اتهموا أهل ليماسول بالخيانة وخلف الوعد ، فامتدت أيديهم الى السلب والنهب بلا

زاجر ولا رادع ، على حين شرب بعضهم مما وجدوا من الأنبذة حتى ثملوا . وبينما الحال على هذا المنوال وصلت رسل حنا الثاني ملك قبرص ، وأخبرت بأن المؤن المطلوبة تنتظر الحملة في بلده بافوس ، وتقدم الرسل الى القائد إينال العلائي بالاعتذار عن هرب أهل ليماسول، وأكدوا له أن أهل قبرص قد عمهم السرور لخبر الحملة على رودس . وفي ذلك اليوم لوحظت سفينتان فرنجيتان تحومان من بعيد لاستطلاع قوة المماليك ، غير أنهما تركتا وشأنهما ، إذ لم يكن أحد من الملاحين أو الجند مستعداً للخروج إليهما .

ثم أبحرت الحملة إلى بافوس ، حيث كانت الميرة في انتظارها ، فألقت مراسيها بالقرب منها ، وأخذت حاجتها من الماء والزاد واستمع إينال إلى شكوى رسل الملك من انتهاب ليماسول الشنيع ، فاعتذر بأن ما حدث كان من فعل بعض غير المسئولين من الزعر والحرافيش بغير علمه ، وأن أولئك معذورون ، إذ لم يسرع أحد من اهل البلد لمقابلته وتقدم المؤن اليه وتأكيد ولاء القبارصة للسلطان .

ومن بافوس تقدمت الحملة نحو أضاليا بالساحل الجنوبي من آسيا الصغرى ، ومنها إلى فنيكا ، ثم إلى قشتيل الروج (Chateauroux) أي الحصن الأشهب حيث إرست السفن المملوكية على مرأى من الحـــامية الاسبتارية هناك . ثم نزل المماليك إلى البر في السابع من أكتوبر سنة ١٤٤٣ م ، فحيتهم الحامية من أبراج الحصن تحية ساخرة بطلقة واحدة من مدفع ، أعقبتها طلقات صغيرة متباعدة إمعاناً في السخرية ، فضلا عن عبارات بذيئة ترامت على الجند من مختلف الابراج . فأثار ذلك حفيظة المماليك وحماستهم للقتال ، وأصروا على الاقتصاص من « الكفرة » لبذاءة ألسنتهم ، على الرغم من نصيحة إينال أن يتجاهلوا ذلك ويقلعوا نحو رودس ، وهي هدفهم الأول ؛ واضطر إينال أخيراً إلى النزول على إرادتهم وإلحـــاحهم ، وألقى الحصار على حصن قشتيل الروج .

وقد حاول المماليك في أول الامر أن يأخذوا الحصن عنوة في هجوم عام، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن ذلك عبث في غير أمل ، فألقوا عليه الحصار . ثم نجح النقابون في إحداث ثغرة بالسور ، وما زالوا به حتى اقتحموة ، وتمّ لهم النصر بتسليم الحامية . ودقت الكوسات وضربت الطبول، وهرع المماليك إلى الابراج يرفعون فوقها رايات الإسلام ، ثم توجوا نصرهم ذاك اليوم (١٢ أكتوبر سنة ١٤٤٣ م) بهدم القلعة كلها وتسوية أبراجها بالارض . غير أن موسم القتال كان قد أوشك على الانتهاء باقتراب الشتاء ، ولهذا لم تستطع الحملة أن تواصل عملها بالإغارة على رودس ، وقرر الامير إينال تمضية الشتاء بثغر ماكرى بشاطيء آسيا الصغرى ، مما يرجح تبعية ذلك الثغر وقت ذاك للدولة العثمانية ، أو لغيرها من أصدقاء الدولة المملوكية بشرق البحر الابيض المتوسط . لكن الزوابع والاعاصير ألجأت الحملة إلى العدول عن تلك الخطة وتقرير الذهاب إلى قبرص ، ثم اضطرتها الرياح الغربية إلى العدول عن ذلك أيضاً واعتزام العودة إلى مصر على أن طريق العودة لم يخل من متاعب البحر وشدة الرياح ، فوصلت سفن الحملة أبعاضاً متفرقة إلى دمياط والإسكندرية ورشيد ، وهبّت في طريقها بفرعي النيل ريح مريسية لافحة عاقتها طويلا ، فلم تلق مراسيها في بولاق حتى اليوم الحادي والعشرين من شهر ديسمبر ، ومعها مائتان من الأسرى « أغلبهم من الشيوخ والنساء » ، وكمية من أثاث قلعة قشتيل الروج . واستعرض جقمق جنود الحملة بالقلعة ، وخلع على القواد خلع الشرف المعتادة ، وفي قلبه حسرة أن ما بذله من مجهود في إعداد تلك الحملة الثانية ذهب مع الرياح العاتية وضيعته البحار العاصفة . على أن تلك الحملة الثانية قد جاءت — في نظر المعاصرين — بنتائج مهما تكن فهي أفضل من نتائج الحملة الأولى ، إذ قالوا إنها نصر مبتور ، وإنه لا بد من استكمال ذلك النصر .

ولهذا أخذت فكرة القيام بحملة ثالثة تختمر في رأس السلطان جقمق ، ويبدو أن توفيق سلفه برسباي في فتح قبرص على يد حملة ثالثة شجعه على

المضي في معاودة الكرة على رودس ، بل الواقع أن جقمق اتخذ من أعمال برسباي في تلك الحملة الثالثة على رودس نموذجاً ، إذ فصل القيادة البحرية عن القيادة البرية وعين الأمير تمر باي مقدم الحلقة لأمور البحر ، وقصر الأمير إينال العلائي قائد الحملة السالفة على أمور البر . ثم أمرجقمق أن تنضم كثير من القوات المملوكية التابعة للنيابات الشامية إلى تلك الحملة ايضاً ، وبذا بلغت ما يزيد عن ألف وخمسمائة من الجند عدا المطوعة ، وبدت كما هو منتظر أوفر عدداً وعـــدة من قوى الحملتين السابقتين . وكان بين المطوعة شخصيتان معروفتان ، وهما برهان الدين البقاعي ونور الدين الكردي ، وكل منهما قد اشترك في الحملتين السابقتين واعظاً ومثيراً لحماسة الجند أثنـاء القتال . وبينما الاستعدادات قائمة على قدم وساق لم يستطع البقاعي أن يظل بـــلا عمل ، فشغل وقته بنظم سيرة النبي ﷺ حتى أتمها ، قبل إبحار الحملة الثالثة على رودس من الشواطىء المصرية بأيام .

وفي أواخر شهر أبريل سنة ١٤٤٤ م تمت كل الاستعدادات بالقـاهرة ، وصدرت الأوامر إلى رؤساء البحر لإحضار النقالات من الإسكندرية ودمياط لنقل الجند من بولاق . ورحلت الحملة أخيراً من بولاق في اليوم الثالث من شهر يوليه ، وأقلعت من دمياط في العشرين من ذلك الشهر ؛ وانضمت اليها القوى السورية عند طرابلس . ومن طرابلس أبحرت الحملة كلها صوب مدينة رودس ، فوصلتها وألقت عليها الحصار في منتصف أغسطس . وقـــد نزل المماليك إلى البر تلك المرة بعد وصولهم مباشرة ، وأقاموا آلات الحصار من مجانيق ومقاليع في سرعة ملحوظة ، كما نصبوا الخيـــام فوراً عند اللسانين المتدين إلى الجنوب الشرقي من كنيسة القديس أنطون ، وهي أكبر كنائس رودس . ثم توغلت فرقة من كبار المماليك إلى الداخـــل قليلاً ، وأخذت مكانها حول الكنيسة نفسها لترى تطور الحصار عن كثب ، ولتكون على أهبة لنجدة القائمين على الحصار بخوض المدخل الضحل لمرفأ مدينة رودس ؛ وهذا على حين انتشرت ثلة من اتباع الجيش والحرافيش الذين لا همّ لهم من

الحرب إلا النهب والسلب ، فتفرّقت هـــذه في البساتين والضياع تعيث فيها فساداً .

ثم بدأت أعمال الحصار بالرمي بالمجانيق على حصن القديس نيقولا ، وهو أهم الاستحكامات الخارجية حول مدينة رودس ، وسرعان ما تهدمت أركان الابراج المربعة ، وتصدعت الباشورة الممتدة من طرف الحصن الى برج القديس بطرس في أقصى الطرف الآخر من الميناء . لكن المعركة ظلت غير حاسمة ، وقتل الكثير من رجال الطرفين تحت وابل القذائف المتبادلة بينهما . ولم تشأ الاسبتارية إلا أن تلتزم خطة الدفاع ، خشية ألا يأتي الانقلاب الى الهجوم بنتيجة محمودة ، وهذا على الرغم مما جاءهم من نجدة من بعض سفن البرجنديين والكتلان التي صادف وصولهـــا وقت ذاك الى جزيرة رودس . على أن الأسطول الاسبتاري تشجع – فيما يبدو – بوصول تلك السفن ، إذ هاجم السفن المملوكية وكاد يأخذها على غرة لولا أن الأمير يلخجا كان بالمرصاد ، فاستطاع أن يرد تلك الحركة رداً عنيفاً ، وكلفه ذلك ثـــلاث سفن مملوكية ذهبت في اليم .

وبعد ذلك بقليل خرجت فرقة من الاسبتارية من حصن القديس نيقولا ، وباغتت فئة المماليك المعسكرة حول كنيسة القديس أنطون، وأعملت السيف فيهم قبل أن يتمكنوا من سلاحهم ، فلم ينج منهم إلا القليل الذي استطاع الفرار عبر المخاضة للحاق بالقوات المحاصرة للحصن ، وقد فت ذلك في عضد الجيش المملوكي الذي نالت منه متاعب الحصار . ثم ظلت المعركة حامية من بعدئذ أياماً ، قاتل المماليك في أثنائها قتال اليائس حتى استطاعوا أخيراً ان يحدثوا ثغرة كبيرة بالباشورة الممتـــدة من برج القديس بطرس . وعند ذلك قررت الاسبتارية الهجوم ، لئلا تنفذ اليهم الجيوش المحاصرة وتقاتلهم في عقر دارهم ؛ ولم يعلموا ان المماليك كانوا على وشك من رفع الحصار . ففي صبيحة اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس خرجت القوات الاسبتارية

من بوابتي القديس بولص والقديس نيقولا، واصطفت خارج البوابتين أمام ثغر الباشورة ، فوقفت المشاة في المقدمـــة ، ومن ورائها الزراقون ، والرماة بالقوس في الجانبين . ثم انطلقت الأبواق ودقت الطبول من برج القديس نيقولا إيذاناً ببدء القتال، فاقتحمت كوكبة من الاسبتارية معسكر القوات المحاصرة. ولم تكن ساعة حتى شالت كفة المماليك ، وقتـــل منهم عدد عظيم ، ولجأ الباقون إلى سفنهم وغلايينهم ، وقـــد تركوا وراءهم كل مجانيقهم ومؤنهم ومتاعهم والجم الغفير من الأسرى ؛ وسرعان مـــا اتخذت السفن المملوكية طريقها في البحر طلباً للنجاة .

وقبل وصول الأخبار الى القاهرة بتلك الخاتمة السيئة ، جاء إلى السلطان جقمق بريد سريع تاريخه ٢٤ أغسطس يصف بعض حوادث ذلك اليوم العصيب؛ غير أنه لم يرد فيه ان اليوم انتهى بجلاء القوات المملوكيـة عن رودس ، إذ سارع السلطان إلى ارسال النجدة والمدد . على أن هـذه لم تلبث أن قفلت راجعة إثر سفن الحملة العائدة بأذيال الخيبة والفشل ، وقد كانت القصة التي رويت للسلطان أشد هولاً من جميع الاخبار التي وصلته سابقاً ، إذ قتل في المعركة ثلاثمائـــة جندي ، بينهم تغرى برمش السلاح دار الذي تولى قيادة الحملة الاولى ، وذلك فضلاً عن خمسمائة جريح ، وثـلاث سفن ؛ وأسوأ من ذلك كله أن كثيراً من الجند لجأوا إلى العدو واعتنقوا المسيحية . والخلاصة كما قال السخاوي « أنـــه لم يتم للعسكر قصد ، ولا رجعوا بطايل ، ولهذا فترت همتهم عن الجهاد في تلك المدة لهذه الجهة ، ولله عاقبة الامور » . على أن الحملة لم تكن بلا جدوى بالنسبة إلى برهـــان الدين البقاعي ، فإنه أتم منظومته في السيرة النبوية قبل إبحـار السفن من المياه المصرية ووجد العزاء في قراءتها على الناس بمساجد القاهرة بعد رجوعـــه ، وقد كسرت ساقه بميدان القتال .

غير أنه مهما قيل في النصر الذي أحرزه الاسبتارية على تلك الحملة الأخيرة من حملات المماليك على جزيرة رودس في القرن الخامس عشر ، فإن اضطرارهم

إلى مدافعـــة تلك الحملات ثلاث مرات متتالية أضعفهم كل الضعف ، وباتوا يخشون ما عساه ان يكون مصيرهم أمام حملة رابعة ظنوها لا بد آتية . ولذا أرسلوا إلى البابا يوجين الرابع يصفون خطورة موقفهم ، كما ارسلوا الى ملوك أوربا يطلبون منهم الوعد بالنجدة إذا لزم الأمر . غير أن أقصى ما استطاع رسل الرئيس لاستيك ان يأتوا بـه من اوربا هو ان الملوك مشغولون بمشاكلهم الخاصة عن ان يعدوا بمعونة ، بل رغب البابا إلى الاسبتارية أن تضع حداً لحروبهـــا مع السلطان . وتنفيذاً لتلك الرغبة ، اخذ الرئيس لاستيك يبحث عن وسيط يستطيع الحصول على تسوية مرضية للطرفين ، وبدا له ان التاجر الفرنسي الشهير جاك كير (Jacques Coeur) هو الوحيد للقيام على تلك المهمة قياماً يكفل النجاح ، لمـا لاسمه من الثقة ، ولما لشخصه من الصلة بالسلطان جقمق نفسه . وقد قبل جاك كير ان يقوم بتلك المهمة بعد ان استأذن شارل السابع ملك فرنسا ، وارسل احد وكـــلائه صحبة مبعوث اسبتاري على إحدى سفنه إلى الاسكندرية حيث عقد الصلح ؛ وعاد المبعوث إلى رودس ومعه عدد من المسيحيـين الذين أسروا خلال الحملات السالفة . وفي ٨ فبراير سنـة ١٤٤٦ م صدر عن ديوان الرئيس لاستيك امر إلى وكيل الاسبتارية بإقليم بروفانس بفرنسا ان يدفع إلى جاك كير جميع النفقات التي تكبدها لتسفير المبعوث الرودسي الى الإسكندرية ذهابـاً وإياباً ، فضلا عن نفقات ارجاع الأسرى المسيحيين .

ومن بعدئذ تأخذ الحوليات الرودسية في الاهتمام بالأتراك العثمانيين ، وهم العدو الثاني للاسبتارية وجزيرة رودس . وكان العثمانيون لا يزالون يعملون على توسيع رقعة سلطانهم على حساب جميع جيرانهم ، ووضح لاهل رودس ان مركز جزيرتهم الحربي،وموقعها بين البوسفور وشرق البحرالابيض المتوسط ، لا بد أن يؤدي عاجلا أو آجلا إلى إهواء العثمانيين عليهم . ومـع أن مركز الاسبتارية أضحى مهدداً بذلك الخطر الداني منذ أواسط القرن الخامس عشر ، فإنهم ظلوا على عنايتهم القديمة بشؤون جزيرة قبرص وملوكها

من آل لوزنيان التابعين للسلطنة المملوكية منذ سنة ١٤٢٦ م . على ان تلك العناية كان مرجعها أولاً ما لرودس من المصالح المادية بجزيرة قبرص ، فضلاً عما بينهما من الشبه في الوضع الجغرافي والديني بالنسبة للسلطنتين المملوكية والعثمانية وغيرهما من القوى الاسلامية المجاورة . ففي سنة ١٤٤٨ م طمع أمير قرمان بآسيا الصغرى في ثغر جورجيوس التابع لجزيرة قبرص ، واستولى عليه في نوفمبر من تلك السنة ، وتمّ له ذلك بفضل إغضاء نائب السلطنة المملوكية بمدينة طرسوس المجاورة . فلما علم الرئيس لاستيك بتسليم ذلك الثغر الذي بقي زمناً طويلاً كالشجى في حلق المسلمين ، كتب إلى الملك حنا الثاني لوزنيان أن يطلب إلى سلطان مصر أن ينجده على أمير قرمان ، كما كتب أيضاً إلى السلطان جقمق يذكره بأنه مولى قبرص ، وأن عليه أن يساعد ملكها التابع له بالجند والأسلحة الكافية لإعادة الثغر المفقود ، إذا لم تُجدِ الوسائل السلمية. وكان لاستيك يأمل ألا تذهب تلك الوساطة سدى ، ليبرهن للملك حنا الثاني أن سعي الاسبتارية ليس من ورائه إلا الخير المجرد عن المصلحة؛ ولكن السلطان جقمق لم يقم بشيء البتة في تحقيق ذلك الأمل ، وفقدت قبرص ثغر جورجيوس الى الأبد.

ولما ثار النزاع على عرش قبرص بين الملكة الشرعية شارلوت ابنة حنا الثاني وأخيها الدعيّ جيمس ، واحتكم الاثنان الى السلطان إينال ، وأنفذا البعوث من أجل ذلك إلى القاهرة سنة ١٤٥٩ م ، بعث رئيس رئيس الاسبتارية الجديد — وهو دي ميللي — رسولا الى السلطان يرجوه حسم النزاع بين الطرفين في سرعة . وهنا أيضاً لم يكن السبب الدافع لوساطة الاسبتارية حب الخير الخالص للغير ، كما يتبادر للذهن ، بدليل ان التعليمات الصادرة للرسول الاسبتاري انه اذا حكم للسلطان بتولية جيمس الذي لم يرغب دي ميللي في رؤيته على عرش قبرص ، فما على الرسول إلا أن يطلب إلى السلطان حماية الأملاك الاسبتارية بجزيره قبرص ، على ان يقوم في مقابل ذلك ببذل كل نفوذه لعقد الصلح بين السلطنة المملوكية ومملكة ارجونة التي شل متحرمتها حركة

التجارة المصرية الخارجية لعدة سنين. وقد صادف وصول الرسول الاسبتاري ورسول الملكة شارلوت الى القاهرة في وقت واحد ، ولكن جيمس الذي سبقهما الى القاهرة ، استطاع في كثير من المهارة أن يغلب هذين الرسولين ،إذ أقنع السلطان إينال بوجوب تسليمها اليه .

وفي أثناء حرب الوراثة التي تلت ذلك في قبرص ، ظل الاسبتارية على الحياد ما بقيت أملاكهم ومصالحهم المركزة ببلدة كولوس بنجوة من عبث المتحاربين . على أن قلوبهم لم تفتر عن الميل إلى جانب شارلوت وزوجها لويس سافوي ، حتى إذا تمّ للملك جيمس اخضاع معظم قبرص ، واستولى على العرش متخذاً لنفسه لقب جيمس الثاني سنة ١٤٦٠ م، أعدّ الاسبتارية في أكتوبر من تلك السنة إحدى سفنهم لتكون تحت أمر الملك لويس إذا رغب في مغادرة البلاد . أما شارلوت فإنها أصرت على المقاومة مدة ، وجعلت من ثغر قورينة حصنها الأخير ، غير أنها ما لبثت أن أحست بأنها لم تعد آمنة على نفسها ، فغادرت قبرص في يناير سنة ١٤٦١ م ، وذهبت تطلب المعونة من رودس . وقد لبى نداءها القائد دوبوسون الذي صار فيما بعد رئيساً للاسبتارية ، واستطاعت قورينة بفضله ان تحارب من أجل شارلوت ثلاثة أعوام أخر برغم ما اجتمع على حصارها في البر والبحر من قوات الملك جيمس والسفن المملوكية التي أرسلت وقتذاك لمساعدته . وقد حاولت بعض السفن الرودسية في أثناء ذلك أن تقتحم الميناء على حين غفلة ، ولكن السفن المملوكية كمنت لها وهزمتها وأفسدت عليها خطتها ، وعاقبت الاسبتارية على تدخلهم العلني في شؤون قبرص بالإغارة على أملاكهم ببلدة كولوس .ثم انتقم الاسبتارية لأنفسهم من السلطنة المملوكية في صيف سنة ١٤٦٤ م،حين استولوا قرب شواطىء رودس على ثلاث سفن أجرتها جمهورية البندقية لحمل البضائع لبعض التجار المراكشيين من الاسكندرية الى المغرب . وخشي البنادقة أن يقتص السلطان يلباي من البندقية نفسها ، لأن المراكشيين كانوا قد اشترطوا ألا تذهب السفن الى رودس ، ولأن ما استولى عليه الاسبتارية من البضائع

كان شيئاً كثيراً من الاقمشة الكتانية الرفيعة ،مما بلغت قيمته أربعة وعشرين ألف قطعة ذهبية ، وهذا عدا البهار والسلع الاخرى والاسرى . وقد حدث ما كان متوقعاً حين أمر السلطان يلباي بالقبض على جميع من بالإسكندرية من البنادقة وإيداعهم السجون ، فأسرعت حكومة البندقية وكلفت الرائس (القبطان) لوريدان بالتوجه الى رودس بأسطول بلغ عدد سفنه ستةوثلاثين غليوناً ، فوصلها وطلب الى رئيس الاسبتارية رد البضائع المسلوبة وإطلاق الاسرى ، فضلا عن تعويض كاف لترضية السلطان . غير ان الاسبتارية تلكأوا عن إجابة تلك المطالب ، فلم يسع لوريدان إلا أن أمر رجالهبالنزول إلى الجزيرة فنزلوها وأفسدوا فيها يومين ، حتى انهم أتلفوا قصر الرئيس دي ميللي في فيلا نوفا، وعند ذلك قام الاسبتارية بتقديم التعويضاتالمطلوبة.

أما الحدث التالي في تاريخ الاسبتارية فهو حصار العثمانيين لمدينة رودس سنة ١٤٨٠ م ، وقد كان معروفاً قبل ذلك بثلاثة أعوام على الاقل ان حركة العثمانيين صوب الجزيرة أصبحت قاب قوسين أو أدنى من ذلك بكثير ، والدليل على ذلك أن دوبوسون — وهو الذي انتخب بعد دي ميللي لرئاسة الاسبتارية ولم يكد يتولى منصبه حتى أخذ في ترميم أسوار مدينة رودس وتقويتها ، كما اختزن المؤن واستدعى الجند من مختلف الاديرة الاسبتارية في أوربا . وربما كان سبب تأخير المحاولة العثمانية الى سنة ١٤٨٠ م ان خلافاً نشب قبيل تلك السنة بين السلطنتين المملوكية والعثمانية ، وان معاهدة عقدت بين السلطان المملوكي والاسبتارية ، كما يقول فرتو . وكيفما كان الأمر فقد بدأ العثمانيون حصار رودس في مايو من تلك السنة ، وتتبع الناس في مصر أخبار ذلك الحصار في اهتمام ، وتمنوا زوال الاسبتارية . لكن العثمانيين ردوا عن الجزيرة بخسارة فادحة ، وذلك بفضل استماتة الاسبتارية في الدفاع ، ووصول نجدة من فرديناند ملك صقلية اليهم في الوقت المناسب .

أما المعاهدة التي عقدت بين السلطنة المملوكية وجزيرة رودسفقد روعيت مراعاة صادقة من الجانبين ، ودامت العلاقات الطيبة بين الإسبتارية وسلاطين

المماليك عدة سنين . ويبدو ان تلك العلاقات ظلت على حالها حتى سنة ١٥١٧ م ، إذ بينما كان المماليك في أشد أدوار المقاومة ضد الزحف العثماني نحو مصر بعد استيلائهم على الشام ، أشيع في القاهرة انسفناً رودسية وصلت فعلا الى دمياط تحمل ألفاً من جنود الاسبتارية ، فضلا عن عدة من السفن المحملة بالبارود ، وأن رئيس الاسبتارية وقتذاك — وهو ديل كاريتو — ارسل تلك السفن كلها لمساعدة السلطان طومانباي على العثمانيين . ومع انه قد ظهر كذب تلك الإشاعة ، فإنها تخبر على الاقل بأن الاسبتارية كانت في نظر المعاصرين مستعدة لمساعدة جميع أعداء العثمانيين ، ولو كان اولئك الاعداء من المسلمين . على ان بقاء الاسبتارية بجزيرة رودس لم يطل بعد زوال دولة المماليك ، لأن الفتح العثماني لمصر والشام جعل اجلاءهم عن جزيرتهم الواقعة في طريق المواصلات بين القسطنطينية والاسكندرية أمر لا بد منه . وفي أوائل فبراير سنة ١٥٢٢ م وصلت الاخبار الى الاسبتارية ان أسطولا كبيرا أعد بالقسطنطينية لحصار رودس، وتبع ذلك حصار طويل صارم انتهى في مساء ٢٩ ديسمبر من تلك السنة بتوقيع الاسبتارية شروط التسليم بجزيرتهم، وإخلائها والجزر التابعة لها في ظرف اثني عشر يوماً ، مقابل الامان على أموالهم وأرواحهم . ثم انتقل مركز الاسبتارية الى مالطة ، حيث بقوا بها الى أيام نابليون .

مصر وطريق الهند
في القرنين السادس عشر والسابع عشر

المماليك واستغلال طريق الهند :

امتاز عصر المماليك في مصر بالبذخ والترف البالغين حدهما الأقصى ، ومع هذا فقد كان المصدر الأول لايراد الدولة في ذلك العصر هو الضرائب الفادحة التي كانت تفرض على تجارة الهند المـــارة بأحد الطريقين المسلوكين في ذلك الوقت وهما :

طريق الخليج الفـــارسي وطريق البحر الاحمر – وسواء عن طريق الخليج الفارسي نقلت التجارة أم عن طريق البحر الأحمر (وهو الأغلب لانه أصلح) ، فانها كانت تمر لا محالة في أراضي المماليك ، إذ هم المالكون في ذلك الوقت لمصر والشام جميعاً .

وقد كان لمرور التجارة الهندية عبر هذين الطريقين أكبر أثر في ترويج تجارة البحر المتوســط ، وعظمت بسببه ثروة الجمهوريات الايطالية ، ولا سيما جمهوريتي جنوة والبندقية .

تحول التجارة الى رأس الرجاء الصالح في القرن ١٦ :

وقد اشتط المماليك والبنادقة في جمع المكوس والضرائب إلى درجة أثارت غضب الممالك الأوربية وحسدها ، فدفعهم ذلك إلى البحث عن طريق آخر توصل إلى الهند حتى يتيسر لهم الاستيلاء على نصيب من هذه الأموال التي تتدفق إلى جيوب المصريين والبنادقة ، وساعد على نجاح هذا الاتجاه نشاط حركة الاستكشاف في القرن الخامس عشر الميلادي ، وكان البرتغال أول الرواد للبحث عن هذا الطريق، وقد وصل أولهم « هنري الملاح » إلى مصب السنغال والرأس الأخضر في سنتي ١٤٤٦ وسنة ١٤٤٧ م ، ثم واصل هذه الجهود من بعده بارتلميودياز الذي وصل إلى طرف افريقيا الجنوبي سنة١٤٨٦، وفاسكو دى جاما الذي وصل إلى موزمبيق وكلوة وممبسة وانتهى به المطاف الى قاليقوط في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي .

وقد وقع خبر كشف الطريق الجديد وقوع الصواعق على مصر والأمم التجارية في البحر المتوسط ولا سيما البنادقة ، وحاولوا القضاء على البرتغال وعلى هذا الطريق الجديد ، فاتحد السلطان الغوري سراً مع البنادقة ومع ملك قاليقوط على أن يعملوا معاً لنزع سيادة البرتغال من الشرق ، وأنشأ الغوري أسطولاً عظيماً، وقدم البنادقة إليه كل عون ، وأمدّوه بالأخشاب التي يريدها لبناء الاسطول ، وتقابل الاسطول مع سفن البرتغال في البحار الهندية بالقرب من شواطىء (بمباي) ، وانتصر المصريون في الموقعة الاولى ، ولكن لم يلبث البرتغاليون أن جمعوا اسطولاً آخراً وانتصروا على المصريين أمام (بمباي) سنة ١٥٠٩ م. « ٩١٥ هـ. » ، فكانت هذه الموقعة هي الفاصلة في أمر التجارة الهندية ، وظل هذا الطريق الجديد ـ طريق رأس الرجاء الصالح ـ هو الطريق المطروق من التجار الاوربيين طوال القرن السادس‌عشر.

انجلترا تبدأ علاقاتها التجارية مع الشرق :

كانت نتيجة حرب المائة سنة مع فرنسا أن فقدت انجلترا ممتلكاتها في القارة حيث الغنى والقوة ، وكذلك أدت حروب الوردتين إلى قيام حكومة

مركزية ، ولهذا ابتدأ البخر يلعب دوره ويقود الانجليز إلى منابع وميادين جديدة للثروة والنشاط ، وخلال هذا القرن (١٦) كانت طائفة من سفنهم تغادر الساحل الغربي فتنفذ إلى البحر المتوسط ، حيث تثير قليلاً من اهتمام السفن الاسبانية والفرنسية والبندقية التي كانت تمخر عباب البحر منذ أمد طويل ، فطريق مرور التجارة من الشرق وإليه عبر البحر المتوسط كان معروفاً منذ القدم ، ولكن الانجليز لم يحاولوا استعماله إلا قبيل نهاية القرن السادس عشر ، وذلك لسببين :

١ – أحدهما يتعلق بالعوامل الطبيعية للجزر البريطانية .

٢ - والثاني يتصل بالعداء القديم بين الأسطولين البريطاني والاسباني .

وفي هذا الوقت نفسه – أي في القرن السادس عشر – كانت دول أوربا تخطب ود السلطان العثماني بواسطة سفراءها الذين أتوا يمثلون الشعوب الأوربية المختلفة ، وذلك لأن تركيا كانت حينذاك في أوج مجدها ، كما كانت – وهو الاهم في نظر دول أوربا – تسيطر على طرق التجارة البرية المؤدية إلى الشرق والمطروقة في ذلك الوقت ، وابتدأ التنافس بين هذه الدول بمحاولة الفرنسيين – تؤيدهم حكومتهم ويشد أزرهم البنادقة – الانتقاص من قيمة شركة الشرق الانجليزية ، وتحديد امتيازاتها التجارية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ولكن باعتراف السلطان بوليم هاربورن سفيراً لانجلترا سنة ١٥٨٣ بدأ عهد جديد هام في تاريخ العلاقات الانجليزية بالشرق .

وفي ذلك الحين كان الانجليز قد استوثقوا من قدرتهم على نزول حلبة المنافسة التجارية مع جيرانهم الاوربيين ، وبذلك ابتدأوا يفكرون في تتبع التجارة الشرقية حتى مصادرها الأصلية ، وقادهم هذا التفكير إلى بذل مساع كثيرة يتلو بعضها البعض الآخر لاكتشاف طرق برية تصل بين الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والسواحل الأسيوية الشرقية ، وقد حبطت هذه المحاولات جميعاً ، ويرجع حبوطها إما إلى العقبات الطبيعية التي تتخلل هذه الطرق ، وإما إلى صعوبة النقل وتأخر وسائله في ذلك الزمن .

أما المخاطرات والمحاولات الأخرى للوصول إلى الشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح فقد أدت إلى انحلال القوى الاسبانية ، كما فتحت الطريق الى نبع غزير للثروة جذب الانجليز نحوه ، حتى اضطروا في أواخر هذا القرن إلى الانصراف عن طريق البحر المتوسط الذي كان يدر عليهم الربح الوفير الى هذا الطريق الجديد وهو أوفر ربحاً ، واستمر هذا الطريق مفضلاً عند التجار الانجليز حتى عهد الثورة الصناعية التي أعادت توجيه طرق الاتصال والتجارة مع الشرق نحو البحر المتوسط ، وذلك في القرن التاسع عشر .

وبرغم هذا فقد بقي القليل من التجار الانجليز يعبرون البحر المتوسط للوصول بتجارتهم نحو الشرق ، يشجعهم على ذلك انهم استمروا نحو قرنين يتمتعون بالامتيازات التي حصلوا عليها سنة ١٦٠٤ ، وهي تشابه في كثير من الوجوه الامتيازات التي منحت للفرنسيين سنة ١٥٣٥ ، والتي تبيح لهم التجارة في جميع الثغور العثمانية .

انجلترا تحاول العودة الى طريق مصر والبحر الأحمر في القرن ١٧ :

وحوالي نهاية القرن السابع عشر عبرت بعض السفن الانجليزية بحر العرب ودخلت الى البحر الاحمر واشترت صفقة جد رابحة من البن اليمني من مدينة « مُخا » .

كانت هذه المحاولة للوصول الى أوربا عن طريق مصر والبحر الاحمر عاملاً قوياً دفع القوم الى التفكير الجدي في عقد صلات جديدة بين انجلترا وسواحل آسيا الجنوبية بانشاء طريق جديد يجوس خلال مصر .

وفي سنة ١٦٩٨ مر هنري تستو « Tistew » (وكان قبل ذلك قنصلا لانجلترا في طرابلس) بمصر والبحر الاحمر ، وقد عزم العمل على ترقية طريق التجارة المار بمصر والبحر الأحمر ، ولكن آماله حبطت لأن الدولة العثمانية أصدرت أمراً بمنع السفن المسيحية من الملاحة في البحر الاحمر شمال ثغر جدة ،

لقرب هذا الثغر من المدينتين المقدستين: مكة والمدينة ، ومع هذا فقد استمرت التجارة نشطة مزدهرة بين « جدة » ومخا وبمباي تقوم بها السفن الانجليزية والعربية على السواء .

أمـــا في القرن الثامن عشر فقد تطور اهتمام الدول الاوربية بمصر كطريق التجارة نحو الشرق ، فأصبح نضالا خفياً بين انجلترا وفرنسا للسيطرة على مصر .

مصر وطريق الهند

في القرن الثامن عشر

تحدثنا في الفصل السابق « مصر وطريق الهند في القرنين ١٦ ، ١٧ » عن قيمة طريق مصر والبحر الاحمر من الناحية التجارية في عهد المماليك ، وكيف كان لمرور التجارة عبر هذا الطريق بين الشرق والغرب أكبر الاثر في نمو الثروة المصرية مما ساعد حكومة المماليك على أن تحيا حياتها المشهورة بالبذخ والترف ، ومما ساعدها أيضاً على أن تقف مجهوداتها الحربية دائماً على صد كل عدوان خارجي مدمر عن مصر وعن العالم الإسلامي أجمع .

ثم عرضنا بعد هذا لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة عن الطريق المصري إليه ، ولأثر هذا التحول في الحياة الاقتصادية بمصر طيلة العهد العثماني .

وفي هذا الفصل بيان تفصيلي عن بدء اهتمام انجلترا بطريق مصر والبحر الأحمر في القرن الثامن عشر ، ومنه ندرك كيف كان الانجليز عمليين عندما أعرضو عن الدولة العثمانية ، وحاولوا الاتفاق مع امراء المماليك مباشرة لتيسر نقـل التجارة والرسائل عبر مصر والبحر الاحمر الى الهند والشرق الاقصى وبالعكس .

اهتمام انجلترا بطريق مصر والبحر الاحمر في القرن ١٨ :

لم يكد ينتصف القرن الثامن عشر حتى تتابعت الحوادث تتابعاً غير منتظر ، وغيرت بذلك من مركز مصر ومن الاتجاهات التي كانت تسيطر على توجيه الطرق التجارية نحو الشرق .

ففي سنة ١٧٦٦ استطاع علي بك الكبير القبض على نواصي الأمور فقتل بعض منافسيه ، ونفى البعض الآخر ، وشيع الباشا إلى القسطنطينية ، ومنع الجزية عن السلطان ، وضرب السكة باسمه ، واتخذ لنفسه لقب سلطان مصر ، وبذلك استطاع علي بك بضربة واحدة قوية أن يخلق من مصر دولة مستقلة .

ولكنه لم يتمتع بهذا الاستقلال طويلا فقد قتلته يد أثيمة، بعد أن ضرب المثل الأعلى لأنداده من المماليك ، ولهذا فان مصر قضت الربع الاخير من هذا القرن كالمرجل المضطرب، قلقة لا تستقر ، ثائرة لا تهدأ ، وبدت في فترات مختلفة وكأن زمامها قد أفلت من يد السلطان العثماني [1] .

وفي نفس الوقت كانت تركيا تعاني أزمة دولية خطيرة ، فقد كانت في حرب مع الروسيا والنمسا مجتمعين ، فمن اليسير إذن أن نستنتج أن هذا الاضطراب الداخلي في مصر ، وهذه الحرب المشتعلة في اوروبا بين تركيا وجارتيها لا بد أن يسترعيا أنظار الدولتين اللتين تهتمان بشؤون الدولة العثمانية وبشؤون الشرق عامة ، وهما : فرنسا وانجلترا .

أما فرنسا فقد كانت تعتقد تمام الاعتقاد منذ ذلك الوقت أن حين الدولة العثمانية قد حان ، وأنه من الواجب عليها أن تسرع فتقتطع لنفسها نصيباً من التركة ، وليكن نصيبها مصر أغلى درة في التاج العثماني والطريق إلى الهند وإلى الشرق الأقصى .

أما انجلترا فقد اتخذ اهتمامها بمصر شكلا جد مختلف ، فقد حاولت قبل

---

1) Charles Roux, L'Angleterre, l'Isthme de Suez, et l'Egypte p p. 20 - 21 ,

هذا محاولات الوصول الى الهند عن طريق البحر الاحمر لم تسفر عن نجاح ، وها هي ذي ترى الآن بكوات مصر يكادون يستقلون بالأمر فيها .

إذن فقد زال الخطر التركي الذي كان يمنعها من استعمال هذا الطريق ، وإذن فلا مانع من أن تتصل انجلترا ببكوات مصر لتتفق معهم اتفاقاً يمكنها من الحصول على بغيتها .

من هذا نتبين أنه كانت هناك وسيلتان لانشاء نوع من الصلة بين أوربا والهند عن طريق مصر :

إحداهما بالتقرب الى الباب العالي صاحب السلطة الشرعية والنفوذ الأسمى على مصر ، والأخرى بالتقرب الى السلطة المحلية ، سلطة البكوات ، الذين يديرون شؤون هذا القطر .

أما فرنسا فكانت سياستها التقليدية تقضي عليها منذ أيام فرنسوا وسليمان بالاتصال بالباب العالي مباشرة .

أما انجلترا فقد فضلت الوسيلة الثانية وبدأت تسعى لدى المماليك وأصبح لمصر بالتالي اعتبار هام في توجيه السياسة الانجليزية الخارجية منذ ذلك الحين.

جيمس بروس يعقد اتفاقية تجارية مع مماليك مصر سنة ١٧٧٥ م :

ولكن سرعان ما تغيرت الأحوال السياسية في مصر والحجاز ، فقد ثار العرب بالحاميات المصرية في مكة وجدّة وطردوها من هاتين المدينتين كما ثار بعلي بك في مصر أحد قواده حتى ألجأه إلى الفرار الى سوريا ، وبذلك أصبح اعتلاء أبي الذهب العرش يهدد التجارة التي كانت تصل إلى مصر عن طريق البحر الأحمر .

وفي هذا الحين – يناير سنة ١٧٧٣ – وصل إلى القاهرة جيمس بروس « James Bruce » بعد أن درس الصعاب والآخطار التي صادفته في طريق

عودته من جدة ، واستطاع بلباقة أن ينال عطف الحاكم الجديد ، وأن يسوّي معه نظاماً دقيقاً يمكن التجارة الانجليزية من الاستمرار في طريقها ، كما استطاع بلباقة أيضاً أن يتفق مع الأمير المملوكي على تخفيض النسبة المئوية التي كانت تدفع كرسوم جمركية على التجارة الانجليزية من ١٤ ٪ الى ٨ ٪ .

ولم يكد بروس ينتهي إلى هذا الاتفـــاق حتى أرسل نبأه إلى القائدين : « ثورنهل » ، « وبريس » « Thornhill and Price » ، وأرفق بخطابـه صورة من الفرمان إلى حكام بنغال وبمباي ، وحسب بروس أنـــه قد نجح في مهمته ، فترك مقاليد الأمور في يد القنصل البندقي ، واتخذ طريقه إلى وطنه كي يعلن لحكومته نبأ هذا النجاح الباهر .

ولكن بروس لم يلقَ في وطنه النجاح الذي لقيه في مصر ، بل لقـــد أظهرت الحكومة الانجليزية القائمة حينذاك عداءها لهذا المشروع ، وذلك لأنها رأت في تحويل التجارة الانجليزية الى طريق السويس ضربة قاضية على الاحتكار الذي تتمتع به شركة الهند الشرقية ، كما رأت أيضاً أن التجارة بمرورها عن هذا الطريق ستكون مهددة بالأخطار لعداء الحكومة العثمانية للفكرة في حد ذاتها .

أما التجار الانجليز في الهند فسرعان ما رحبوا بهذه المعاهدة الجديدة ، وسرعان ما وصلت سفنهم الى مدينة السويس لتفريغ مـا تحمل من بضائع الشرق ، وأرسلت هذه البضائع إلى القاهرة ، ومنها الى الاسكندرية ، ومن الاسكندرية حملتها الى أوربا بعض السفن التي كانت تفد إلى هـذا الثغر بين الحين والحين ، ووصلت الى انجلـــترا متبعة الطريق الذي كان يصل بين تريستا (Trieste) وثغور انجلترا [1] .

وأخذت السفن الانجليزية خلال الثلاث أو الأربع سنوات التالية لمعاهدة سنة ١٧٧٥ تفد إلى السويس من الهند ، والى الاسكندرية من انجلـــترا في

1) Charles Roux, O p. cit : p. 52 .

نفس الوقت ، وأدرك التجـار الفوائد الجمة التي تعود عليهم من اتباع هذا الطريق ، ولكنهم أدركوا كذلك أن هناك بعض الصعوبات التي يجب عليهم العمل على تذليلها .

هذه الصعوبات كانت تتلخص فيما يلي :

١ ـ الرياح الموسمية الهابة على المحيط الهندي .
٢ ـ ثغور البحر الاحمر الصخرية .
٣ ـ الطريق الصحراوي بين السويس والقاهرة .

ولكن هذه الصعوبات مجتمعة لم تثنِ عزم التجـــار الوافدين من الهند ، كذلك لم يثنِ عزمهم احتجاج الباب العالي على اتفاق ١٧٧٥ ، واستمرت العلاقات على أحسن ما تكون بينهم وبين بكوات القاهرة .

التاجر بلدوين يحاول اتمام جهود بروس :

ظهر في ذلك الحين في أفق هذه العلاقـات تاجر انجليزي آخر أخذ على عاتقه المهمة التي بدأها « Bruce » ، كان هذا الرجل واسمه «G. Baldwin» تاجراً من النوع المخاطر كثير التجـــارب ، وقد اشتغل بالتجارة مع الشرق سنة ١٧٦٠ ، واستطاع بثاقب فكره أن يدرك المزايا الجليلة التي يمكن استغلالها إذا نظمت طرق التجارة المارة بمصر .

رأى بلدوين أن مصر خالية من أي فرد يمثل التجار الانجليز تمثيلا رسمياً أو غير رسمي ، فسعى لدى الحكومة الانجليزية لسد هذا النقص ، واستطاع أن يحصل أولاً على موافقة شركة الهند الشرقية والاعتراف به كممثل لها في مصر، وذلك لأن شركة الهند كانت لا تزال تتمتع باحتكار التجارة في الشرق الأدنى تحت رعاية الحكومة الانجليزية .

اعترفت شركة الهند ببلدوين كوكيل لها في مصر على ان تدفع له اجراً معلوماً ومبلغاً خاصاً من كل ملف من ملفـــات المراسلات يمر خلال مصر

سالماً ، وبذل بلدوين كل ما في جعبته من جهد في السنتين التاليتين لاختصار المدة اللازمة لتبادل المراسلات بين لندن والهند ، وقد نجح في هذه المحاولة نجاحاً باهراً ، بحيث أصبحت السفن الواردة إلى السويس سنة ١٧٧٧ لا تكاد تفرغ حمولتها وتأخذ الأهبة للعودة الى الهند حتى تكون الرسائل الخاصة بلندن قد وصلتها وأرسلت الرد عليها ، فتحمله هذه السفن معها وهي عائدة ، وبحيث أصبحت السلطات العليا في انجلترا والهند تعتمد على هــذا الطريق اعتماداً كلياً في كل مراسلاتها الهامة ، وبحيث أصبحت الرسائل التي تُعنوَن بأنها « وصلت بالطريق البري » تثير اهتمام ذوي الشأن وعنايتهم .

العقبات تعترض بلدوين :

ورغم هــذا النجاح كانت لا تزال هناك في سبيل استعمال هذا الطريق عقبات كأدوات يبينها بلدوين في قوله :

« بــدأ الترك — الذين لزموا الصمت حتى هذا الوقت — الشكوى ، ورغب رئيس الجمارك في اقتسام الاتاوة التي تدفع ، كما اشتكى شريف مكة من أن ثغر جدة قد يهجر ، واشتكى مديرو شركة الهند الشرقية لأن تجارتهم ستتحمل خسائر فادحة ، كما أنت الشركة التركيــة واستغاثت لأنها ستتحطم[1] » .

فرح مديرو شركة الهند الشرقية أول أمرهم ، لأنهم حسبوا أن هذا الطريق سيكون وسيلة جديدة للاتصال بين الهند وانجلترا ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن هذا الطريق باهظ النفقات إن لم تنــله يد الاصلاح ، كذلك أدركوا ان شركة الليفانت قد تتقدم لحمل البضائع الشرقية التي تفد على مصر من كل حدب وصوب ، فتحملها إلى أنحاء العالم الاوربي ، وتكون بذلك منافساً خطيراً ، وفي نفس الوقت أرسل القنصل الانجليزي في القسطنطينية واسمه (هايس Hayes) إلى حكومته ينبئها بأن الحكومة العثمانية قد اعتزمت

(1) Hoskins , The British Routes to India , p. p. 11 , 12

عزماً أكيداً ان تقضي على التجارة المارة عن طريق البحر الاحمر ، ووافق هذا النبأ الرغبة الانجليزية ، فأرسلت الحكومة في الحال إلى تجارهـــا في الهند تأمرهم بالإقلاع عن استعمال هذا الطريق ، كذلك أرسل الباب العالي للباشا في القاهرة يأمره بمطاردة هذه السفن ، وألا يسمح لإحداها بتفريغ بضاعتها في مصر .

كان بلدوين قد بذل كل ما في وسعه لإنجاح هذا المشروع ، ولكن المعارضة واتته من كل حدب وصوب : من حكومته في لندن ، ومن الدولة العثمانية ، ومن شركة الهند الشرقية ، وقد حاول بلدوين التغلب على هذه الصعاب ، ولكن اضطراب الحـــالة الداخلية في مصر بموت أبي الذهب سنة ١٧٧٦ زاد في حرج مركزه .

وصل إلى البلاط العثماني في ذلك الوقت القنصل الجديد « انسلي Ainslie » وكان البكوات المماليك قد رفعوا الرسوم التي تحصل على البضائع التي تفرغ على أرض مصر إلى ٢٠ ٪ ، فذعر التجـــار وذعر بلدوين ، وطلب التجار إلى حكومة السلطان أن تنصفهم من هذا الاجحاف ، كما طلبوا الرجوع إلى معاهدة ١٧٧٥ ، ولكن انسلي – للعداء الشخصي بينه وبين بلدوين – لم يؤيد هـــذا الطلب لدى حكومة الباب العالي ، بل أرسل تقريره إلى الحكومة الانجليزية يبلغها رغبة الحكومة العثمانية الشديدة أن تمنع السفن من المرور في مياه البحر الأحمر والاتصال بموانيه – ما عدا ثغري جدة ومخا – لأنها تعتبر أن البحر الاحمر – كطريق إلى مكة والمدينة – يجب أن يستمر حرَماً آمناً لا حقّ لأية سفينة مسيحية بالمرور فيه .

ونتيجة لهذا الخطاب أرسلت الحكومة الانجليزية أوامرها المشددة إلى حاكم البنغال وإلى بلدوين تلزمها تنفيذ هذه الرغبة .

المنافسة تبدأ بين انجلترا وفرنسا للسيطرة على طريق مصر – البحر الاحمر:

في هذه الآونة كانت المنافسة بين انجلترا وفرنسا على أشدها ، وقد وجهت هذه الحوادث نظر الفرنسيين نحو مصر ، ففي سنة ١٧٧٧ أرسل انسلي إلى حكومته تقريراً يخبرها فيه بأن البارون دي توت « Baron de Tott » المفتش العام للثغور التجارية الفرنسية في الشرق قد زار القاهرة ساعياً لامضاء معاهدة تجـــارية مع المماليك [١] ، وذكر انسلي في تقريره أيضاً أن بعثة دي توت كانت تعنى بأمور أكثر جدية من هذه المعاهدة ، وأنها كانت تعنى بدراسة الوسائل الممكن اتباعها لغزو مصر ، والوسائل الممكنة لفتح طريق تجاري فرنسي بين مصر والهند ، وإعادة حفر الخليج الذي بين النيل والبحر الأحمر — كان لهذا الحادث الفضل كل الفضل في تقريب شقة الخـــلاف بين بلدوين « Baldwin » من ناحية وانسلي « Ainslie » والحكومة الإنجليزية وشركة الهند الشرقية من ناحية أخرى ، وسافر بلدوين في سنة ١٨٨٧ إلى القسطنطينية ليسعى هو وانسلي لدى الباب العالي كي يسمح للسفن الانجليزية التي تحمل المراسلات بالوصول إلى السويس ، ولكن الحكومة العثمانية رفضت هذا الطلب ، وحذرتها من السماح لأية سفينة بالتقدم شمال ثغر جدة ، وعاد بلدوين الى القاهرة مظهراً الطاعة ، ولكنه فيما بينه وبين نفسه لم يقلـــع عن الفكرة ، لأنه كان لا يزال يعتقد بأفضلية طريق السويس [٢] .

وأخيراً اقترح انسلي على وزارة الخارجية أن تستعمل طريقاً آخر لايصال مراسلاتها إلى الهند ، هذا الطريق يبتدىء من حلب ويخترق العراق الى البصرة ومنها إلى بمباي ... (وقد استعمل هذا الطريق بعد ذلك بقليل مدة احتلال الفرنسيين لمصر ١٧٩٨ — ١٨٠١) ، ولكن هذا الطريق لم يكن بالطريق

---

1) Ch. Roux, Op. Cit. p. p. 94 – 95 .

2) Hoskins , op . cit . p. 20

الآمن ، ذلك لأن العربان كانوا يغيرون على المسافرين فيسلبونهم ما معهم وقد يقتلونهم ، ولم تكد تبدأ سنة ١٧٧٩ حتى بدا للجميع أن طريق السويس على وشك أن يهجر فقد كان الباب العالي عاقداً النية الجازمة على القضاء على تجارة الفرنج في البحر الاحمر ، وهذا الحادث التالي يدل دلالة واضحة على قوة عزم الباب العالي : ففي الرابع والعشرين من شهر مايو ١٧٧٩ وصلت إلى السويس سفينتان تحملان العلم الدانمركي ، ولكن يقودهما رجل انجليزي اسمه جورج مور « J . Moore » ، وكان مور يحمل معه خطاب توصية من حاكم بنغال الى الامير المملوكي في القاهرة ، وكان معه في السفينة رجل ألماني يدعى فان در فلدن « Van Der Velden » يحمل أيضاً خطاب توصية من نفس الحاكم إلى « Baldwin » .

أما بلدوين فلم يجرؤ على مساعدة القوم ، وعندما وصلته أوامر الامير المملوكي بالاعتناء بتجارتهم تقدم وساعدهم حتى أفرغوا بضاعتهم ، وسار « مور » إلى القاهرة تاركاً صحبه في مهمتهم وبعد قليل اتخذ الباقون (وهم هذا الالماني وأربعة من الانجليز وفرنسيان) طريقهم في قافلة تحمل تجارتهم نحو القاهرة ، وقد بدأوا رحلتهم آمنين غير مسلحين أو مستعدين لمقابلة ما عساه يعترضهم من أخطار ، وذلك لأن الامير المملوكي لم يؤمنهم على أنفسهم وتجارتهم فحسب ، بل زودهم بالجمال التي تحمل تجارتهم نحو القاهرة ، ولكنهم فوجئوا بعد أن اجتازوا مرحلة قصيرة من رحلتهم بجماعة من البدو وانقضوا عليهم فسلبوهم بضاعتهم التي كانت تقدر بمبلغ ٣٧٫٥٠ جنيه ، بل وسلبوهم ملابسهم التي تغطي أجسادهم وتركوهم عراة حيارى في الصحراء ، وقد عاد أودونيل «O'Donnell» — وهو أحد الأربعة الانجليز — إلى السويس ، أما الباقون فقد اعتقدوا انهم يستطيعون الوصول الى القاهرة وساروا في طريقهم ولكنهم سرعان ما ضلوا الطريق فقضوا نحبهم من الجوع والعطش والتعب إلا واحداً من الفرنسيين أنقذه أحد الفلاحين وهو في آخر رمق من حياته .

وصل أودنيل « O'Donnell » إلى القاهرة عن طريق السويس ، وهناك

استطاع بمساعدة بلدوين الحصول على مبلغ من المـــال كهبة للمساعدة ، وفي نفس الوقت غيّر الأمير المملوكي خطته ، وأرسل فرقة من جنوده تبلغ المائتي جندي استولت على ما في السفينتين من تجارة ، وألقى القبض على « مور » و « بلدوين » و « اودونيل » وأودعهم جميعاً السجن ، وأرسل البك تقريراً بالحادثة إلى الباب العالي ، كما أرسل بلدوين واودونيل تقريرهما كذلك إلى السير روبرت انسلي « Robert Ainslie » ، ووافق الباب العالي على الاجراءات التي اتخذها أمير القاهرة ، لأنها تنفيذ لسياسته ورغبته ، كذلك لم يجد انسلي اهتماماً ظاهراً لنفس السبب ، وإن كان قد سعى سعياً جديا لدى البـــاب العالي ليأمر باطلاق سراح الأسرى ، وهذا ما فعله أمير القاهرة قبل أن يصله أمر السلطان ، لأنه أحس الأثر السيء الذي تركه الحادث في دول غرب أوربا جميعاً .

أطلق الأمير سراح أسراه كلهم ما عدا بلدوين ، ولكن هذا سرعان ما استطاع الفرار من سجنه وهرب من مصر تاركا وراءه جميـع ممتلكاته على سفينة فرنسية حملته الى أزمير ، ومن هناك ارتحل بلدوين إلى القسطنطينية ، حيث بقي شهوراً طويلة يوزع اللوم في حنق وألم على كل من ظنه سبباً في هذه المأساة الأخـــيرة ، وخاصة على التاجر البندقي ذى النفوذ الكبير كارلو روسيتي « Carlo Rosetti » ، وعلى رئيس الجمرك أنطوان قسيس ، وفي سنة ١٧٨٠ ذهب بلدوين إلى انجلترا محاولاً رفع شكواه إلى حكومته ، متهماً انسلي بمعاكسته وخيانة وطنه وممالأة الأتراك في سياستهم ، ومحاولاً في الوقت نفسه إقناع حكومته بالسعي لتشجيع طريق السويس وفتحه للتجارة والملاحة ، وقد أثبت التحقيق براءة انسلي ، لكن أخبار هـــذه وصلت متأخرة إلى الهند وانجلترا، ولذلك فقد قصدت في صيف سنة ١٧٨٠ سفينتان انجليزيتان إلى مدينة القصير ، فأنزلت إلى البر خمسة من رجالها الانجليز ، وفي القاهرة أسر أربعة منهم وسمح للخامس بالسفر إلى القسطنطينية ومعه الرسائل التي كان يحملها الى انجلترا ، وهناك فتحت إحدى هذه الرسائل ،

ومنها علم الأتراك أن السلطات الانجليزية في الهند لا زالت دانية السعي لعقد الصلات التجارية مع مماليك مصر تبعاً لنصوص معاهدة ١٧٧٥ .

وتمكن النسلي بصعوبة شديدة من إطلاق سراح مواطنه وإرساله إلى انجلترا بما معه من رسائل ، أما السفينتان الراسيتان في القصير فقد دهم البدو ملاحيها ، وقتلوا منهم خمسة ، حتى اضطر الربان إلى إطـــلاق مدافعه على المدينة .

وأرسلت الحكومة الانجليزية إلى الهند تكرر أوامرها وتشدد في تنفيذها ألا يتقدم أحد بتجارته أو سفنه شمال جدة ، ولكن ما حدث لقافلة سنة ١٧٧٩ وما حدث لرسل سنة ١٧٨٠ كان أسرع انتشاراً وأعمق أثراً من أوامر الحكومة الانجليزية أو الباب العالي أو شركة الهند الشرقية .

وإذ أصبحت الأخطار التي تحدق بالتجارة إلى مصر اكثر من أرباحها ، وإذ اصبح الاتصال بمصر يعتمد على السفن المصرية التي تسير بين جدة والسويس فقد هجر هذا الطريق هجراناً تاماً ، ولذلك لم تكد تنتهي سنة ١٧٨٠ حتى أقلعت السفن الانجليزية عن الذهاب الى السويس .

ويقرر هـــذه الحقيقة هوسكنز (١) « By the end of 1780 it was said that English vessels no longer came to Suez . »

أثارت هذه المحاولات اهتمام دول غرب اوربا لهذا الطريق ، ولذلك فقد حاولت النمسا أن توجد لها – بالاتفاق مع الباب العالي – وكلاء أو قناصل تجاريين في القطر المصري ، بالاسكندرية والقاهرة والمدن الكبيرة ، ولكن هذه المحاولات لم تستمر طويلاً .

فرنسا تتحفز للوثوب على مصر :

وكانت فرنسا تصوب أنظارها في جشع منذ أمد بعيد نحو مصر ، وكانت تحفزها إلى الوثوب ظروفها السياسية وعلاقاتهـــا المعقدة مع انجلترا ، ولذلك

---

1) Hoskins, The British Routes to India, p. 25 .

فانها بعد سنة ۱۷۷۸ ، وبعد أن عقدت حلفاً مع المستعمرات الامريكية ضد بريطانيا – تضاعفت رغبتها في شل حركـــة التجارة الانجليزية في الشرق ، وعرضت اقتراحات كثيرة لتنفيذ هذه الرغبة ، كان بعضها يرمي إلى الاتفاق مع إيران للوصول إلى الهند، وكان بعضها يرمي إلى احتلال مصر وبلاد العرب وفتح قناة تصل البحرين الأحمر والأبيض .

وفي سبتمبر سنة ۱۷۸۳ عقدت معاهدة سلمية بين فرنسا وانجلترا، وبذلك أسدل الستار مؤقتاً على هذه المشروعـــات ، وحاولت فرنسا الوصول إلى الاتفاق مع ممـاليك مصر كما فعل الانجليز سنة ۱۷۷٥ ، وبدأت الحكومة الفرنسية فأرسلت إلى ممثلها لدى الباب العالي تسأله إعـداد تقرير تقارن فيه بين فوائد الطريقين المؤدين إلى الهند، وهما : طريق البصرة وطريق السويس.

وفي سنة ۱۷۸٤ وصل إلى مصر القـــائد الفرنسي البحري شفاليبه دى تريجيه « Chevalier de Truguet »و قُدّر له أن يكون أحسن حظاً وأكثر نجاحاً من صحبه جميعاً ، ذلك أنه كان يحمل إلى امراء المماليك في مصر خطاب صداقة من القبطان باشا قائد الأسطول التركي ، ولأنه كان على اتصال وثيق بالتاجر الفرنسي الشهير شارل مجالون « Charles Magallon » ، وإذا عرفنا أن مجالون كان قد قضى في مصر ما يزيد عن العشرين عاماً اكتسب في خلالها نفوذاً لا بأس به أدركنا كيف سهل على تريجيه الوصول إلى الاتفاق مع المماليك .

وأمضيت المعاهدة في فبراير سنة ۱۷۸٥ بين مراد بك وتريجيه ، ونصت على ضمان الحريات بأنواعها المختلفة للتجار الفرنسيين ، كما نصت على تخفيض الضرائب المجباة على التجارة الفرنسية تخفيضاً كبيراً ، وعقد اتفاقان آخران: أحدهما بين تريجيه ومدير الجمارك في القاهرة خاصاً بالضرائب التي تفرض على البضائع الفرنسية عند تفريغها في السويس والآخر بين تريجيه وأحد المشايخ

العربان خاصاً بالقوافل التي تحمل البضائع إلى القاهرة ، وبهذا وصل الفرنسيون إلى ما لم يصل اليه الانجليز في محاولاتهم الماضية جميعاً .

انجلترا تراقب المحاولات الفرنسية وتحاول القضاء عليها :

أحس رجال الحكومة الانجليزية بالندم يأكل نفوسهم أن أصروا في الماضي على العدول عن طريق السويس ، وانتهز بلدوين هذه الفرصة ورفع شكواه إلى الحكومة ، فبرىء من التهم التي نسبت اليه ، ونشر في ذلك الحين كتيباً صغيراً عن الموضوع أسماه :

« The Communication with India by the Isthmus of Suez vindicated from the Prejudices which have prevailed against it. »

وحلّل فيه وجهة نظر كل من الحكومة العثمانية وشركة الهند الشرقية ، وأثبت بطلانها ، وألح على الحكومة الانجليزية أن تعيد السعي لاستعمال هذا الطريق وإلا جاء اليوم الذي يصبح فيه وصول الإنجليز إلى ممتلكاتهم في الهند تحت رحمة الفرنسيين وبإذنهم .

وعهد إلى بلدوين أن يضع مذكرة يصف فيها كيف يمكن للانجليز إحياء علاقتهم مع مصر من جديد ، وكتب بلدوين المذكرة ، وبيّن أن الطريق الوحيدة هي تعيين قنصل انجليزي في القاهرة يرسل من قبله مندوبين إلى الاسكندرية والسويس، واقترح لتغطية مصاريف هذه الوكالات السياسية حلاً من ثلاثة :

١ — إحياء التجارة بين الهند والسويس ووضع ضريبة خاصة على هذه التجارة تغطي هذه المصاريف .

٢ — أو الغاء الاحتكار الذي تتمتع به شركة الهند الشرقية وتحويل الإعانة الحكومية السنوية التي تمنح لها إلى هذا الغرض .

٣ — أو تتكفل الشركة بدفع هذه النفقات من دخلها الخاص .

ووافقت الحكومة الانجليزية على الفكرة ، وعُين بلدوين نفسه قنصلاً في مصر وقبلت الشركة أن تدفع له مرتبة السنوي وقدره ٥٠٠ جنيه، وحددت مهمته بهذه الأغراض :

١ — أن يعمل لحماية رعايا صاحب الجلالة أثناء تجارتهم ومرورهم بمصر .

٢ — أن يسعى لدى الحكومة المصرية للحصول على ضمان لحماية رعايا صاحب الجلالة وتجارتهم في ذهابهم إلى الشرق وإيابهم منه .

٣ — وهو الأهم — أن يراقب حركات الفرنسيين مراقبة دقيقة ، وأن يرسل لحكومته التقارير الوافية عن هذه الحركات .

وأمرته الحكومة الانجليزية أن يسعى أول ما يسعى إلى عقد معاهدة مع المماليك لا تقل في امتيازاتها عن المعاهدة التي عقدتها فرنسا، ومهدت الحكومة له الطريق في القسطنطينية قبل أن يغادر وطنه إلى مصر ، ولكن هذه الرغبة اعترضها فرمان الباب العالي القاضي بتحريم مرور التجارة المسيحية في البحر الأحمر ، فأرسلت الحكومة الانجليزية إلى انسلى تأمره أن يجعل أساس حديثه مع السلطان الامتيازات التجارية والبحرية السخية التي منحت للانجليز سنة ١٧٦٥ .

وأقلع بلدوين في اغسطس سنة ١٧٨٦ قاصداً مصر ليتولى منصبه الجديد ، ولكن حظه السيء كان يلازمه ، إذ كان في مصر وقت وصوله جيش وافد من تركيا لاخضاع الأمراء الثائرين ، كما كانت حالة البلاد الداخلية توصف باشد أنواع الفوضى .

كانت مصر في ذلك الحين مسرحاً لنزاع دائم مستمر بين أمراء المماليك ، وكان المتغلب من هؤلاء الأمراء يتولى العرش ، ولكنه لا يلبث إلا قليلا حتى يغدر به أمير آخر فيأخذ مكانه بعد أن يقتله ، وكان كل أمير يحس أن أجل حكمه قصير، ولذلك كان يتبع كل السبل المشروعة وغير المشروعة للحصول

على المال، وكان الباب العالي أمام الاضطرابات الداخلية وتحت الضغط الروسي الملح الدائم لا يستطيع أن يتخذ أية اجراءات إيجابية لاخضاع هؤلاء المماليك.

ولكن الكيل طفح أخيراً فقد طلب مراد بك سنة ١٧٨٦ مبلغاً من المال من قناصل الدول الأوربية في مصر وإلا عمد إلى تخريب كنيستي الفرنشيسكان في الإسكندرية، ويقال إن هذه الوسيلة كانت من ابتكار القنصل الروسي في الإسكندرية البارون دي تونوس « Baron de Thonus »

أمام هذا الخطر الداهم لجأت الهيئة الدبلوماسية الأوربية في الإسكندرية إلى ممثلي دولها في القسطنطينية، وذهب وفد من وكلاء هذه الدول جميعاً — ما عدا السويد وانجلترا — يقدمون شكواهم إلى الباب العالي، ووافقت هذه الشكوى هوى في نفس السلطان، فقرّر العمل على إيقاف أمراء المماليك عند حدهم، وسرعان ما اتخذ الأسطول التركي أهبته كي يتقدم نحو مصر، ولم يشأ السلطان أن يسند قيادة الأسطول إلا لربانه الأكبر حسن قبطان باشا [1]

أما انسلي فمع أنه لم يشترك في هذه الشكوى فقد سر لهذه الاجراءات، لأنها ستقضي إذا نجحت على معاهدة سنة ١٧٨٥ الفرنسية المملوكية.

ووصل الأسطول إلى الإسكندرية التي سلمت دون مقاومة تذكر، وسار الجيش التركي إلى رشيد ثم القاهرة فاستولى عليها بعد ان طارد جيش مراد وابراهيم نحو الصعيد.

ويبدو أن الأتراك لو كانوا قد أحرزوا النصر في وقت غير هذا لفرح الانجليز به أيما فرح، ولكنهم وجموا لهذا النصر وأسفوا له كل الأسف، ذلك لأن مبعوثهم بلدوين كان قد وصل إلى مصر في ذلك الحين لعقد معاهدة مع المماليك، فاذا به يراهم مهزومين فارين إلى أقاصي الصعيد، وإذا به يرى الأتراك يستولون على أزمة الامور في مصر، فلم يكن أمامه إلا الاعتراف بالأمر الواقع فاستقر في عمله، وعين له مندوبين في الاسكندرية والسويس.

1) Ch. Roux. Op. cit. P. 195.

وفي مارس سنة ١٧٨٧ قابل القبطان باشا محاولا تحقيق رغبته بالاتفاق معه[1] ولكن هذا كان يحمل معه الفرمان القاضي بتحريم الملاحة المسيحية في البحر الأحمر .

كذلك كان انسلى يسعى من ناحية لدى الباب العالي ليحبط مسعى بلدوين، أما الحكومة الانجليزية فكانت قد عزمت عزماً اخيراً على استعمال طريق السويس وخاصة لتيسير تبادل الرسائل بين انجلترا والهند .

وواتى انجلترا حظها الحسن فنشبت الحرب في خريف سنة ١٧٨٧ بين تركيا وروسيا واستدعى القبطان باشا من مصر ، ومنذ ذلك الحين تغير اتجاه السياسة التركية، وابتدأ القبطان باشا يميل إلى الاتفاق مع الانجليز والترخيص لهم بالمرور في البحر الأحمر ، ولكنه فوجىء بمساعدة انجلترا لروسيا إذ اكتشفت تركيا أن انجلترا تمد عدوتها بالسفن الحربية .

في أثناء ذلك كله كان بلدوين دائب السعي لتحقيق سياسته ، وكان مجهوده مضاعفاً ، لأنه كان يعمل لتحقيق فكرة يدين هو بها قبل أن تكون مهمة قد كلفته الحكومة بتنفيذها .

وأخيراً استطاع بلدوين في ابريل سنة ١٧٨٨ أن يرسل إلى حكومته نتيجة سعيه وتتلخص فيما يلي :

« لقد نجحت في الحصول — من حكومة القاهرة — على حق السماح للمسافرين والرسائل بالوصول إلى السويس بسفن الشركة وأن تفرغ هذه السفن ما تحمل في أمان، وأن يمر هؤلاء خلال مصر في سلام، ولقد أرسلت الأوامر بهذا إلى السويس ، وأنا لا أشك ان هذه الحكومة لو استبدلت بغيرها فإنه ليس من العسير الوصول الى الاتفاق نفسه مع الحكومة الجديدة » [2]

---

1) **Hoskins. Op. cit. P. 38.**

2) **Hoskins. Op. cit. P. 42.**

ثم عاد فأرسل إلى حكومته كذلك في فبراير سنة ١٧٨٩ يخبرها بوصول سفينتين فرنسيتين الى السويس ، وأنه قد سمح لها بتفريغ بضائعها ، وأنه يعد العدة لاستقبال سفينتين تجاريتين انجليزيتين آتيتين من الهند وأن :

« المرور في مصر الآن حر إذا شاءت الشركة أن تستغله » .

انجلترا تفكر في الغاء قنصليتها بمصر :

كان الاضطراب السياسي في مصر ، الناجم عن التنازع المستمر بين الوالي العثماني الذي يحاول عبثاً استرداد السلطان الفعلي لدولته وبين أمراء المماليك الثائرين بزعامة مراد وإبراهيم والذين كانوا يحاولون هم أيضاً القبض بيد قوية على مقاليد الأمور في مصر ، كان هذا الاضطراب عاملا من أهم العوامل التي زعزعت الأمن وهددت التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب .

ولذلك أخذ الانجليز حوالي سنة ١٧٩٠ يصدفون عن هذا الطريق ، بل كثيراً ما زادت أرباحهم من التجارة المتبادلة بطريق رأس الرجاء الصالح — رغم بعده وكثرة نفقاته — على أرباحهم التي جنوها من تبادل التجارة بطريق السويس .

ولذلك فقد تقدم اللورد جرنفيل « Lord Grenville » وزير الخارجية الانجليزية في سنة ١٧٩٢ إلى هنري دونداس « Henry Dundas » وزير الحربية باقتراح لالغاء وظيفته القنصلية في مصر لكثرة نفقاتها وقلة نفعها ، ولم يلاقِ هذا الاقتراح قبولا في هذه السنة ، ولكن اللورد جرنفيل أعاد الكرة في السنة التالية ١٧٩٣ قائلا إنه إذا كانت القنصلية الانجليزية في مصر ذات نفع لشركة الهند الشرقية فلتتولى هي أمر نفقاتها وإلا فلا داعي لبقائها.

وكان الاقتراح حلا حاسماً ، لأن شركة الهند الشرقية والإدارة الهندية

لم تقبل واحدة منها أن تزيد على نفقاتها مبلغاً لا يقل عن ألفي جنيه سنويا ، ولذلك فقد أرسلت وزارة الخارجية في الثامن من اكتوبر سنة ١٧٩٣ رسالة إلى مصر تلغي فيها انتداب بلدوين كقنصل لانجلترا .

ولكن لحسن حظ بلدوين قد وصل هذا الأمر في غير حينه ، ذلك أنه بينما كان جرينفيل يؤكد ان لا فائدة من وجود بلدوين في مصر كان الأخير يؤكد من ناحيته العملية أهمية مجهوداته التي يبذلها في سبيل الامبراطورية .

وتفصيل ذلك أنه في ذلـك الحين – أي في اليوم الأخير من شهر يناير سنة ١٧٩٣–كانت الحرب قد أعلنت بين بريطانيا وفرنسا ، وأصبح الاتصال بين لندن وبين الهيئات الحاكمة في الهند أكثر أهمية للانجليز منه في أي وقت مضى منذ عين بلدوين قنصلاً في مصر ، ولم تكد أخبار اعلان الحرب تصل إلى بلدوين حتى أسرع فأرسلها إلى الهند قبل أن يصل الى عـلم الحامية الفرنسية هناك أي خبر عن اضطراب الحالـة في أوروبا ، وبذلك استطاع الانجليز الاستيـلاء على بوند تشري « Pondicherry » وطرد الفرنسيين من الهند .

كان هذا عاملاً هاماً حفز دونداس « Dundas » الى أن يشير على وزارة الخارجية كي تعمل على استمرار قنصليتهـا في مصر ، وعلى تأييد بلدوين في سياسته لما أبداه من غيرة وحماس في الدفاع عن صالح الامبراطورية .

وكان من حسن حظ بريطانيا أن بلدوين لم يغادر منصبه ، لانه لم يستلم –لسبب غير معروف– أمر عزله الصادر في٨فبراير سنة ١٧٩٣،ولكنه مرض في ذلك الحين ، وكان مزمعـاً السفر إلى لندن حينما استدعت الحكومة الانجليزية وكيله الشخصي في لندن وأبلغته شفهياً أن يكتب الى بلدوين يخبره بأن الحكومة تريد أن تستبقيه في مركزه متولية أمر نفقاته حتى تضع الحرب بينها وبين فرنسا أوزارها ، وبذلك استأنف بلدوين مهمته ، وكأن شيئاً من هذا الاضطراب لم يحدث .

بلدوين يعقد معاهدة جديدة مع مراد وابراهيم

كانت المهمة الاولى لبلدوين عند أول تعيينه قنصلاً في مصر كما ذكرنا أن يعقد معاهدة تجارية مع مماليك مصر .

ولذلك انتهز بلدوين هذه الفرصة السانحة ، وعقد هذه المعاهدة بينه وبين مراد بك وابراهيم بك ، وقد حصل فيهـــا على الترخيص للسفن الانجليزية بالملاحة في البحر الأحمر حتى مدينة السويس ، وعلى الترخيص للتجارة الانجليزية بالمرور في أمان بين السويس والاسكندرية ، وذلك مقابل أن يدفع التجار ضريبة مقدارها ٦ ٪ لمماليك مصر ، يدفع نصفها التجار الانجلـــيز والنصف الثاني العملاء المقيمون في مصر ...

وليس غريباً أن نذكر أن المماليك قد رحبوا بعقد هذه المعاهدة أكثر من ترحيب بلدين ، ونستطيع أن ندرك لماذا لم يكن هذا غريبــاً إذا عدنا إلى الماضي قليلاً لنذكر أن غالبية ثروة المماليك التي مكنتهم من أن يحيوا هذه الحياة المفعمة بالبذخ والترف .. كان مصدرها الرسوم الجمركية الباهظة التي كانوا يتقاضونها على التجارة المارة عبر مصر من الشرق الى الغرب ، فكان لتفريغ البضاعة في الموانىء رسوم خاصة ، ولحق الإبحار رسوم خاصـة ، وللجمرك رسوم خاصه ، ولحق الشحن رسوم خاصة ، وهكذا ..

وإذا تذكرنا أيضاً ان هذا النبع الفياض قد غاض معينه منـذ تحولت التجارة إلى رأس الرجاء الصالح .. فليس غريباً إذن أن يحن المماليك إلى قطرات أن تنحدر إليهم من هذا النبع الذي طالما سقاهم اللبن والعسل

وسعى بلدوين من ناحيته سعياً حثيثاً ليتوج هذه المعاهدة بالنجــاح ، فأرسل صورة منها إلى حكومته في لندن ، وأرسل صورة أخرى إلى الهند يؤكد للتجار هناك أمله المؤكد في أن الحكومة العثمانية سوف توافق على هذه المعاهدة دون شك ، ودفعه إلى تأكيد هذا الأمل أن عدوه الألد انسلى قد

ترك مركزه في القسطنطينية ليتولاه من بعده «روبرت لستون R. Liston »، لكن انسلى حين عاد الى لندن كان أكبر همه أن يقضي على آمـــال بلدوين بتعسفية آرائه والتقليل من قيمة مجهوداته لدى وزارة الخارجية ، ولذلك لم يحصل بلدوين من حكومته على علم بوصول (A. R.) مذكرته عن المعاهدة .

مصر تثير اهتمام روسيا وفرنسا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر :

وبينما الحكومة الانجليزية تحاول جهدها خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر لكي تنفض يدها من مصر وطريق السويس تماماً ، كانت هناك على الأفق دولتان قويتان تثير مصر اهتمامها باستمرار ، هاتان هما روسيا وفرنسا.

أما روسيا تحت حكم كاترين الثانية فقد كانت تعقد الآمال الطوال وتحاول تنفيذها للوصول إلى مياه البحر الأبيض المتوسط ..

ولذلك ابتدأت أنظارها تتجه نحو مصر ، وفي سنة ١٧٨٥ حاولت فئة من مماليك مصر بزعامة إبراهيم بك تعزيز استقلالهم بالتحالف مع إحدى الدول الأجنبية ، ولهذا السبب دخلوا في مفاوضات سرية مع الروسيا ، وعلم الباب العالي بهذه المفاوضات ، فأسرع بارسال بعض القوى لتعزيز الدفاع عن مصر أمام الغارة الروسية المنتظرة ، ولكن الروسيا لم تسرع بارسال هذه الغارة وانتظرت فرصة اشتباكها في الحرب مـــع تركيا حينما كانت مصر بلا قوة تحميها فأرسلت في أغسطس سنة ١٧٨٨ فرقاطة حربية مزودة بأربعين مدفعاً وتصحبها نقالتان تحملان بعض العدة والسلاح والهدايا إلى الأمراء .

ووصلت هـــذه السفن إلى دمياط يقودهـــا القنصل الروسي السابق « Baron de Thonus » ، ولاقت هذه الحملة الصغيرة كل عون من القنصل الفرنسي في ثغر دمياط ، وكانت مهمة الروسيين في الواقع مساعدة المماليك للقيام بثورة ضد الترك ، ولكنهم لم يفلحوا في مهمتهم ، والفضل في ذلـك يرجع إلى دهاء الوالي العثماني في مصر في ذلك الوقت وهو إسماعيل باشا .

وفي سنة ١٧٩٠ أرسل انسلي إلى حكومته من القسطنطينية تقريراً آخر يخبرها بعزم الروسيين على غزو مصر، لم ولكن هذا العزم لم يكن أكثر من خطة وضعت لارسال ثماني سفن حربية تتخذ طريقها حول رأس الرجاء الصالح وتنفذ إلى البحر الأحمر فتهدم جدة وينبع وتخرب مكه والمدينة وقبر الرسول ثم تهدد مصر ذاتها .

كانت هذه خطة وضعت كما ذكرنا ، ولكن الروس لم يجدوا في انفسهم الشجاعة الكافية لتنفيذها .

مقدمات الحملة الفرنسية على مصر :

أما فرنسا فقد كانت أشد عزماً في اتجاهاتها ، وكانت للمنافسة القديمة بينها وبين بريطانيا في الشرق والغرب على السواء تحس الخطر الذي يهددها ويهدد تجارتها إذا تحققت محاولات بلدوين المتكررة للسيطرة على طريق السويس ، كذلك كان لرحلات الفرنسيين المتتابعة إلى مصر في القرن الثامن عشر ونخص بالذكر منها رحلتي فولني وسافاري « Savary » أكبر الفضل في توجيه أنظار الفرنسيين إلى مصر .

ولذلك لم تلبث فرنسا أن أعادت انشاء قنصليتها في القاهرة في ١٣ يناير سنة ١٧٩٣ واختارت لها التاجر مجالون « Magallon » ، وجاء هذا التعيين قبل الأمر بعزل بلدوين بتسعة أيام مما أثار احتجاج الانجليز لدى حكومتهم يطلبون استمرار بلدوين في مصر .

وفي اكتوبر سنة ١٧٩٥ وصل إلى الإسكندرية « Dubois Thainirll » ومهمته أن يعقد معاهدة مع المماليك لفتح طريق التجارة والمواصلات بين السويس والهند . وسرعان ما استشف بلدوين من هذه المحاولات أن الفرنسيين يزمعون الإغارة على الهند عن طريق مصر بارسال جيش عبر مصر إلى الهند لمساعدة «Tippo» سلطان ميسور ، وللقضاء على السيطرة الانجليزية في الهند، وسرعان ما أرسل تقريره إلى حكومته يخبرها بنبأ هذه المحاولات .

ومما يؤيد صحة هذا الخبر أن « Magallon » كتب إلى حكومته سنة ١٧٩٥ يخبرها بأنه من الممكن إرسال فئة من الجيش عن طريق السويس عندما تكون الرياح مواتية ، وأن الجنود لا يمكثون فوق البحر عن هـذا الطريق سوى ستين يوماً ، في حين أنهـم يستغرقون ستة أشهر إذا انتقلوا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، كما يقول : —

« لا نفقد رجلاً في المائة ، على حـين أننا نكون سعداء لو فقدنا عشرة رجال من مائة لو تتبعنا الطريق الآخر » .

ولتوضيح فكرته كتب إلى وزارة الخارجية الفرنسية يقول :

« بالرحيل من طولون في العشرين من يونيو تستطيع القوى الفرنسية الوصول إلى الاسكندرية في العاشر من يوليو ، وإلى القاهرة في العشرين منه والى السويس في الخامس والعشرين ، وبعد خمسة وأربعين يوماً تصل إلى الهند قبل أن يكون الانجليز قد اتخذوا عدتهم للدفاع .....

وأن عشرة آلاف فرنسي يستطيعون في معركة واحدة اقتلاع الانجليز من البنغال حصنهم المتين » .

ويقال ان رسائل « Magallon » كانت السبب الأكبر في إثارة النقاش بين رجال حكومة الإدارة حول موضوع الإغارة على مصر ، فاستدعى ماجالون إلى فرنسا لاستشارته . وفي سنة ١٧٩٧ كانت فكرة الحملة على مصر ثم على الهند قد اختمرت في رؤوس رجـال الحكومة ، وابتدأت تخطو الخطوات التنفيذية .

ومما ساعد على نجاحها أن بلدوين الذي كـان يقف لكل فكرة من هذا النوع بالمرصاد كان قد وهن منه العظم واشتعل الرأس شيباً، وضعف بصره، فغادر مصر إلى وطنه حيث قضى الأيام الباقية من حياته .

وانتهت هذه المقدمات بوصول حملة نابليون إلى مصر في سنة ١٧٩٨ ،

وقام الصراع صريحاً وعنيفاً بين انجلترا وفرنسا وكل منهما تحاول السيطرة على مصر والاستئثار بطريق الهند شريان التجارة بين الشرق والغرب، وشهد القرن التاسع عشر صوراً متتابعة من هذا الصراع بدأت بجلاء الفرنسيين عن مصر في سنة ١٨٠١ أول سنة من سنوات هذا القرن ، وكانت الصورة الثانية اتفاق دليسبس مع سعيد لحفر قناة السويس ثم افتتاحها في عهد اسماعيل ثم شراء دزرائيلي لأسهم مصر في شركة قناه السويس .

وكانت الصورة الثالثة احتلال انجلترا لمصر في سنة ١٨٨٢ .

ومع مولد القرن العشرين هدأت حدة هذا الصراع بعقد الاتفاق الودي بين انجلترا وفرنسا في سنة ١٩٠٤ ، وانتقل الصراع منذ ذلك الحين بين الانجليز كقوة استعمارية وبين القوى الوطنية المصرية ، وكان لهذا الصراع صداه في طرف الشريان البعيد في الهند ، وتجاوبت الحركات الوطنية في البلدين مصر والهند .

ووافقت انجلترا على استقلال الهند ودخلت مع حكومات مصر في حلقات من المفاوضات يأخذ بعضها بخناق بعض ، وكانت تعلن في كل حلقة من هذه الحلقات موافقتها على استقلال مصر ولكنها كانت تصر في كل مرة على أن تظل لها السيطرة بشكل أو بآخر على قناة السويس الطريق إلى الهند وإلى الشرق بصفة عامة ، أما فرنسا فقد قنعت بالكسب المادي الذي يدر عليها المال أنهاراً بحكم ملكيتها للنصيب الاكبر من أسهم شركة القناة وبحكم سيطرتها الفعلية على مجلس إدارتها ومعظم وظائفها .

وبلغ التحدي ذروته حين أعلن البنك الدولي بايعاز من امريكا وانجلترا ودول الغرب سحب وعده بتمويل مشروع السد الأعلى .

وكان الرد قويا وصارماً حين أعلن الرئيس جمال عبد الناصر تأميم شركة

قناة السويس وبذلك استطاعت مصر ان تستعيد ملكيتها لهذا الشريان التجاري الهام ومفتاح الطريق إلى الهند .

وجن جنون انجلترا وفرنسا بالذات — ولنترك اسرائيل جانباً فهي عامل دخيل في المنطقة — ونسيت الدولتان المنافسات الطويلة التاريخية الحادة بينهما من أجل السيطرة على هذا الطريق،واتفقتا اتفاق المتعوس مع خائب الرجاء ، وكان العدوان الأثيم الذي انتهى بالهزيمة الشنعاء .

دكتور بِرون (Dr . Perron)[1]
والشيخان

محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي

تقدمة :

آمن محمدعلي ، منذ تولى عرش مصر بإرادة الشعب ، أنه لا يستطيع أن يرقى بهذا البلد إلا إذا نقل الحضارة الأوروبية الى مصر، أو بمعنى أصح ، الا اذا ترجم الحضارة الأوروبية ؛ وقد استعان في أول أمره بجماعة من الايطاليين وأرسل بعثاته الأولى إلى ايطاليا؛ثم لم يلبث أن تحول عن ايطاليا والايطاليين الى فرنسا والفرنسيين[2] ، وكان أول مظهر من مظاهر هذا التحول استعانته بالكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي فيما بعد) لتدريب ضباط جيشه الجديد .

وبعد تكوين هذا الجيش الجديد رأى انه في حاجة الى اطباء أوروبيين

---

(١) نشر هذا البحث في : (مجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد الثاني ، ١٩٤٤)

(٢) فصلت الحديث عن هذا التحول وتطوره في كتابي : « تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي » ، القاهرة ، ١٩٥٢ .

للإشراف على صحة ضبـــاطه وجنوده ، فكلف التاجر الفرنسي تورنو (Tourneau) في سنة ١٨٢٥ (١٢٤١ هـ) أن يرحل الى فرنسا ويتعاقد مع احد الاطباء الفرنسيين ؛ فسافر « تورنو » واتصل بالدكتور « انطوان برتلمي كلوت Antoin Barthélmy Clot » في « مرسيليـا »، « وكتب معه شروطاً تقضي بحريته في العمل ، وأن يتبع ديانته المسيحية ، وعدم إجباره على السير مع الجيش ... الخ ... الـــخ »[1] ؛ وحضر كلوت الى مصر في نفس السنة (١٢٤١ هـ — ١٨٢٥ م) وعين « جراح باشي » الجيش المصري .

ولم يلبث كلوت أن أخلص لعمله الجديد ، ووهبه كل وقتــه وتفكيره ، فأنشأ المستشفيات العسكرية ، ومصلحة الصحة البحرية ، وفي سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٧ م) انشئت مدرسة الطب المصرية[2] تنفيذاً لرغبته ، وجُعل مقرها في أبي زعبل لتكون قريبة من معسكرات الجند .

وتخير الدكتور « كلوت » نخبة من أطباء وعلماء اوروبا الممتازين ليكونوا أساتذة المدرسة الجديدة ، وكان من بينهم «الاستاذ برُون الكيماوي المعروف من مدرسة باريس[3] » لتدريس مادتي الطبيعة والكيمياء .

وكانت الصعوبة الكبرى التي اعترضت طريق « كلــوت » هي جهل الاساتذة باللغة العربية ، وجهل التلاميذ باللغات الاجنبية عامة ؛ ولكنه بذل جهوداً جبارة للتغلب على هذه العقبة، بدأت بأن يترجم المترجمون عن الاساتذة ما يقولون ، وانتهت بترجمة الدروس التي تلقى ، والمراجع الطبية المختلفة ، وطبعها في مطبعة بولاق ، ثم توزيعها على طلبة المدرسة .

---

(١) تاريخ كلوت بك ص ١٠ ، ترجمة محمد لبيب البتانوني أحمد خريجي مدرسة الألسن باشارة الدكتور محمد بك الدرى ، القاهرة ، المطبعة الطبية الدرية بحارة السقايين سنة ١٣٠٨ .

(٢) انظر جهوده وترجمة حياته بالتفصيل في المرجع السابق ص ٦ — ١٥ ؛ كلوت بك لمحة عامة الى مصر ، ترجمة محمد مسعود ، ج٢ ص ٥٩٣ وما بعدها ؛ عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم في عصر محمد علي . القاهرة ١٩٣٨ ، ص : ٣٢ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٢٩ — ١٣٠ ، ١٥٩ ، ٢٥١ الخ . الخ .

(٣) كلوت بك ، لمحة عامة الى مصر ، ج ٢ ص ٦٢٨ .

غير ان استاذاً واحداً استطاع – كما يبدو – أن يذلــــل هذه العقبة وحده ، فاستعان ببعض الألفاظ العربية – ولا شك – عند شرح دروسه ، ثم استعان أول الأمر بـــأحد مترجمي المدرسة ليترجم له محاضراته في علم الطبيعة ، ولكنه بعد سنوات قضاها في الدرس والبحث ، والاتصال ببعض المحررين والمصححين من شيوخ الأزهر استطاع أن يترجم بنفسه محاضراته في الكيمياء .

ذلك الأستاذ المستشرق هو الطبيب « الكيماوي » الدكتور « برّون » ، وهو الوحيد من بين جميع الأساتذة الأجانب في مدارس محمــد علي المختلفة الذي كان يعرف اللغـــة العربية ، ويعني بالبحث في كتبها ، والترجمة عنها وإليها .

دكتور برّون Dr. Perron :

كان « برّون » عالماً بحاثة بكل ما تحمل هاتان الكلمتان من معنى ، فلم يكتف بعمله التعليمي الوظيفي فيغمض عينيه عن الحياة التي تحيط به ، وهي حياة جد جديدة ، في بلد غريب ، وبين أناس يختلفون عن عشيرته من الفرنسيين الاختلاف كله : في الدين ، والاخــلاق ، والعادات ، والملابس ، والثقافة ... الخ ولكنه وهب وقته كلــه للبحث العلمي ، ولنوع خاص من هذا البحث العلمي : هو الحياة الثقافية – قديمها وحديثها – في الشرق عامة ، وفي مصر خاصة ، فشارك في حركة الترجمــة والنشر التي نشطت وقتذاك في مصر ، وكانت له جهود جليلة في الترجمة عن العربيــة إلى الفرنسية ، وعن الفرنسية إلى العربية ، وكانت له نظرات ناقدة نافذة – رغم مرارتها – إلى صميم الحياتين الثقافية والسياسية في مصر حينذاك ، ولهــذه النظرات قيمة عظيمة لانها صادرة عن أجنبي يدرك العيب الذي لا يدركه صاحب البيت ، وعن عالم يستطيع التحليل والمقـــارنة ، ويجيد الشرح والوصف ، وإدراك الاسباب والمسببات .

وقد سجل « برّون » هذه الملاحظات في خطاباته التي كان يرسلها اثناء مقامه في مصر إلى صديقه المستشرق الشهير « جول مول[1] Jules Mohl » ناموس الجمعية الاسيوية وعضو المجمع الفرنسي (l'Institut de France) في « باريس » ، وقد نشر « مول » بعض هذه الخطـابات في الجريدة الاسيوية « Journal Asiatique » ، وبقي البعـض الآخر دون أن ينشر حتى انتقل إلى ابن أخيه مسيو « أ. دى مول O. de Mohl » بصفته الوريث لعمه .

وفي سنة ١٩٠٨ كان « أ. دى مول » وزيراً مفوضاً ووكيلاً لالمانيا في صندوق الدين العام بالقاهرة ، فعثر بين أوراق عمه على أربع عشرة رسالة بخط الدكتور « برّون » مرسلة من مصر إلى « جول مول » في « باريس » ، فقدمها لصديقه المرحوم أرتين باشا وكيل وزارة المعارف وقتذاك ، وعضو المجمع المصري « l'Institut Egyptien » عله يجد بها ما يهم مصر ، أو المجمع المصري ، وذلك قبل إرسالهـا إلى باريس لتضم إلى أوراق « جول مول » المحفوظة بالمجمع الفرنسي .

وقد نشر أرتين باشا هذه الخطابات ومعها مقدمة تحليلية في سنة ١٩١١ تحت هذا العنوان : « Yacoub Artin Pacha, Lettres du Dr. Perron, du Caire et d'Alexandrie, à M. Jules Mohl, à Paris. 1838 — 1854, Le Caire, 1911. »

وفي هذه الخطابات صور من نشاط « برّون » العلمي في الترجمة والنشر .

ودكتور « برّون » فرنسي الاصل ، ولا نعرف شيئـــاً كثيراً عن حياته الأولى في فرنسا قبل أن يحضر إلى مصر ، غير أنه يبدو أنه عنى

---

(١) جول مول ألمـــاني الأصل ولد في « شتتجارت Stuttgart » في ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٠٠ ، ودرس في كلية توبنغن ، ثم سافر الى باريس وتجنس بالجنسية الفرنسية ، ودرس هناك على المستشرقين الفرنسيين ، وكان معنياً بالدراسات الفارسية وله مؤلفات وأبحاث كثيرة أهمها نشره لكتاب الشاه نامه للفردوسي في سبعة مجلدات ضخمة، ثم أتبعه بترجمة فرنسية مذيلة بالحواشي وتوفي في ٤ يناير سنة ١٨٧٦ . انظر : شيخو ، الآداب العربية في القرن ١٩ ، بيروت سنة ١٩٠٨ — ١٩١٠ ، ج ٢ ص ٥٥ ؛ Y. Artin Pacha, Lettres du Dr. Perron etc etc le Caire, 1911. P. 6.

– وهو في باريس – إلى جانب دراساته الطبية العلمية ، بدراسة اللغة العربية ، وتتلمذ إذ ذاك على كبير مستشرقي فرنسا « سلفستر دي ساسي Silvestre de Sacy » كما تتلمذ على المستشرقين : « جان جاك كوزان دي برسيفال » الأب » و « أرمان كوزان دي برسيفال » الابن [١].

ولسنا نعرف بالتحديد تاريخ مقدمه إلى مصر ، وان كان « كلوت بك » يذكره ضمن الأساتذة الأول لمدرسة الطب المصرية بأبي زعبل ، فإذا صح أنه بدأ عمله بهذه المدرسة وقت إنشائها فإنه يكون قد حضر إلى مصر في سنة ١٨٢٧ (١٢٤٢ – ١٢٤٣ هـ) .

وظل « برّون » يدرس في مدرسة الطب مادتي الطبيعة والكيمياء حتى بعد نقلها إلى القصر العيني .

ويبدو من رسائله إلى صديقه « مول » أنه كان فقيراً ، رقيق الحـــال ، فقد كتب اليه في خطابه المرسل من الاسكندرية بتاريخ ١٠ اغسطس سنة ١٨٣٦ : « أشر عليّ بما ترى أنه خير وأفضل لي أن أعمله فأنني فقير لا أملك إلا مدادي .. »[٢] ، وقال في خطاب آخر أرسله لصديقه من القاهرة في ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٩ : « وأما أنا فقد عهد إلي بادارة مدرسة الطب ... وهذا

---

(١) ذكر « برّون » مرة في أحد خطاباته لصديقه « مول » انـــه سيكتب قريباً لمسيو « كوزان » ، وطلب من صديقه أن يبلغه انه سيعمل التحليل الذي طلبه منه ، وانه يشرفه جدا أن يتمتع بصداقة وثقة عالم كبير كمسيو « كوزان » ؛ وفي خطاب آخر طلب من صديقه ان يسلم خطابا أرسله لأستاذه العزيز « كوزان دی برسيفال » : « l'autre est une seconde lettre que j'adresse à mon cher professeur Monsieur Causin de Perceval ... » انظر : Yacoub Artin, Lettres du Dr, Perron, PP. 51, 53, ومن الواضح أن « برون » يقصد دی برسيفال الابن فان هذه الاشارات وردت في خطابين بتاريخ ١٠ أغسطس سنة ١٨٣٨ و ٢١ مـــارس سنة ١٨٣٩ ، و « دی برسيفال » الأب توفي سنة ١٨٣٥ ، انظر : يوسف جبرا ، تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا ص ٢٨ ؛ وشيخو ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ٥٤ .

(٢) Y. Artin Op. cit. P. 11 .

المنصب الجديد قد عاد علي بشيء من التحسين المادي — أعني المالي — غير أن كل شيء هنا وقتي ، ورهين بتقلب الأحداث والأشخاص ، لدرجة أنني لو كنت أعرف أنني سأجد في فرنسا — في الحال — نصف مـــا أجمعه هنا ، لرحلت اليها توا .. » (١) .

ونجده في نفس الخطـــاب قلقا جدا لاهتمامه بطبع كتاب الأنساب (٢) الذي ترجمه إلى اللغة الفرنسية ، وكان قد كلف صديقا له في باريس إسمـــه « مسيو دوبرات M. Duprat » أن يقوم بنشره ؛ يقول « برُون » في خطابه لمول — وفيما يقول دليل واضح على رقة حاله — : « لقـد تركت له مسألة النفقات وتقديرها ، وإني أرى أن كل شيء غـــير مناسب الآن للقيام بهذا النشر الذي أريده (وأريده أن يتم بأقل نفقات ممكنة ، وذلك دون إهمال مـــا يتطلبه ظهور الكتاب) إذ أنه قلما تصرف لنا مرتباتنا ، والحكومة مدينة لنا بمرتب سنة ، فإذا كان مسيو « دوبرات » يثق في الثقة الكاملة ، فإني أرجو أن يتولى الطبع في الحال ، واعدا إياه أن أقوم بسداد المبلغ منجما كلما صرفت لنا الحكومة... وإلى هذا فإن مرتبي قد زاد ، فقد كنت أتقاضى ثلاثة أكياس فجعلها الباشا خمسة ... » (٣) .

ظل الدكتور « كلوت بك » مديرا لمدرسة الطب المصرية حتى سنة ١٨٣٤ حيث تخـــلى عن منصبه للدكتور « دفينو Duvigneau » وكان أستاذ

---

(١) Y. Artin, Op. cit. P. 12 .

(٢) هو كتاب « اليتيمة في النسب وفضائل العرب » أحد أقسام الجزء الثاني من العقد الفريد لابن عبد ربه .

(٣) Y. Artin, Op. cit. PP. 13 – 14. والكيس كان يساوي ٥ جنيهات ، أي أن مرتبه كان ١٥ جنيها فأصبح ٢٥ جنيها ، ونلاحظ أن هذا الخطاب صادر عن مصر في أواخر سنة ١٨٣٩ ، وكان نضال محمد علي وقتذاك ضد الدولة العثمانية يستنفد معظم ايرادات مصر ، فلا عجب اذن أن أخرت الحكومة صرف مرتبات الموظفين .

الباتولوجيا والعيادة الداخلية ، وفي سنة ١٨٣٩ [١] عين الدكتور « برون » مديراً لهذه المدرسة .

ولبث « برّون » مديراً لمدرسة الطب ست سنوات ، وفي سنة ١٢٦١ هـ (١٨٤٥) أنعم عليه محمد علي باشا برتبة قائمقام ، وفي السنة التالية ١٢٦٢ (١٨٤٦ م)[٢] استقال من منصبه ، وعاد الى فرنسا فأقام في باريس ثماني سنوات ؛ ثم شعر بالحنين الى مصر فعـــاد اليها في أواخر سنة ١٨٥٣ (١٢٦٠ هـ) حيث عمل كطبيب حر في مدينة الاسكندرية[٣] ؛ ولا نعرف متى غادر مصر ثانية الى وطنه ، ولكننا نعلم أنه مات في باريس في ١١ يناير سنة ١٨٧٦ (المحرم سنة ١٢٩٣ هـ) في نفس السنة التي توفي فيهـــا صديقه ومراسله العلامة « ج . دي مول » .

وقد كتب المسيو « إرنسترينان M . Ernest Renan » مرثيةللرجلين في التقرير المقدم عن أعمال الجمعية الأسيوية لسنتي ١٨٧٥ — ١٨٧٦[٤] .

---

(١) يقول الدكتور أحمد عزت عبد الكريم في كتـــابه « تاريخ التعليم في عصر محمد علي » ص ٢٨٤ : « والى أوائل سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٧) كان « دفينو » مديراً لمـــدرسة الطب وخلفه الدكتور « برون » » ، ويفهم من قوله ان الدكتور برون تولى هذا المنصب سنة ١٨٣٧ ، ولكننا نستطيع أن نحدد – بوجه التقريب – تاريخ تعيينه مديراً المدرسة ، ذلك أنه لم يشر الى أي تغيير في مركزه في خطابه الموسل من القاهرة في ٢١ مارس سنة ١٨٣٩ ، ولكنه تحدث الى صديقه « مول » في خطابه الصادر من القاهرة في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٣٩ عن ترقيته الى هذا المنصب ، وعن زيادة مرتبه تبعاً لهذه الترقية ، فيكون « برون » قد تولى هذا المنصب قطعاً بين مارس وسبتمبر سنة ١٨٣٩ ؛ انظر أيضاً : Enc Isl. Art : Tunisi .

(٢) جاء في Enc. Isl. Art : Tunisi أنه عاد الى فرنسا في سنة ١٨٥٠ ، والصحيح ما ذكرناه هنا نقلا عن عزت عبد الكريم ، الموجع السابق ، ص ٢٨٤ ، الذي اعتمد عند ذكر هذا التاريخ على بعض وثائق عابدين .

(٣) وقع على خطابه المرسل من الاسكندرية في ١٩ يناير سنة ١٨٥٤ هكذا : برون طبيب صحي باسكندرية : Perron, Médecin Sanitaire à Alexendrie. Voir : Y. Artin, Op. cit, PP. 38, 109 .

(٤) 28 Juin 1876. 7me série, tome VIII .

قال « رينان » في رثائه للدكتور « برُّون » : في الحادي عشر من يناير اختفى ايضاً رجل ترك في تاريخ دراساتنا تذكاراً باقياً ، وأعني به الدكتور « برُّون » وهو واحد من أوائل الملتحقين بهذه الفرقة من الرجال المستنيرين المقـــاديم ، الذين عضدوا – وهم في مصر – مشاريع محمد علي لتحضير هذا البلد .

« وبرُّون لم يدرس الشرق كباحث فقط ، وإنما كان يؤمن – ككل أفراد الجيل الذي كان من أبنائه – بالشرق ، كما كان يأمل في انبعاثه من جديد ، وقد عمل هناك في إخلاص نادر .

« وكان إنشاء طب عربي فرنسي جزءاً من عمله ، وقد أدى خدمات من نفس النوع لمنشآت مدارسنا في الجزائر ؛ وكان يحب العرب ، ويعتقـــد في إمكان ربطهم بالحضارة الاوروبية ، ممتلئاً في ذلك بعواطف خيرية ، ومتشبعاً بمبادىء فلسفة عاطفية ... »[1] .

آراء برون في أحداث مصر السياسية :

اعتاد « برُّون » أن يروي لصديقه « مول » – في خطاباته اليه – نبذاً عن أحداث مصر السياسية الهامة ، وفي هذه النبذ مادة طيبة للبـاحثين في تاريخ مصر السياسي في عصر محمد علي :

١ – كان للغة التركية المقام الأول في مدارس محمـــد علي – وخاصة المدارس الحربية – ، فلما تفاقم النزاع بين الباشا والسلطان ، ووصلت الخصومة الى أوجها في الحرب السورية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٠) رغب البـــاشا في تعريب مصر – إن صح هذا التعبير – وذلك بجعل اللغة العربية أداة التعليم في المدارس المصرية ؛ يشير الى هذا « برُّون » كما يشير الى ان السبب الحقيقي لهذه السياسة رغبة الحكومة في الاقتصاد في مصروفات المدارس ، ونتيجة لهذا عُزل المدرسون الاوروبيون الذين كانوا يتقاضون مرتبات عالية ، وحل

---

(١) Y. Artin, op. cit, P. 7

مكانهم مدرسون مصريون[1] بمرتبات أقل ؛ وظلت هـــذه السياسة رائد الحكومة المصرية حتى بعد انتهاء أزمة سنة ١٨٤١ ، فقد كتب « برون » مرة أخرى لصديقه بتاريخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٤١ يقول : « ان الشؤون المصرية باقية كما هي في حالة عدم استقرار ، والاقتصاد هو اليوم كلمة الحكومة الأولى ، وهي تعمل على استبعاد الموظفين الأوروبيين ، وتحت تأثير الاقتصاد أيضاً أنقص عدد تلاميذ المدارس ، فمدرسة الطب مثلا ، كان عدد تلاميذها ٣٠٠ فحدد هذا العدد وأصبح ١٣٠ فقط ، وحدث مثل هـــذا في المدارس الأخرى .. » [2]

٢ – كان لهزيمة محمد علي – نتيجة لتدخل دول أوربا – رد فعل قوي في نفسه ، فلم يعد يهتم بجيشه ، يذكر « برون » أنه كان من عادة محمد علي أن يُلقي الى رجال جيشه – عند مقابلتهم له – ببعض كلمات ودية ، وكان في بعض الأحيان يداعبهم مداعبة أبوية ، أما عند عودة الجيش من سوريا ، فقد جلس محمد علي – على ديوان في سلاملك القلعة ، وظل ينظر عابساً الى الخارج خلال احدى النوافذ – والجيش يمر أمامه ، دون أن يحظى أي ضابط أو صف ضابط بكلمة ودية واحدة .

فشلت مشاريع محمد علي بعد جهاد طويل ، واضطر الى اخلاء سوريا ، وأنقص عدد جيشه ، ولكنه لم يركن الى الهدوء والدعة ، بل اتجه الى تنظيم البيت ، واستثمار أرضه ، فعني بالزراعة – عناية كبيرة ، يقول « برُون »

---

(١) Y. Artin. Op. Cit. PP. 13, 68 – 69 ورأي « برون » في هـذا الموضوع بعيد عن الصواب فان سياسة محمد علي منذ تولى عرش مصر كانت ترمي الى تحقيق هذا الأمل ، وهو ابعاد الأجانب واحلال المصريين محلهم ، لهذا أنشأ المدارس ، ولهذا أرسل البعثات ، لأنه كان يرى في صرف الأجانب عن المنشآت الجديدة واحـــلال المصريين محلهم « صيانة لأموال الدولة وفخراً لها » وكان يفرح الفرح كله كلما سمع عن نبوغ بعض الضباط المصريين ، ويعد ذلك « فألا حسناً للمستقبل اذ يغني الحكومـة عن استخدام الأجانب » ، انظر بحثنا عن الترجمة في عصر محمد علي ، وعزت عبد الكريم ، المرجع السابق ص ٣٣ و ٣٤ .

(٢) Y. Artin. Op. Cit. PP. 68 – 69 .

في خطاب له بتاريخ ٢٨ مارس سنة ١٨٤٢ : « حالة الدولة كما هي منذ شهور كثيرة والباشا يمر باستمرار في الاقاليم لتشجيع الأعمال الزراعية ، وهو الآن في الوجه البحري حيث يعمل لزرع كميات كبيرة من السمسم » [١] ثم يقول : « وفيما يتعلق بالجيش ، لم يعد أحد يهتم به ، لا الباشا ولا أي أنسان آخر ، وعدده يقل كل يوم ، وعدد الخارجين منه يزيد باستمرار ... » [١]

وذكر « برون » بعد ذلك أن كبار أمراء الأسرة العلوية انتهجوا نهج محمد علي ؛ فإبراهيم باشا « كان غائباً عن القاهرة منذ شهور طويلة، ولا يشغل نفسه إلا بالزراعة ، وكذلك عبـــاس باشا ، فإنه يمر بأملاكه ، وبمزارع الحكومة ... » [٢]

٣ — ويشير « برّون » في رسائله أيضاً الى الضرائب الجديدة التي فرضها محمد علي في هذه الفترة ، ومنها ضريبة عقارية جديدة على المنازل في المدن وقيمتها ٨٫٣٣٪ من إيجار المنزل ، ومنها ضريبة أخرى كبيرة المقدار على الرقيق الأسود — رجالا ونساء — الوارد الى مصر أو الصـــادر عنها ، وقيمتها ٣٠٠ قرش [٣] .

(١ — ١) Y. Artin. Op. Cit. PP. 18, 19, 72, 73 وقد استخدم محمد علي الجنود في بناء القناطر الخيرية ، وفي زراعة الأراضي التابعة للحكومة بزراعة القطن في جفالك نبروه ونشرت تحت اشراف يوسف أفندي وتحت امرة بعض الضباط وصف الضباط .

(٢) Y. Artin. Op. Cit. pp. 20, 73 .

(٣) يتحدث حكاكيان بك عن هذه الضريبة في مذكراته غيرالمنشورة، المحفوظة في المتحف البريطاني بلندن "Memoires inédits du Hekekyan Bey, deposés en manucrit au British Museum à Londres" تحت تاريخ ١٤ نوفمبر سنة ١٨٤٣ فيقول : « فرض الوالي ضريبة قدرها ٣٠٠ قرش على كل عبـــد يرد الى مصر ، ولكن هذه الضريبة لم تؤثر في حركة الوارد من الرقيق ، والباشا يرى أنه قد حان موعد الغاء هذه التجارة، والانجليز يمنعون نقل الرقيق بوساطة البحر بين افريقيا وبلاد العرب ... » ، ويذكر أرتين باشا ، المرجع السابق ص ٢١ — ٢٢ أن السير ج . بورنج Sir J. Bowring و« الكومودور نابييه Napier» كانا شديدي الاهتمام بهذا الموضوع، وان محمداً علياً حاول هذه المحاولة تحت—

ويذكر « برُّون » أن الباشا قدّر في نفس الوقت ما قد يكون لهذا المنع من أثر اقتصادي في التجارة المتبادلة بين مصر والسودان والحبشة ، فعمل على تشجيع التجارة في الأصناف الأخرى الواردة من هذه البلاد ، كالعاج والصمغ العربي ، وحرّر هذه الأصناف من أي نوع من أنواع الضرائب .

٤ — كان للحكم المصري في سوريا أثره الواضح في نشر الأمن والنظام في ربوع هذا القطر الشقيق ، ولكن لم تكد جنود محمد علي تنسحب من هذه البلاد، وبعود إليها الجنود والحكام العثمانيون حتى عادت معهم الفوضى القديمة واشتد النزاع القديم بين طائفتي الدروز والموارنة ، يشير إلى هذا النزاع دكتور « برون » في خطابه المورخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٤١ فيقول :

« والدروز والموارنة في نزاع مستمر وعداء ، وقد رأيت هذه الايام مسافراً عاد من سوريا فأكد لي أن كل شيء هناك في فوضى ؛ وفي نابلس نفسها رفض السكان دفع الضرائب [1] » .

آراء برون في الحالة العلمية :

١ — كانت مصر في عهد محمد علي قد بدأت تأخذ بأسباب نهضة علمية

—تأثيرهما ؛ ويروى حكاكيان بك في مذكراته السابق ذكرها بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٨٤١ ملخص حديث دار بين « نابيبه » ومحمد علي ، وفيه يبين الوالى رأية في مشكلة الغاء الرقيق : « أتى نابيبه في المساء وتحدث الى الباشا بشأن الرقيق ، وقال له الباشا وعلائم السرور بادية عليه : ان ابنه سيبذل جهداً أكثر من جهده لمنع هذه التجارة ، وأن حفيده سيغالى أكثر من ابنه في هذا الحظر ، وهكذا يتشدد في المنع أحفاده واحد بعد الآخر حتى تلتهي هذه التجارة الى الالغاء »

(١) Y. Artin. Op. cit. PP. 17, 20 – 21, 69. وانظر لتوضيح العلاقة بين هاتين الطائفتين : « حروب ابراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول » ج ٢ ص ٦٦ — ٦٨ وهو لمؤرخ مجهول ، علق حواشيه الدكتور أسعد رستم ، وعنى بنشره الخوري بولس قرألي ، المطبعة السورية بمصر الجديدة سنة ١٩٢٧ . وقد انتهى هذا النزاع بين الدروز والموارنة حوالي سنة ١٨٦٠ نتيجة لتدخل نابليون الثالث الحربي .

جديدة ، فأنشئت فيها المدارس على النظام الأوروبي لتدريس العلوم الحديثة كالطب بفروعه المختلفة ، والطبيعة ، والكيمياء ، والتاريخ والجغرافيا ، والنبات والحيوان ، والجيولوجيا ، وعلوم الرياضة المختلفة ، كالهندسة ، والحساب ، والجبر ... الخ الخ .

واختير من بين نوابغ الخريجين نفر أرسلوا في بعثات لممالك أوروبا ، وخاصة فرنسا ؛ وكانت جهود هذه المدارس مركزة أول الأمر في ترجمة المؤلفات الأوروبية في هذه العلوم ، وتلت هذه الجهود جهود أخرى لنشر بعض المؤلفات العربية القديمة الهامة . وقد أرخ « برون » لهذه الحركة تأريخاً لطيفاً مفيداً ، فكتب قائمة كاملة شاملة لجميع الكتب العربية ، والفارسية والتركية — مترجمة ومنشورة — التي طبعت في مطبعة بولاق حتى سنة ١٨٤٢ (سنة ١٢٥٨ هـ) ، وأرسلها لصديقه مول لنشرها في الجريدة الأسيوية[1] ؛ ولكن « مول » كان قد تلقى في نفس الوقت من « موسيو بيانكي » قائمة أوفى فأهمل الأولى ونشر الثانية ، ثم أرسل « برُّون » لصديقه « ج . مول » في نفس السنة (١٨٤٢) خطاباً آخر تحدث فيه عن المدارس الجديدة ومطبعة بولاق ، وقد نشر هذا الخطاب ايضاً في الجريدة الاسيوية سنة ١٨٤٣[2].

---

(١) Voir : Bianchi, Catalogue géneral des livres arabes, persans et turcs imprimés à Boulac en Egypte depuis l'introduction de l'imprimerie dans ce pays : Journal Asiatique, 4 e serie, 1843. t. II, pp, 31 et seq ، وكان قد سبقه « رينو » ، فكتب مقالاً فيه ملاحظات عن الكتب التي طبعت في بولاق حتى سنة ١٨٣١ – ١٢٤٧ هـ) انظر : Renaud, Notices des ouvrages arabes, persans et turcs imprimés en Egypte, Journal Asiatique, 2 e serie, t. XIII, 1831; pp. 333 – 344

(٢) Lettres sur les écoles et l'imprimerie du Pacha d' Egypte, par M. A, Perron à M. J. Mohl, Kaire 22 Octobre 1842. Journal Asiatique, 4me serie, t II, 1843. pp. 5 à 23. ، وقد استعان « برون » عند كتابة الجزء الخاص بالتعليم في المساجد من هذا المقال بأستاذه الشيخ الطنطاوي .

٢—وقد استطاع «برُون» ان يندمج في الوسط العلمي المصري بحكم اشتغاله بالتدريس ، وبحكم معرفته باللغة العربية ؛ غير ان معظم الاجانب الموجودين في مصر وقتذاك للمساهمة في نهضة محمد علي التعليميـــة والاصلاحية ، كانوا يجهلون اللغة العربية ، وهم قوم مثقفون يحبون البحث والقراءة ، وليس في مصر مكتبات افرنجية ، أو محال لبيع الكتب الاجنبية ، ولهذا كوّن هؤلاء الاجانب في القاهرة جمعية أسموها « الجمعية المصرية[1] » Société Egyptienne تحدث عنها « برونْ » كثيراً في خطاباته لصديقه « مول » فذكر انها اسست سنة ١٨٣٥ (سنة ١٢٥١ هـ) ، وكان غرضها الاول إنشاء مكتبة تضم أكثر عدد ممكن من الكتب ، وخاصة ما يتحدث منهـــا عن الشرق : تاريخه ، وجغرافيته ، وأديانه ، وعاداته ... الخ ... الخ ...

وكانت مالية الجمعية تتكون من :

ا — اشتراكات الاعضاء ، واشتراك العضو في السنة مائة وخمسة قروش .

ب — ومن هبات الرحالة الاوروبيين الذين يمرون بالقاهرة ، فان أي سائح أوروبي كان يستطيع أن يدخل الجمعية ، ويتمتع بالقراءة في مكتبتها

---

(١) Y. Artin. Op. Cit. pp. 15 21, 25, 65, 76 – 77 ؛وقد مر بمصر السائح الانجليزي C. Rochfort Scott حوالي سنة ١٨٣٥ ، وقد وصف هـذا السائح في كتابه : Rambles in Egypt and Candia, London 1837,V. I. p. 216. ما تعانيه الجالية الأوربية المثقفة في القاهرة من قـلة الكتب ، ثم أشار الى هذه الجمعية وما تؤديه من خدمات ، قال : « أمـا عن الكتب - في القاهرة – فمن العسير الحصول على أي كتاب اللهم الا الكتب الكثيرة الاستعمال التي نجدها في مكتبات الدرجة الثالثة عنـد الايطاليين ، اما الصحف فانا لا نحصل عليها الا مرة واحدة في الشهر » ثم يشير الى الجمعية المصرية بقوله : « وأخيراً تكونت جمعية اسمها الجمعية المصرية أسسها بعض الأجانب في القاهرة ، وستقدم للسائحين خدمات كثيرة في المستقبل ، ففيها مكتبة ، وفيها سيكون مكان صالح لاجتماعهم ، وسكرتيرها طبيب انجليزي اسمه فالن Walne »، هذا وقد تولى حكاكيان بك رئاسة هذه الجمعيـــة أكثر من مرة ، وفي مذكراته السابق ذكرها أحاديث كثيرة عنها .

على شرط ان يقدمه للجمعية أي عضو من أعضائها ، وكان هؤلاء السائحون يقدرون ما تؤديه الجمعية من فوائد ثقافية للجاليات الأوروبية في القاهرة ، فكانوا يتركون عند رحيلهم بعض الجنيهات — كهبة في صندوق الجمعية .

وقد تطورت اغراض الجمعية بعد نحو ست أو سبع سنوات من تأسيسها ، فأصبح من أغراضها طبع ونشر الكتب المتصلة بالشرق ؛ يقول « برّون » عضو الجمعية وسكرتيرها في خطابه المرسل من القاهرة بتاريخ ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٤٢ : وعندنا الآن تحت الطبع مذكرات شائقة جداً عن الموقع الحقيقي لبحيرة قارون بالفيوم ، وعن حدودها ، والعلاقات القديمة بينها وبين فيضان النيل ... الخ ... الخ ، وهذا الكتاب من وضع مسيو « لينان » الرئيس الحالي للجمعية المصرية[1] .

وواضح من هذا الخطاب ان رئيس الجمعية في سنة ١٨٤٢ (١٢٥٨ هـ) هو المهندس الفرنسي الشهير مسيو « لينان » ؛ وقد كان سكرتيرها في تلك السنة ، وفي سنوات مقبلة هو الدكتور « برّون » ، وبفضل صلته بجول مول وافقت الجمعية الأسيوية على ان تقدم لزميلتها الجمعية المصرية المساعدات الممكنة لبيع كتبها ومنشوراتها في باريس ؛ يقول «برّون » لصديقه في نفس الخطاب: « اطلعت الجمعية على خطابكم الذي تعرضون فيه مساعدة الجمعية الأسيوية لتسهيل بيع الكتب التي سننشرها ، وقد قبل عرضكم هذا بكل سرور، وإني أقدم لكم شكر الجمعية ... »

وقد اعترضت هذه الجمعية صعوبات كثيرة ،ففي عهدها الأول(ما بين سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٤٢) قام نزاع شخصي بين رئيس الجمعية دكتور « فالن Dr. Walne » وسكرتيرها العام « دكتور م. أبوت Dr. M. Abbot »[1] ، وأدى هذا النزاع إلى انفصال بعض الأعضاء ،وتكوينهم جمعية جديدة أسموها الجمعية الأدبية : « Association Littéraire » ؛ يقول « برّون » في خطابه

(١) Lettres du Dr. perron. pp. 23, 76 - 77 .

(١) وهما طبيبان انجليزيان كانا في خدمة محمد علي باشا .

السابق : « وهذه الجمعية المنفصلة تضم نحو الستين عضواً ، وقد دفعوا رسم التأسيس ، وتنوي هذه الجمعية أن تعمل على النشر وخاصة النصوص الهيروغليفية ، وتحاول أيضاً إنشاء مكتبة .. »

أما الجمعية المصرية فقد انتهت حياتها إلى الإنحلال في عهد متأخر فضُمت مكتبتها إلى المكتبة الخديوية [دار الكتب المصرية الآن] في سنة ١٨٧٣ أو سنة ١٨٧٤ ؛ وذلك اتباعاً لأمر أعضائها الأخيرين وهم : « حككيان بك Hekekian Bey » و«مسيو توبورن M. Thuborn » و«كاني بكCany Bey»

٣ — ولم يقنع « برُّون » باتصاله بأنداده العلماء الأوروبيين المقيمين في مصر لأنه كان معنياً بالبحث في الكتب العربية ، وترجمتها والكتابة عن موضوعات مختلفة من تاريخ الشرق ؛ وقد أتى مصر وعربيته ضعيفة — دون شك — فعمل على أن يزيد معرفته بهذه اللغة ، وقد كان في مدرسة الطب المصرية التي يدرس فيها هيئات مختلفة تعمل مشتركة لترجمة الكتب الطبية إلى اللغة العربية ،أهمها هيئة المترجمين، وهيئة المحررين والمصححين؛وأعضاء الهيئة الأخيرة كلهم من خيرة مشايخ الأزهر المعروف عنهم الدقة في البحث،والشغف بالقراءة فكان منهم في مدرستي الطب البشري، والطب البيطري : الشيخ محمد عمر التونسي ، والشيخ ابراهيم الدسوقي [(١)] ، والشيخ محمد الهراوي ، والشيخ سالم عوض القنياتي ، والشيخ مصطفى كساب .. الخ

وقد اتصل « برُّون » بهؤلاء المشايخ ، وافاد منهم ؛ غير أننا نحب أن نعرض لرأي « برُّون » في علماء مصر وقتذاك قبل أن نتحدث عن علاقته بهؤلاء المشايخ المحررين .

---

(١) اتصل الشيخ الدسوقي بالمستشرق الانجليزي « مستر لين M. Lane. » وعملا معاً على مراجعة القاموس المحيط مع شرحه تاج العروس الذي ترجمه « لين » فيما بعد ، وطبع في لندن سنة ١٨٦٣ تحت اسم : Arabic English Lexicon انظر مقدمة هذا القاموس ، وانظر أيضاً علي مبارك باشا ، الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٩ — ١٣ ، المقالين الممتعين اللذين كتبهما الاستاذ أحمد أمين بك عن العلاقة بين الرجلين في الثقافة عددي : ١٢٦ و ١٢٧

ورأي « برّون » في علماء مصر في ذلك العصر صحيح — رغم قسوته[1] ومرارته — فقد ظلت مصر طوال العصر المملوكي العثماني تعيش في جهــــل مطبق ، وغدا علماء مصر لا يعنون إلا بالدراسات الشكلية في الدين واللغة ؛ وعندما بدأ محمد علي نهضته التعليمية بقي شيوخ الأزهر — إلا من اتصل منهم بالمدارس للتتلمذ او للتحرير والتصحيح — بعيدين عنهـــا ، بل ساء رأيهم في خريجي المدارس والبعثات ، وكانوا يسخرون من المصريين الذين تعلمــوا في أوروبا ، ويقولون انهم تعلموا تعلما سطحياً ،وهم كالطائر الذي يحجل ويتهادى

---

(١) رأي « برون » فيا يلي قاس مرير ، ولكنه لا يبلغ في القسوة والمرارة ما بلغه وصف الجبرتي لحالة العلم والعلماء في مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، فانه يروي أن أحمد باشا الوالي التركي الذي ولي مصر في سنة ١١٦٣ هـ (١٧٤٩ م) كان من المحبين للعلوم الرياضية المشتغلين بها ، فلما أتى الى مصر قرب اليه جماعة من أشياخها وخاصة الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر ، وفي يوم دار بين الرجلين الحديث الآتي : « فقـــال له الباشا : المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وكنت في غاية الشوق الى المجيء اليها فلما جئتها وجدتها كما قيل : « تسمع بالمعيدي خير من أن تراه » فقال له الشيخ : « هي يا مولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف » ؛ فقال ؛ وأين هي ؟ وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبي من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ، ونبذتم المقاصد ، فقال له نحن لسنا أعظم علمائها ، وانما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام ، وغالب أهـل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضيـة الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض والمواريث » الخ ... الخ ، وطال الحديث بـين الرجلين الى أن قال الشيخ ، وهذه العلوم تحتاج الى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ، كرقة الطبيعة وحسن الوضع ، والخط والرسم ، والتشكيل ، والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء ، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك...الخ» ؛ ثم دله الشيخ على الشيخ حسن الجبرتي والد المؤرخ وكان من المشتغلين بهذه العلوم فاستدعاه الباشا وقربه اليه « ولازم المطالعة عليه مدة ولايته ، وكان يقول : لو لم أغنم من مصر الا اجتماعي بهذا الأستاذ لكفاني .. » ، ويختم الجبرتي هذه القصة بقوله : « وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوي كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول له : « سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا ، فانه لولا وجودك كنا جميعاً عنده حميراً . . » انظر الجبرتي ، عجائب الآثـــار ، القاهرة سنة ١٣٢٢ ج ١ ، ص ١٩٣ — ١٩٤ .

في مشيته دون أن يحسن الطير »[1] .

ومن العجيب أن نعرف أن دكتور « برُون » هو أول من فكر في طبع القاموس[2] المحيط للفيروزابادي في مصر ، وقد تحدث عن مشروعه هذا في خطابه المرسل من القاهرة في ١٤ يناير سنة ١٨٤٥ ، وفيه ايضاً يبدي رأيه في علماء الأزهر فيقول : « أظن ان هذا المشروع مفيد ، لا للأجانب المشتغلين باللغة العربية فحسب ، وإنما للمسلمين أيضاً ، فهذا القاموس سيساعد عدداً كبيراً من العلماء على البحث ، او على الأقل على القراءة ، فهؤلاء العلماء ليسوا علماء الا بالاسم فقط ، فهم في غاية الكسل والجهل ، وهم لا يعرفون أسماء أبسط الكتب ، ومع ذلك فهم يحسبون انهم يعرفون كل شيء ... وليس فيهم من يؤلف ، بل لا نجد أحداً في الشرق يستطيع ان يؤلف كتباً .. فهؤلاء العلماء يدرسون الفقه وعلوم اللغة وأكثرهم علماً يدرسون المنطق ... والتوحيد ... وأذكى العلماء ينظمون الشعر ، وأي شعر !... وهم كذلك يحبون الزجل حباً جماً ، فهو عندهم منتهى الفن ؛ ومن لم ينشىء زجلا لا يكون قد فعل شيئاً.

---

(١) Enc. Isl. Art : Azhar .

(٢) تحدث « برون » كثيراً في خطاباته عن مشروع طبع القاموس ، وذكر أنه أعد للمراجعة نسخاً كثيرة مخطوطة والنسخة التي طبعت في كلكتا سنة ١٢٣٠ - ١٢٣٢ هـ ، وأنه اتفق مع الشيخ التونسي على مراجعة النسخ وتصحيحها أثناء الطبع ، وأنه طلب من محمد علي باشا أن يأذن له بطبعه في مطبعة بولاق ؛ انظر : Enc. Isl. Art : Gomard, Tunisi في مقدمته لكتاب Voyage au Darfour, p. 10 . غير أنني رجعت لأقدم نسخة من القاموس طبعت في بولاق ، فوجدت أنها نشرت في جزأين بإشراف وتصحيح ، الشيخين : محمد قطة العدوى ، وأبو الوفا نصر الهوريني وذلك في سنة ١٢٧٢ هـ (١٨٥٦) بأمر محمد سعيد باشا ، انظر هذه الطبعة من القاموس ج ١ ص ٦٨٠ و ج ٢ ص ٦٨٥ ؛ وقد طبع بعد ذلك طبعات أخرى في مصر في : ١٢٨٩ و ١٣١٩ ؛ انظر : سركيس ، معجم المطبوعات العربية والمعربة ، عموداً ، ١٤٧٠ ، ١٤٧١ ؛ هذا وليس في المراجع التي أفدت منها ما يبين الأسباب التي عاقت « برون » والتونسي عن تنفيذ مشروعها ، وجعلت تنفيذه على يد الشيخ نصر الهوريني ،

وتكون مخطئاً إذ حسبت ان القاموس يوجد عند العلماء ، فليس هناك في القاهرة ولا في مصر كلهـــا عشرة علماء يملكون هذا القاموس ... » ويختم « برّون » حديثه بجملة فيها تهكم مرير فيقول : « فلنعط إذن قاموساً للعلماء Donnons donc un dictionnaire aux Ulémas[٢] .

وفي خطابه المؤرخ ٩ يناير سنة ١٨٤٠ تحدث « برّون » عن وفاة شيخ الازهر فقال : « لقد توفي شيخ الاسلام ، وعين مكانه خلفه الشيخ الصائم[٢] ، وهو سيد فقير في علمه ، ولكنه في الحقيقة غني في ماله » .

عالمان فقط من علماء مصر الذين اتصل بهم « برّون » حازا اعجابه ، وتتلمذ عليهما ، وأشار اليهما في خطاباته بالإعجاب ، واعترف لهما بالاستاذية ، فقد أعاناه وساعداه في بحوثه ، وترجماته العلمية المختلفة ، هذان هما : الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي ، والشيخ محمد عمر التونسي .

---

(٢) Lettres du Dr. Perron. p: 29, 90 – 92 .

(٢) المرجع السابق ص ١٥ و ٦٤ ؛ وقـــد ورد اسم الشيخ الجديد في هذا الكتاب بهذا الرسم « le Cheikh El Waim » ولعل « برون » أخطأ في كتابة الأسم ، أو لعل أرتين باشا أخطأ في نقله عند طبع الرسائل ، وصحتـــه : الشيخ أحمد عبد الجواد الصائم وقد ولي مشيخة الأزهر بعد الشيخ حسن القويسني (ت ١٢٥٤ – ١٨٣٨) ؛ انظر : سليمان رصد ، كنز الجوهر في تـاريخ الأزهر ، القاهرة ١٢٣٠ ، ص ١٤١ – ١٤٣ و Enc. Isl. Art : Azhar .

الشيخ محمد عياد الطنطاوي

هو الشيخ محمد بن سعيد[1] بن سليمان بن عياد المرحومي الطندتائي الشافعي، ولد سنة ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) في نجريد ، وهي قرية صغيرة قريبة من طنطا، وتوفي في ٢٣ ربيع الثاني سنة ١٢٧٨ (٢٩ اكتوبر سنة ١٨٦١) في « سانت بطرسبرج » .

كان ابوه تاجراً متنقلاً من سكان محلة مرحوم، ولما بلغ محمد عياد السادسة من عمره التحق بمكتب في طنطا حيث تلقى علومه الاولى ، فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره سافر الى القاهرة فأقام مع عمه ، والتحق بالأزهر فدرس على الشيخ ابراهيم الباجوري (ت ١٢٧٦) ، والشيخ حسن العطار (ت ١٢٥٠) والشيخ إبراهيم السقا (ت ١٢٩٨) ، وغيرهم ؛ ونبغ من زملائه في عهد التلمذة نفر كثيرون أهمهم : رفاعة الطهطاوي زعيم النهضة العلمية في مصر في عهد محمد علي ، والشيخ ابراهيم الدسوقي احد محرري الكتب المترجمة ومصححيها في ذلك العصر ، واستاذ المستشرق الكبير « مستر لين M. Lane » .

---

(١) ذكر في بعض مؤلفات الطنطاوي أن اسمه « محمد بن سعد » لا سعيد ، انظر كتابيه : حاشية على متن الكافي في علمي العروض والقوافي ، مخطوط ، مكتبة البلدية رقم ٥٠٢٠ ج ، وحاشية على شرح الأزهرية ، مخطوطة ، مكتبة البلدية بالاسكندرية ، رقم ٤٩٧٨ ج .

وقد اضطر الشيخ محمد عياد أن يعود إلى طنطا بعد وفاة ابيه ، وأن يقيم بها مدة تقرب من العامين (١٢٤٣ — ١٢٤٥ = ١٨٢٧ — ١٨٢٩) ، وهناك أكمل دراسته ، وبدأ يلقي بعض الدروس ، ثم عاد إلى القاهرة حيث تولى منصباً من مناصب التدريس في الجامع الازهر فكان من شيوخ الطليعة الذين اتجهوا لتدريس[1] الأدب والشعر ، ولعله كان متأثراً في ذلك بروح استاذه الشيخ العطار

وقد تتلمذ عليه في تلك الفترة نفر من المستشرقين المقيمين في مصر ، أو الوافدين عليها ، منهم : دكتور « برون » و « فرسنل[2] » و « ج . فيل C . Weil » و«دكتور برنر Dr . Pruner » و « ر. فراهن R.Frahn[3] ».

وقد أشاد « فراهن » بذكر الشيخ الطنطاوي في روسيا ، فدعته نظارة خارجيتها ليدرّس اللغة العربيـــة في معهد اللغات الشرقية «Institut des Langues orientales » في « سانت بطرسبرج » . وكان الوسيط بين نظارة الخارجية والشيخ لاقناعه بالسفر « الخواجة بُكتي » ترجمان القنصلية الروسية

(١) كانت دروسه في الأدب تعنى بقراءة مقامات الحريري وشرحها ، وديوان الحماسة انظر: أدمز ، الاسلام والتجديد في مصر ص ٢٩ ترجمة عباس محمود ؛ .Voyage au Darfour Trad, Française par Perron, p. 451. و Enc. Isl. Art : Tantawi . وقد ذكر فولرز في هذه المادة أن الطنطاوي اختير في ذلــك الوقت للتدريس في مدرسة انجليزية بالقاهرة ، ولعل هذه هي المدرسة التي كانت تديرها الارسالية الانجليكانيـة ، وكانت ذات ثلاث شعب ، شعبة تعد الشبان الأقباط ليكونوا قسساً ، وشعبة لتعليم البنين ، وشعبة لتعليم البنات ، وقد أنشئت هذه المدرسة حوالي سنة ١٨٣٥ ، انظر تفصيل الحديث عنها في Bowring Report on Egypt and Candia, pp. 137 – 138 ; Sophia poole, The English womon in Egypt, Lon. 1842 – 44. pp. 4a – 41 .

(٢) هو صديق حميم للدكتور « برون » وهو أول من عرف علماء أوروبا بالشيخ الطنطاوي انظر J. A. 3rd ser. V, 1828 . وقد كان أيضاً صلة التعارف بين الشيخ الدسوقي و«مسترلين»

(٣) كان أبوه اول مدير للمتحف الآسيوي في سانت بطرسبرج .

بالقاهرة[١] « Agent Consulaire » .

ولم تحدد المراجع التي كتبت عنه السنة التي سافر فيها الى الروسيا ، غير انه من المرجح انه وصل الى الروسيا في سنة ١٢٥٦ هـ (١٨٤٠ م)، ويؤيدنا في هذا الظن شاهدان :

١ — الأول نسخة من سقط الزند[٢] كتبها بخط يده ، وذكر في ختامها انه نسخها في سنة ١٢٥٦ هـ وهو في الحجر الصحي بالقسطنطينية .

٢ — الثاني : رسائل كتبها في سنة ١٢٥٧ هـ الى بعض اصدقائه في مصر،

---

(١) انظر : أحمد تيمور باشا ؛ الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مقال نشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، عدد أيلول سنة ١٩٢٤ ج ٩ ، م ٤ ، ص ٣٩٠ ؛ وكراتشكوفسكي Kratschkovsky ، مقال بنفس العنوان في نفس المرجع ، عدد كانون الأول سنة ١٩٢٤ ، ج ١٢ ، م ٤ ، ص ٤٩٤ . هذا وأسرة « بكتي Bokty » من أقدم الأسر السورية المشهورة ، نزح أفراد كثيرون منها الى مصر في القرن الثامن عشر ، وقد أهلتهم معرفتهم باللغات الأوروبية الى تولي مراكز القنصلية للدول الأوروبية في القاهرة ، انظر : الخوري بولس قرألي ، السوريون في مصر ، ح ١ ، ق ١ ، ص ١٢٠ ، ١٠٨ حيث يذكر أن جد هذه الأسرة « أبو جبران » وفد على مصر، وتوفي بها سنة ١٧٦٢ ، وهو في سن الثمانين ، وقد نبغ من هذه الأسرة في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر رجلان ، أولهما « بطرس بكتي » وهو المذكور في هذا المقال ، وكان قنصلا للروسيا في القاهرة ، وقد تولى اقناع الطنطاوي بالسفر الى الروسيا ، وثانيهما « يوسف بكتي » وكان قنصلا للسويد في القاهرة وبإيعازه ومساعدته أرسلت أول بعثة علمية مصرية الى ايطاليا في عصر محمد علي في سنة ١٨٠٩ ومنها نبغ عثمان نور الدين باشا فيما بعد ، انظر تفصيلات أكثر في : قسطنطين الباشا ، محاضرة في تاريخ طائفة الروم الكاثوليك في مصر ، لبنان ، ١٩٣٠ ، ص ١٨ ، ٤٣ ، وشيخو ، الآداب العربية في القرن ١٩، ج ١ ، ص ٨٢ ، Cattaui, Le Règne de M,ed Aly d'après les Archives Russes. t. I وانظر أيضاً بحثنا عن « الترجمة في عصر محمد علي » .

(٢) كانت لدى الشيخ الطنطاوي مكتبة كبيرة فيها عدد كثير من المخطوطات ومعظمها بخط يده وبعضها من تاليفه ، وقد ضمت هذه الكتب بعد وفاته الى مكتبة الجامعة في روسيا ، ولا تزال محفوظة فيها حتى الآن ، ومن بينها هذه النسخة من سقط الزند تحت رقم ٨٣٧ ، انظر : C. Salemann, and V. Rosen, Indices alphabetici codicum manus—criptorum persicorum turcicorum arabicorum qui in Bibliotheca Imperialis Litterarum Universitatis petropolitanae adservantur . St. peteraburg .

ورسائل اخرى وردت اليه في نفس السنة من مصر لتعرف احواله بعد سفره الى روسيا ، وقد وردت هذه الرسائل في كتاب للطنطاوي اسمـــه «احسن النخب في معرفة لسان العرب » وهو كتاب في اللغة العامية المصرية ألفه بعد وصوله الى روسيا ، وطبـع في « ليبسك » سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٤٨) .

وقد ذكر على الصفحة الاولى من هذا الكتاب ما يلي : « للشيخ محمد عياد الطنطاوي معلم العربي في مدرسة الألسن الشرقية ، والمـــدرسة الكبيرة الامبراطورية ببتربورج المحمية » .

وفاتحة الكتاب قصيدة من نظمه موضوعها : « تاريخ ولادة الامير الكبير شاه زاده نقوله الكسندوفيج » ، ومطلعها :

بعث الهنا نحو السرور رسوله يقرى عليه سلامه ووصوله

وختمها بقوله مؤرخاً :

ادعو الإله مهنئـــاً ومؤرخاً للروسيا رغد بطلع نقو َله

٣٣٧ ١٢٠٤ ١١١ ١٩١

١٨٤٣

وأطرف هذه الرسائل رسالة كتبها الطنطاوي لزميله وصديقه رفاعة بك الطهطاوي وصف فيها بعض ما شاهده في الروسيا بعيد وصوله :«وأنا شغوف بكيفيـــة معيشة الاوروبيين ، وانبساطهم، وحسن إدارتهم ، وترتيبهم ، وتربيتهم ، خصوصاً ريفهم وبيوته المحدقة بالبساتين والأنهار ، الى غير ذلك مما شاهدته قبلي بمدة في باريس ، إذ « بتربورغ » لا تنقص عن « باريز[1] » في ذلك ، بل تفضلها في اشياء كاتساع الطرق ، وأما من قبل البرد فلم يضرني جداً ، إنما ألزمني ربط منديل في العنق ، ولبس فروة اذا خرجت ، وأما

(١) لم يسافر الطنطاوي الى باريس ، ولكن هذه المقارنـــة تدل دلالة واضحة على أنه قرأ رحلة صديقه رفاعة « تخليص الأبريز في تلخيص باريز » .



الشيخ محمد عياد الطنطاوي (١٢٢٥ - ١٢٧٨هـ، ١٨١٠ - ١٨٦١ م)

في البيت فالمداخن المتينة معدة لإدفاء الأرض ، وطالما أنشدت عند جلوسي بقرب النار :

النار فاكهة الشتاء فمن يرد　　　اكل الفواكه في الشتا فليصطلِ

وتذكرت قول الأعرابي في يوم بارد :

فإن كنت يوماً مدخلي في جهنم　　　ففي مثل هذا اليوم طـــابت جهنم

وفي سنة ١٢٦٥ (١٨٤٨) عين الطنطاوي استاذاً فوق العادة في الجامعة الروسية ، وفي سنة ١٢٧١ هـ (١٨٥٤) عين استاذاً عاديا ، واختير العالم الروسي « نفروتسكي » ليكون مساعداً له .

ومن أنبغ تلاميذه هناك في الفترة بين ١٨٤٠ و١٨٤٢ المستشرق الفنلندي « ج . ا . [١] فالين G . A . Wallin » الذي غدا فيما بعد استاذاً في جامعة Helsingfors وظل يراسل استاذه حتى مات .

تاريخ وفاته :

لم يُعنَ احد بتتبع أخبار الطنطاوي بعد ان طالت مدة إقامته في روسيا ولهذا اختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاته ، فالعـــالم الفرنسي « هيوار Huart » [٢] يذكر انه توفي سنة ١٨٧١ويوافقه في ذلك الأب لويس [٣] شيخو

---

(١) ارتحل هذا العالم في حياته الى بلاد العرب ومصر وسوريا ، ومكث بها سنوات يحمل اسم « عبد الولي » وقد تبودلت الرسائل بينه وبين استاذه الطنطاوي مدة ما ، وطبع « فالن » بعض هذه الرسائل مترجماً الى اللغة الأسوجية ، ويوجد البعض الآخر في مكتبة الجامعـــة في Helsingfors عاصمة فنلندا .

(٢) Huart, Histoire de la Litterature Arabe, Paris, 1903 P. 420.

(٣) شيخو ، الآداب العربية في القرن التـــاسع عشر ؛ بيروت ١٩٠٨ — ١٩١٠ ، ج ٢ ، ص ٥٩ .

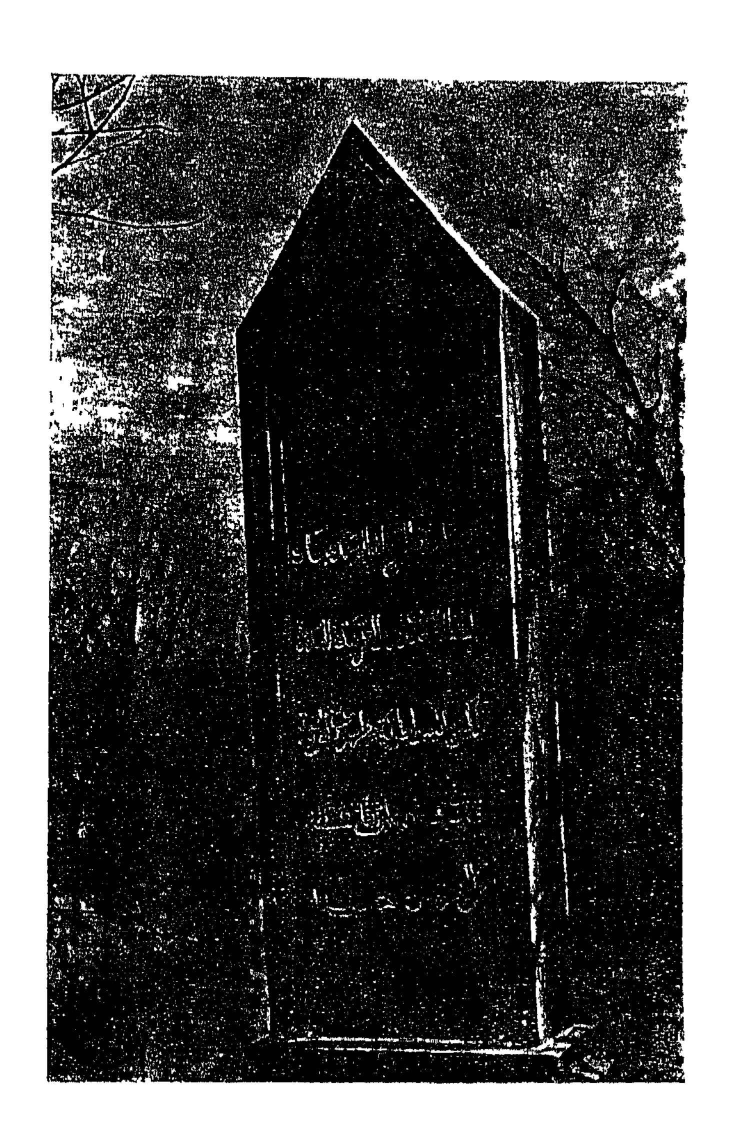
و« بروكلمان » ؛ وذكر أمين فكري[1] باشا في كتابه عن رحلته الى مؤتمر استكهلم الذي سماه : « إرشاد الألبا الى محاسن اوروبا » انه توفي سنة ١٨٦٢ فقد روى انه تقابل في المؤتمر مع المستشرق الروسي يوسف كوتوال (غوتوالد) وكان قد بلغ الثمانين من عمره ، وذكر انه ارتبط بوالده عبد الله فكري باشا برابطة الود والصداقة فيكثر اجتماعهما أحدهما بالآخر ، وقال ان والده سأل الاستاذ « غوتوالد » مرة « عن الشيخ محمد عياد الطنطاوي من اعاظم علماء الازهر المتبحرين في علوم الأدب صاحب التآليف العديدة ، والشعر الرقيق ، وكان توجه إلى بلاد الروسية ، وأقام بها ، هـــل هو حي او ميت ، وهل أعقب ذرية أو لم يعقب ، فأخبره الشيخ « كوتوال » كما قيدته وقتذاك في ورقة محفوظة عندي ان الشيخ محمداً كان بالمدرسة الكبرى ، وبديوان الخارجية بسان بطرسبرج معظماً غاية التعظيم ، محترماً الى النهاية ، مرتباً له معاش عظيم ، وكان له ولد وزوجة ، وانه مـــات في سنة ١٨٦٢ على ما يتذكر ، وماتت بعده زوجته ، وكانت من مصر ، علوية ، وبعدها توفي ولده وكان اسمه احمد على ما يظن ، وأن الشيخ محمداً الموما إليـه دفن في « بطرسبرج » حيث قبور المسلمين بها ، وقبره معلوم هناك ، وكذلك قبر زوجته وابنه ... »

والتاريخ الذي أورده أمين فكري باشا اقرب الى الصحة فإن المستشرق الروسي المعاصر « إغناطيوس كراتشقوفسكي »[2] أثبت بعد تحقيق ان الشيخ الطنطاوي توفي في ٢٩ اكتوبر سنة ١٨٦١ ، كما ذكر ان قبره لا زال موجوداً في المنطقة التترية في « لينينجراد » وعليه كتابة روسية وعربية .

---

(١) ارشاد الألبا ، مطبعة المقتطف سنة ١٨٩٢ ، ص ٦٠٩ — ٦١٠ .

(٢) أنظر : كراتشقوفسكي ، Ens. Isl. Art : Tantawi ومقاله السابق الذكر في مجلة المجمع العلمي العربي ص ٥٦٣ .



رخامة على ضريح الشيخ محمد عياد الطنطاوي
في مقبرة فولكوفو الاسلامية في لينينغراد

الشيخ محمد عمر التونسي :

هو محمد بن عمر بن سليمان التونسي اصلاً ومولداً ، ولد بتونس في الساعة الثالثة من يوم الجمعة منتصف ذي القعدة سنة ١٢٠٤ هـ (٢٧يوليو سنة ١٧٨٩) وأمه مصرية ، حملت به في مصر أيام مجاورة أبيه بالأزهر لطلب العلم .

أسرته :

كان جده سليمان من عظماء أهل تونس وأثريائها ، وقد أعقب ثلاثة بنين أوسطهم عمر والد صاحب الترجمة ،وكان سليمان من المشتغلين بالعلم حسن الخط ، ينسخ الكتاب فيبيعه بضعف ما يبيع به غيره ، وكان الى ذلك عارفاً بفن صباغة الثياب ، فكان لهذا « أرفه إخوته معاشاً ، وأحسنهم ارتياشاً ».

سافر الى الحجاز للزيارة والتجارة فغرقت سفينته في البحر الأبيض المتوسط ونجا هو مع نفر قليل فبقي في رودس مدة ينفق من « هميان » كان في وسطه به بعض الذهب ، ثم ركب البحر ثانية الى الاسكندرية ، ومضى الى الحجاز فأدى الفريضة ، وخرج عائداً الى جدة ، فاجتمع هناك بأناس من سنار فنشأت بينه وبينهم محبة وصداقة ، وعاد معهم الى بلادهم فقدموه الى ملكهم وأخبروه أنه رجل من أهل العلم غريب الديار انكسرت سفينته وضاع ماله ، فرحب به ، وأكرمه ، وانزله داراً خاصة ، وأجرى عليه رزقاً .

واستقر سليمان في سنار ، وخلّف أولاده الثلاثة في تونس ،وكان اوسطهم — وهو عمر والد صاحب الترجمة — في السادسة من عمره ، فكفلهم خالهم السيد أحمد ابن العلامة الرحالة السيد سليمان الأزهري .

تلقى عمر بعض العلوم على خاله ، وعلى غيره من العلماء ، وحفظ القرآن ، ولما بلغ مبلغ الرجال أراد الخروج للحج فخرج بصحبة خاله ،وركبا البحر من تونس الى الاسكندرية ، ثم ذهبا الى القاهرة ، ومنها الى القصير ، يقول الشيخ

محمد عمر التونسي في ترجمته لنفسه : «وبينا هما في القافلة إذ ناداهما مناد: «أيها المغاربة .. » ، فقال أبي : « نعم – من أنت ؟ » فقال : « أنا نسيب أحمد ابن سليمان » ، فعرفه خال أبي ؛ وقال لأبي : « يا عمر : سلّم على أبيك » فاكب والدي يسلم على أبيه ويقبل يده ، ثم سلم جدي على نسيبه »[1].

وواصل عمر السير مع خاله لاداء فريضة الحج ، وذهب سليمان الى القاهرة ، وتواعدا على المقابلة هناك ، فلما عاد عمر وجد اباه قد باع تجارته ورجع الى سنار .

وكان خال عمر قد توفي في مكة ، فأقام في القاهرة يطلب العلم في الأزهر ، ثم ارتحل بعد قليل الى سنار باحثاً عن ابيه فوجده يحيا هناك حياة هنيئة ، وحوله أولاده من زوجة سنارية .

وطلب عمر من أبيه العودة معه الى تونس فرفض ، فعاد هو يدفعه شوقه لإتمام دراسته ، وزوده أبوه بثلاثة جمال – على أحدها حمل صمغ وأربع جوارٍ ، وعبدان ؛ وسار عمر مع القافلة التي ضلت الطريق ، وأصاب افرادها العطش ، فمات الرقيق ، ونفقت الجمال ، وعاد عمر فقيرا كما ذهب ، ولكن حدث في الطريق أن أصيب دليل القافلة وهاديها بصداع منعه النوم ، فكتب له عمر ورقة وضعها على محل الألم فبرىء الرجل لوقته ، فاعتقد في عمر الصلاح ، ووهبه عدل صمغ ، فلما وصل الى مصر باع الصمغ « بخمسة وسبعين فندقليا[2] » .

واشتغل عمر ثانية بطلب العلم في الأزهر ، وتزوج من والدة الشيخ محمد صاحب الترجمة ثم ارتحل الى تونس ومعه زوجته ، وهناك وُلد له محمد بعد خمسة أشهر .

وفي سنة ١٢٠٧ ﻫ (١٧٩٢ – ١٧٩٣م) عاد عمر إلى مصر لاتمام دراسته فحضر دروس الشيخ عرفة الدسوقي ، والشيخ محمد الامير الكبير ، وبعد قليل عُين نقيبا لرواق المغاربة .

---

(١) من ترجمة محمد عمر التونسي لنفسه ، ذكرها في كتابه « رحلة دارفور » ص ٣١–٣٢ ونقلها عنه علي مبارك باشا ، الخطط التوفيقية ، ج ١٧ ص ٣٦ .

(٢) التونسي ، تشحيذ الأذهان ، باريس ١٨٥٠ ، ص ٣٤

وفي سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٧ م) وصله خطاب من أخيه لأبيه بسنار ينعي اليه أباهما ، ويذكر أنه ترك « جملة كتب سرقت منا ، وبقينا بحالة تسر العدو ، وتسيء الصديق ، فعجل بالقدوم الينا لتأخذنا معك نعيش بما تعيش به . . »[١] .

وأسرع الشيخ بالسفر الى سناز ، وترك ابنه محمدا — وهو في السابعة من عمره — وطفلا آخر في الرابعة من عمره ، يقول الشيخ محمد في ترجمته لنفسه : «وترك لنا نفقة ستة أشهر فمكثنا سنة باعت فيها والدتي أشياء كثيرة من نحاس وحلى » ، ثم جاء عمه الصغير ، واسمه « الطاهر » حاجا وتاجرا ، فضمهما اليه ، وتولى الاشراف عليهما ، غير أنه لم يلبث أن غادر مصر إلى بلاد الحجاز لأن ابنه الصغير توفي في مصر فلم يطق البقاء بها من بعده .

صاحب الترجمة

وظل محمد يطلب العلم في الأزهر حتى ضاقت ذات يده ، ثم سمع بقيام قافلة إلى دارفور — وكان قد سمع بانتقال والده وعمه اليها — فصحبها ، ورحلوا من الفسطاط في النيل حتى وصلوا منفلوط ثم بنى عدى ، وهناك تأهبت القافلة وتزودت ، ومن بنى عدى سارت براً إلى الواحات الخارجة ، ثم اتجهت جنوبا حتى وصلت إلى دارفور ، وفيها التقى محمد بعمه وأبيه في بلدة اسمها «حلة جولتو» يقول الشيخ محمد :- « وبعد ان اقمت عند والدي ثلاثة ايام جهزني انا وعمي الى الأعتاب السلطانية بهدايا من عنده إلى حضرة السلطان[٢] ووزيره الاعظم فركبنا من « أبي الجدول » إلى « تندلتي » وهو مقر السلطان ، في أول شعبان سنة ١٢١٨ ، ويسمى ذلك البلد بلغتهم « الفاشر » ، وكل محل سكنه السلطان

(١) التونسي ، تشحيذ الأذهان ، ص ٣٦ ؛ علي مبارك ، المرجع السابق ج ٧ ص ٣٦ ، وأنظر أيضاً Enc. Isl. Art: Tunisi

(٢) كان عمر قد حظى ، ونال مركزاً ممتازاً عند سلطان دارفور وقتذاك عبد الرحمن بن أحمد (ت ١٢١٤ هـ — ١٧٩٩ م) ، وشرح بأمره كتابين في الفقه والشريعة ، انظر : رحلة دارفور ص ١٠٧ و ٤٢٤ ؛ Enc. Isl. Art : Tunisi

يسمى عندهم فاشراً ، فسافرنا يومين سفراً غير شطيط ، ودخلنا ضحوة الثالث فوجدنا بلداً يموج بالساكن ، ويرتج بالقاطن ، ما بين راكب وماش ، وجالس وغاش ، وطبول ترعد ، وخيول تركض، فحظينا هناك بنيل المأمول، وحلت هديتنا محل القبول ، ودعاني الوزير الشيخ محمد كرا ، وكساني كشميراً أخضر وجبة خضرا ، وقفطاناً من القطن الهندي ، وأمر لي بجاريتين وعبد ، وكتب لأبي كتابا صورته : « من حضرة من أكرمه الكريم ، ولا يفارقه الخير والنعيم، الوزير الأعظم المتوكل على من يسمع ويرى ، الأب الشيخ محمد كرا ، الى حضرة الأستاذ الأعظم ، والملاذ الأفخم ، علامة الزمان ، ونخبة سلالة سيد ولد عدنان، السيد الشريف عمر التونسي دام مجده، آمين. أما بعد فإنه قد حضر لدينا نجلكم المكرم، صحبة أخيكم المحترم المعظم، بما أهديتموه لنا حسبما هو مشروح في جوابكم ؛ ففرحنا غاية الفرح بأمرين : الأول ، اجتماع شملك بقرة عينك ، والثاني أننا نؤمل إقامتك في بلدنا ، وهذا هو المقصود الأعظم لتحصل لنا أكبر البركة بكم أهل البيت ، وقد أتحفناه بما صحبه ، ونرجو أن يكون مقبولا لديكم ، ولولا ما نحن فيه من الأشغال لكان الأمر أبلغ من ذلك ، فالمعذرة اليك ، والأمل ألا تنساني من صالح دعواتك ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. » [1]

وعاد محمد إلى والده ، فأقاما معاً شهر رمضان ، ثم سافر إلى الفاشر ، وودع الوزير محمداً كرا ، واستأذنه في السفر الى تونس على أن يترك ابنه محمداً ليدير أملاكه هناك ، ويجمع خراجها .

وقد أقام الشيخ محمد مدة في السودان ، نعم فيها ، وطاف بأرجاء البلاد ونواحيها ، ووصف ما رأى من هذه البلاد ، وعادات أهليها في كتابه : «رحلة دارفور» أو كما سماه : «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان»،

---

(١) تشحيذ الأذهان ، ص ٦٠ – ٦١ ، علي مبارك ، المرجع السابق ، ج ١٧ ص ٣٤ – ٣٥ .

ثم عاد إلى مصر « وقد فقدت أمواله وتحولت أحواله » [1] .

وأقبل ثانية على طلب العلم ، ودخل في خدمة مجدد مصر محمد علي باشا ، وكانت أول خدمته كما يقول : « بوظيفة واعظ في الآلاي[2] الثامن من المشاة ، وسافرت معه (أي مع ابراهيم باشا) الى المورة ... ثم استخدمت في مدرسة أبي زعبل لتصحيح الكتب الطبية ، وخصصت منها بتصحيح كتب الأجزأجية ، ومكثت على ذلك حتى اجتمعت بأبرع أهل زمانه حذاقة وفهماً ، وأذكى أهل عصره صناعة وعلماً ، معلم الكيمياء الحكيم « برُون » الفرنساوي ، وقد قرأ عليّ كتابه كليلة ودمنة باللغة العربية ؛ فذكرت له بعض ما عانيته في أسفاري من العجائب ، فحملني على أن أزين وجه الدفتر بإيضاح ما شاهدته ، فامتثلت أمره لما له عليّ من اليد البيضاء ، ورأيت أن ذلك أجمل بي أيضاً ، لقول صاحب المقصورة .

وإنمـــا المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى »[3]

وفي السنوات الأخيرة من حياته اشتغل التونسي بالتدريس ، فكان يلقي درساً في الحديث بمسجد السيدة زينب في يوم الجمعة من كل اسبوع ، وبقي على ذلك إلى أن توفي سنة ١٢٧٤ ﻫ (١٨٥٧ م) .

---

(١) علي مبارك ، المرجع السابق ج ١٧ ص ٣٦ .

(٢) باشرت السلطات المصرية إنشاء هذا الآلاي في أغسطس سنة ١٨٢٤ ، وعهدت بذلك الى المهندس الايطالي شيانطي قاسم أغا ، ولما حضر الى مصر الجنرال « بوابيه » الفرنسي تولى تدريبه ، وفي اوائل سنة ١٨٢٦ ألحق هذا الآلاي بجيش المورة ، وفي أواخر عـــام ١٨٣١ أرسل الى الشام ... الخ أنظر الشيء الكثير عن تاريخ هـــذا الآلاي في : الممهدات لتاريخ الجيش المصري في عهد محمد علي باشـــا ، صفحة من تاريخ الآلاي المشاة الثامن ، للاستاذين الدكتور أسد رستم والبكباشي عبد الرحمن زكي ، مطبوعـــات المتحف الحربي ، بولاق ١٣٦٢ - ١٩٤٣ .

(٣) التونسي ، تشحذ الأذهان، ص ٥ - ٦ ؛ علي مبارك ، المرجع السابق ج ١٧ ص ٣٧

هذا كتاب تشحيذ الأذهان
بسيرة بلاد العرب والسودان
لمؤلفه الأخ الصديق
محمد بن السيد
عمر التونسي
ابن سليمان
عفا
عنه
آمين

الصفحة الاولى من كتاب « تشحيذ الأذهان »
وهي بخط الدكتور « برون »

هذا موجز عن حياة الشيخين اللذين تتلمذ عليهما « برُّون » واستمان بهما في أعماله وبحوثه العلمية ، فهو إذا ذكر أولهما في أي من خطاباته قال دائماً : « شيخنا محمـــد عياد [1] Notre Schaykh Mohammed Ayyad » ، بل أنه يصفه بالجرأة والشجاعة إذا ذكره بعد سفره إلى الروسيا ؛ فيقول : « شيخنا الشجاع عياد شيخي وشيخ فرسنل القديم : Notre brave Cheikh Aiad, l'ancien Cheikh de M. Fresnel et de moi » [2]

وقد كتب مرة لصديقه « مول » يعده بإرسال مقال له عن التعليم في مصر ، ثم يعتذر اليه عن تأخيره ، ولا ينتظر حتى يعود إلى القـاهرة ، فهو محتاج إلى شيخه محمد عياد ليمده بالمعلومات عن نظام التعليم في المساجد [3] ، وعن اتجاه هذا التعليم ، والفوائد التي يظن أنها سوف تجني منه في المستقبل .

وفي مرة اخرى ذكر « برُّون » لصديقه « مول » أنه مرسل إليه بحثاً صغيراً مكتوباً بالعربية ، ومترجماً إلى الفرنسية عن أسماء الأعـــلام العربية - أصولها واشتقاقاتها - ، ثم ذكر له أن هذا البحث كان قد كتبه له أستاذه الشيخ محمد عياد ، إجابة لطلبه [4]

وهو إذا ذكر التونسي ذكره بالتجلة والاحترام ، فهو يقول دائمـــاً : « شيخي القديم التونسي [5] Mon ancien Cheikh El. Tounsy » ، وقد بادله التونسي تقديراً بتقدير ، واحتراماً باحترام، فهو عنده « أبرع أهل زمانه

(١ و ٢ و ٣) Lettres du Dr, Perron. PP. 11. 47. 64. 113 . وأنظر أيضاً Perron, Lettre sur les éco les. etc. J. a. 1843. P, 9 حيث يقول عن استاذيه : « وأنا في الحقيقة لا أعرف بين الشيوخ في مصر من يقرأ التاريخ أوله المام به غير الشيخ التونسي مؤلف رحلة - السودان - والشيخ التميمي المغربي المعلم الخاص لأولاد ابراهيم باشا ، وكان هنا أيضاً عالم ممتاز ومثقف حقاً هو الشيخ محمد عياد الذي ارتحل الى « سانت بطرسبرج » منذ ثلاث سنوات حيث استدعاه الأمبراطور ، وحيث ينظر اليه نظرة تقدير واعتبار » .

(٤) Lettres du Dr. Perron. pp. 11, 47, 64, 113.

(٥) Op. Cit. pp. 89, 107.

حذاقة وفهماً ، وأذكى أهل عصره صناعة وعلماً ، معلم الكيمياء الحكيم بيرون الفرنساوي [١] » ، وهو « اللوذعي الأديب ، والماهر الطبيب اللبيب، أحذق أقرانه ، وأنبه إخوانه ، المعـلم بيرون الفرنساوي ، الحكيم النبيه الكيماوي ، ذو الذهن الوقاد ، والتعليم الذي كل تلميذ منه استفاد [٢] » ، وهو أيضاً : « المـاهر في جميع الفنون ، ناظر مدرسة الطب البشري الشهير بيرون [٣] » .

* * *

وبعد فهذا ثالوث عجيب من الرجال ، كلهم عاش في غير وطنه ، وكلهم وقف حياته وجهوده للعلم والتعليم ، فالدكتور « برُّون » فرنسي الأصـل ، طبيب ،رحل إلى مصر وخدم نهضتها الحديثة في عصر محمد علي أستاذاً وناظراً لمدرسة الطب ، وشغف حباً بلغة غير لغته ، فتعلمها وحذقها ، وترجم عنها واليها ؛ والطنطاوي مصري ، عالم ديني ، تخرج في الأزهر ، ورحل إلى « الروسيا »، وعاش وتوفي بها ،وتتلمذ عليه نفر كثير من المستشرقين في مصر وفي الروسيا ، تعلم الفرنسية وأتقنها وشغـل منصب الأستاذية في جامعة « بطرسبرج » ، وله مؤلفات كثيرة تنتظر من يعنى بها .

والتونسي من تونس — أصلا ومولداً — وإن كانت أمه مصرية ، أسرته عشقت الرحلة فعاش هو وأبوه وجده في مصر وبلاد العرب والسودان أكثر مما عاشوا في وطنهم الأصلي تونس ؛ وقد شارك التونسي مشاركة فعلية قيمة في حركة الترجمة والنشر التي ازدهرت في عصر محمد علي باشا .

جمعت بـين هذا الثالوث رابطة العلم القوية ، رغم ما كان بين افراده من

(١) أنظر رحلة دارفور للتونسي ، ص ٥ — ٦ ؛ وعلي مبارك ، الخطط التوفيقيـة ج ١٧ ، ص ٣٧.

(٢ و ٣) أنظر : برون ، الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية ، ٣ أجزاء كبار ، بولاق سنة ١٢٥٨ - ١٢٦٠ ، مقدمتنا الجزءين الأول والثاني .

اختلاف في الجنس والموطن واللغـــة والدين والثقافة ، فأفاد « برُّون » من شيخيه علم المشرق ولغته ، وأفاد الطنطاوي من تلميذه لغة الفرنج ، كما افاد التونسي منه طريقة الغربيين ومنهجهم في البحث العلمي .

* * *

جهود هذا الثالوث في التأليف والترجمة والنشر :

١ – دكتور برُّون :

1 - Les Femmes Arabes

وقد كتب «مول» تقديراً وتقريظاً لهذا الكتاب ، انظر J. Mohl,Vingt,, Sept ans d'Histoire d'études orientales . Paris , 1880 , t. ll , p. 283.

٢ – ترجمة مختصر سيدي خليل بن إسحـــاق عن الفقه المالكي في ثلاثة مجلدات نشره بين سنتي ١٨٤٦ و ١٨٥١ ، (ذكر شيخو ، ج ١ ص ١١٢أنه انتهى من طبعه سنة ١٨٥٤ ، وعلق عليه تعليقات واسعة) .

3 — Voyage au Darfour par le Cheikh Mohammed ibn Omar el Tounsy, Reviseur en chef à l'École de Medecine du Caire traduit de l'Arabe par Dr. Perron, Directeur de l'Ecole de Médecine du Caire, Paris, 1855.

وعدد صفحات الكتاب ٤٩٢ من القطـع الكبير ، وبه مصور جغرافي ، وكتب مقدمته Jomard (ص ١ -- ٧١) ، وقد طبعت هذه المقدمة على حدة تحت عنوان :

Observations sur le voyage au Darfour suivis d'un vocabulaire de la langue des habitants et de Remarques sur le Nil - Blanc supérieur, Paris, 1855.

4 — Voyage au Ouaday par Cheikh Mohammed Ebn Omar al Tounsy, traduit de l'Arabe par Dr. Perron, Paris, 1851.

وهو كتاب كبير في ٧٥٦ صفحة ، ومقدمته في ٧٥ صفحة ، وبه أيضاً مصور جغرافي وتسع لوحات مصورة ، وكتب مقدمته أيضاً مسيو جومار M. Jomard ؛ والأخبار الواردة في هذه الرحلة صحيحة في جملتها ؛ وإن كان يعوزها الترتيب والتصنيف العلمي ، وقد اقتنع « برّون » بصحتها من جماعة من أهل دارفور ووادای كانوا يسكنون في القاهرة ؛ غير أن « بارث Barth » أخذ عليه أنه لم يورد في كتابه شيئاً مضبوطاً عن الأحوال الجغرافية والطبوغرافية والاحصائية ، والأرصاد الجوية لهذه البلاد ؛ أنظر :

Barth, Reisen und Entdeckungen in Nord und Zentralafrika, Berlin, 1859, 3, P. 525.

وفي : Nachtigal, Petermanns Geogr. Mitteil, Vol 21, 1875. Sahara und Sudan, vol. 3. P. 8.

٥ — ترجمة لقصة سيف التيجان سنة ١٨٦٢ .

٦ — ترجمة لكتاب الطب النبوي ؟ (أنظر شيخو ، الآداب العربية في القرن ١٩ ، ج ١ ص ١١١)

٧ — ترجمة لكتاب كامـــل الصناعتين المعروف بالناصري في البيطرة والزرطقة [١] ، لأبي بكر بن بدر وكان بيطاراً في اصطبل الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو في ٣ مجلدات ، ونشر تحت هذا العنوان :

Abou Bekr ibn Bedr, Le Nâceri, La perfection de deux arts, ou, Traité complet d'hippologie et d'hippiatrie arabes. Traduit de l'arabe par Dr. Perron. 3 vols. Paris 1852 – 1860.

٨ — ترجمة كتاب ميزان الخضرية للشعراني في الفقه .

---

(١) قال صاحب كشف الظنون عند كلامه على هذا الكتاب : « البيْطرة هي النظر في أحوال الخيل من جهة الصحة والمرض ، والزرطقة هي عبارة عن تربية الخيل في تعليمها ولوازمها » هذا وتوجد نسختان مخطوطتان من هذا الكتاب في الخزانة التيمورية بالقاهرة ؛ أنظر : تيمور باشا ، التصوير عند العرب ، نشره وعلق عليه الدكتور زكي محمد حسن ، القاهرة ١٩٤٢ ص ٣٦ .

Voyage
au
Dârfour
ou
l'aiguisement de l'esprit
par le voyage au Soudan et parmi les arabes du centre de l'Afrique,
par
le cheykh Mohammed ibn-Omar el-Tounsy,
Autographié et publié
par
M. Perron

Paris
chez Benjamin Duprat
libraire de l'Institut de France, de la bibliothèque nationale, de la société asiatique de Paris, &c
Rue du cloître Saint Benoît, N° 7
1850

Imprimerie lithographique de Kaeppelin,
17, quai Voltaire

العنوان الفرنسي لكتاب « رحلة دارفور » ، وهو أيضاً بخط الدكتور « برون » ؛ كما هو واضح في السطور ١١ – ١٣

٩ — مقالات مختلفة ، بالفرنسية ،عن بعض مشاهير العرب ، كطرفة[١]، والمتلمس ، وعنترة. ، وأحيحة بن الجلاح ... الخ . الخ ، وقد اعتمد عند كتابة هذه المقالات على كتاب الأغاني .

١٠ — ترجمة كتاب الأنساب ، وهو جزء من كتاب العقد الفريد ، لابن عبـــد ربه .

١١ — كتاب الأزهار البديعة في علم الطبيعة ، وهو مجموعة محاضراته التي ألقاها على طلابه بمدرسة الطب المصرية ، وقـــد ترجمه إلى العربية بمساعدة يوحنا عنحوري ، احد مترجمي مدرسة الطب ، وراجعه الشيخ الهراوي ، طبع في بولاق ١٢٥٤ . ثم طبع طبعة ثانية في سنة ١٢٦٩ .

١٢ — الجواهر السنية في الأعمـــال الكيماوية ، وهي ايضاً مجموعة محاضراته في الكيمياء التي القاها على طلابه بمدرسة الطب المصرية ، وتقع في ثلاثة مجـــلدات كبيرة : الأولى في ٦٧٦ صفحة ، والثاني في ٤٩٤ صفحة ، والثالث في ٥٥٩ صفحة ، وقد ترجمه بنفسه ، « وكان إذ ذاك ضرب بعطن في اللغة العربية ، وصار يفهم النكات الادبية ، فبحث في القواميس على الألفاظ الطبية والكيماوية ... الخ ، (انظر مقدمة التونسي للجزء الاول من هـــذا الكتاب) ، وقد قام على تصحيحه ، ومراجعته الشيخان محمد الهراوي ، ومحمد عمر التونسى ، واثنان من تلاميـــذ « برّن » ، هما الدكتور حسين غانم الرشيدي ، والشيخ درويش زيدان ، بولاق سنة ١٢٥٨ — ١٢٦٠ .

* * *

٢ — الشيخ محمد عياد الطنطاوي :

ترك الطنطاوي عند وفاته مكتبة غنية ، فيها ما لا يقـــل عن ١٥٠

---

(١) انظر مثلا: Perron, Lettre sur les poètes Tarafah et Al-moutalammis. Journal Asiatique, 3me serie, t. XI Jan. 1841. pp. 46-69, & mars. 1841, pp. 215-247 .

مخطوطة بعضها من تأليفه ، والبعض الآخر من نسخه ، وقد آلت هذه الكتب إلى مكتبة الجامعة في « بيتروغراد » ، وفيما يلي بيان لأهم مؤلفاته :

١ – تاريخ حياته بقلمه ، ولم ينجز منه إلا قطعة صغيرة ، نشر أصلها العربي ومعه ترجمة ألمانية J. G. Kosegarten في مجلة Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes, 1850, 43 — 67, 197 — 200.

وقد كتب المستشرق « غوتوالد » تعليقات على هذا الكتاب في مجلة :

Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellshaft, IV, 243 – 248.

٢ – أحسن النخب في معرفة لسان العرب ، وهو كتاب في اللغة العامية المصرية ، ألفه وهو في « روسيا » ، وطبع في « ليبسك » سنة ١٢٦٤ (١٨٤٨)، ويشتمل هذا الكتاب على ألفاظ وجمل وأمثال ، ورسائل وقصص ، وأغانٍ مصرية عامية ، ومعها ترجمتها إلى الفرنسية ، (وقد ذكرنا في متن المقال بعض محتويات الكتاب ، وخاصة شعر الفاتحة ، ورسالة الطنطاوي لصديقه رفاعة الطهطاوي) ، ومن أهم ما ورد في هذا الكتاب منظومة أمين أفندي الجندي التي نظمها عند مسير الجيش المصري لفتح الشام ، يقول تيمور باشا في مقاله السابق الذكر : « وكنا نسمع في متناقل الاخبار أن هذا الجيش كان يتغنى بها ، ولم نكن نعلم منها غير قوله في مطلعها :

هيـــا بنا هيـا بنا   للحرب نلقي ضدنا »[1]

رقم الكتاب في
مكتبة بتروغراد

٣ – حاشية على شرح الشيخ خالد الأزهري [2] على متنه   ٨٢٧

---

(١) أنظر هذه المنظومة كاملة في : داود بركات ، البطل الفاتح ابراهيم باشا ، ص ٢٢٦ ، القاهرة ١٩٣٤ .

(٢) توجد نسخة خطية من هذا الكتاب في مكتبـة البلدية بأسكندرية ، ضمن مجموعة رقم ٤٩٧٨ ج وقد كتب على الصفحة الأولى منها أنها « حاشية على شرح الأزهرية للشيخ خالد مع التعرض لحاشيته المشحونة بغرر الفوائد لشيخنا خاتمة المحققين والنظار ، مولانا الشيخ حسن العطار » وقد ذكر في نهايتها أنها كتبت بخط « مصطفى الفقي » في أول رجب سنة ١٢٤٧ .

المسمى بالازهرية في علـــم النحو ، كتبها بخط يده سنة ١٢٥٢ هـ .

٤ — حاشية على متن الزنجاني في الصرف المشهور بـــتن العزّي كتبها يده سنة ١٢٥٥ هـ . ‏ ٨٣٣

٥ — حاشية على كتاب الكافي في علمي العروض والقوافي[١] بخط يده سنة ٢٥٥ هـ . ‏ ٧٨٦

٦ — منتهى الآداب في الجبر والميراث والحساب ، بخط يده سنة ١٢٤٥ هـ. ‏ ٨٢٠

٧ — الحكايات المصرية العامية ، بخط يده ؟ ‏ ٧٤٥

٨ — مسودات لتاريخ العرب ، ومعها ترجمة البـــاب الأول من كتاب « كلستان [٢] » لسعدي الشاعر الفارسي وهو بخط يده .

٩ — منظومة في البيان نظم فيها متن السمرقندية .

١٠— حاشية على شرح برهـــان الدين أبي المعالي إبراهيم السقا ، (وهو احد شيوخه) على منظومة السيد محمد بُليحـــة ، وعنوان الشرح التحفة السنية في العقائد السنية .

١١— حاشية على رسالة شيخه إبراهيم البيجوري في العقائد .

١٢— شرح على منظومة الشيخ السلموني ، التزم السجع في جميع جمله .

١٣— رسالة عن الاعياد المصرية ، (مخطوط، مكتبة بتروغراد رقم ٨٣٨)

---

(١) توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب في مكتبة البلدية رقم ٥٠٢٠ ح ، كتبها محمد ابن سليمان في سلخ شعبان ١٢٦٥ .

(٢) عندي في مكتبتي ترجمة عربية اخرى لهذا الكتاب ترجمها في نفس العصر جبرائيل يوسف المخلع كاتب الديوان الخديوي بالاسكندرية ، وطبع في بولاق سنة ١٢٦٣ هـ .

١٤– كتاب عن تاريخ روسيا باسم : تحفة الأذكيا في أخبار بلاد روسيا كتبه بخط يـــده سنة ١٢٦٦ (١٨٥٠) ، (انظر للتعريف بالكتابين الأخيرين :

Comptes-rendus de l'Académie des Sciences de Russie, 1926, pp. 23 — 26; 1924. pp. 102 sqq. ; 1927, pp. 181 sqq.)

* * *

٣ – الشيخ محمد عمر التونسي :

١ – رحلة دارفور المسماة «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان» كتبها تنفيذاً لإشارة دكتور « برون» الذي عني بطبع النص العربي في باريس سنة ١٨٥٠ ، (انظر الترجمة الفرنسية للرحلة في مؤلفات دكتور برون) .

٢ – رحلة واداي ، كتبها أيضاً تنفيذاً لرغبة دكتور « برون » ولم ينشر النص العربي لهذه الرحلة حتى اليوم ؛ بل ولا يعلم مصيره ؛ فقد كان في حوزة دكتور برون ، وإنما نشرت الترجمة الفرنسية في باريس سنة ١٨٥١ ، (أنظر مؤلفات برون) .

٣ – الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية ، وهو معجم كبير للألفاظ والمصطلحات الطبية والعلمية المختلفة ، جمعها من الكتب والمعاجم العربيـة والأفرنجية ، ذكره جورجي زيدان في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، ص ١٧٧ – ١٧٨ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٣٧) ، وقال عنه : « هو معجم للمصطلحات الطبية والأطباء، وقد أسند لكل مؤلف ما التقطه منه ، فجاء كتاباً في نحو ٦٠٠ صفحة متوسط الحجم ، وهـــو من الذخائر النفيسة ، وقد حمـــل الى باريس ، وفي المكتبة الخديوية [١] نسخة منقولة

---

(١) توجد من هذا المعجم أربع نسخ في دار الكتب المصرية أرقامها : ٧٥٧١ و ١٧٤٠ و ١٦٤٤ و ١٦٥٣ طب ؛ انظر حديثاً مفصلا عنه في بحثنا عن: تاريخ الترجمة في عصر محمدعلي؛ J. H. Dunne, Printing and Translations under Med. Ali, Journal of the Royal Asiatic Society, July 1940. pp. 343 — 345.

بالفوتوغراف عن نسخة باريس ، وقد أقرت نظارة المعارف على طبعها في جملة كتب إحياء الآداب العربية » ، وقد بدأت فعلا دار الكتب الخديوية بطبع هذا المعجم ، وطبع منه الجزء الأول في ١٠٠ صفحة ، (مطبعة المقتطف سنة ١٩١٤) ، وأشرف على تصحيحه وطبعه وترجمة ألفاظه إلى اللغتين الفرنسية والانجليزية الدكتور أحمد عيسى بك ، غير أن الدار لم تنشر منه حتى اليوم إلا هذا الجزء تحت عنوان :

Al - Schoodhoor - Al - Dhahabieh of Muhammad omar Al - Tounsy , Dictionary of Technical Terms « Ancient and Modern » used in the medical, natural and veterinary sciences , edited and translated into French and English by Dr . Amed Issa Bey vol I. Cairo , 1914.

ويوضح السبب الذي دفع التونسي لوضع هذا المعجم ما جاء في مقدمته ، قال : « لما كان حضرة من نشئت المدرسة على يده .. كلوت بك ... يعلم أن جل غرض الخديوي أظهار المعارف، وإبراز اللطائف، وأن المعارف لا تتم الا بجمع كتاب موصوف بما وصفناه من الجمع للألفاظ الطبية وأسماء المعادن والحيوانات .. أحضر معجما في الألفاظ المذكورة باللغة الفرنسية ، وأمر بترجمته إلى اللغة العربية ، ففرقه ناظر المدرسة إذ ذاك على معلميها ... فترجم كل منهم الجزء الذي أعطيه ... ولما تمت ترجمة الأجزاء ... أمر ناظر المدرسة إذ ذاك الماهر في الفنون ، المتوغل في العربية ، المعلم بيرون أن يؤخذ من القاموس كل لفظ دل على مرض أو عرض ، وكل اسم نبات أو معدن أو حيوان ... وقسم أوراقه على المشار إليهم ، وأدخلني معهم ، فأخذت منه جزء وافراً ... وكذا أعطى الماهر أخانا العلامة الشيخ سالم عوض المصحح الأول ، وكذا الفاضل الشيخ على العدوى الذي عليه في تبييض كل مسودة معول ، فاستخرج الجماعة منه ما أمكنه استخراجه .. ثم خصني الناظر المذكور باستخراج ما في القانون من التعاريف ، وما في تذكرة داود من كل معنى لطيف ، وزدت على ذلك مافي فقه اللغة ومختصر الصحاح ، ومافي الهروي من التعاريف الصحاح ، وضممت لذلك

الانسان ان يضرب الرمل المذكور يأتي برمل نظيف نقي ويبسطه
على الارض ثم ينقط فيه بالاصبع الوسطى اربعة اسطر من غير عدد
بالاسطر من اليسار الى اليمين هكذا :::::::::::::::::::

ثم يتتبعه زوجا فزوجا حتى ينتهي الى الآخر فان كان الاخر زوجا اثبته
وان بقي فردا اثبته فيثبت ما تحصل من السطر الاول اولا وما تحصل من
الثاني تحته وهكذا حتى تتم الاربعة اسطر فيتحصل منها شكل من الاشكال
الستة عشر المتقدمة ومن لم يجد رملا ضرب الخط بفول او حمص وهو انه
يأخذ قبضة من غير عدد ويسقطها زوجا زوجا ويثبت الاخير ان كان
زوجا او فردا واما تولدات اشكاله واتصالاتها وما يتعلق بها من
الاسما والحروف والكواكب والعاقبة وعاقبة العاقبة فذلك كله منوط
بمؤلفات علم الرمل فلا نطيل الكلام عليها وانما ذكرنا هذه النبذة اليسير
ليكون للناظر في رحلتنا هذه المام بماهية الرمل في الجملة ولئلا تخلو
هذه الرحلة عن مثل هذه الفائدة والله تعالى اعلم

وقد طبع بالحجر هذه النسخة الجليلة المنقحة الجيدة بدار طباعة
السيد كينيلين الفاخرة الكائنة بمدينة باريز الباهرة وذلك برسم وخط
السيد بيرون بنعمة الله وعونه وكل طبعه على ذمته ونظره وهمته في سلخ
شهر نوفمبر سنة خمسين وثمانمائة بعد الالف المسيحية والحمد لله في البدء
والنهاية ونسأله من الخير بلوغ الغاية امين

الصفحة الأخيرة من النسخة العربية لرحلة دارفور ، وهي « برسم وخط السيد برون » ، كما هو واضح في السطرين ١٥ - ١٦ .

أسماء الأطباء المشهورين، وأسماء عقاقير كنت رأيتها في بلاد السوادين، ورتبت جميع ذلك على حروف المعجم ليكون أسهل للمراجعة وأقوم، وسلكت في ذلك مسلك صاحب المصباح لسهولته على مسلك القاموس والصحاح ، ..... وأغلب احوالي فيه أني أعزي لكل كتاب ما التقطته من فوائده ، وما استفدته من فوائده ، ولم أقتصر فيه على الأسماء العربية ، بل توجد فيه أسماء لاطينية ، وأخرى فرنساوية ، وأخرى فارسية ... الخ » [مقدمـــة الجزء المطبوع ص ب – هـ] .

٤ – وأشرف التونسي على طبع ونشر كثير من الكتب العربية القديمـة التي طبعت لأول مرة في بولاق ، وخاصة المستطرف للأبشيهي ، ومقامـات الحريري .

٥ – كذلك قام التونسي بتحرير وتصحيح كثيرمن الكتب الطبية والعلمية التي ترجمت في عصر محمد علي وأهمها :

أ – الدر اللامع في النبات وما فيه من الخواص والمنافع تأليف الدكتور « فيجري بك » وترجمة حسين غانم الرشيدي ، بولاق ١٢٥٧ هـ

ب – الجواهر السنية في الاعمال الكيماوية في ثلاثة أجزاء تأليف وترجمة الدكتور « برون » بولاق سنة ١٢٦٠ .

جـ – كنوز الصحة ويواقيت المنحة ، تأليف « كلوت بك » وترجمـــة الدكتور محمد الشافعي ، بولاق سنة ١٢٥٨ – ١٢٦٠

د – التنقيح الوحيد في التشريح الخاص الجديد تأليف الاستاذ « كروولبه » وترجمة الدكتور محمد الشباسي ، بولاق سنة ١٢٦٦

هـ – روضة النجاح الكبرى في العمليـــات الجراحية الصغرى ترجمة الدكتور محمد علي البقلي ، بولاق ١٢٥٩

و – الدرر الغوال في معالجة أمراض الأطفال ، تأليـف « كلوت بك » وترجمة الدكتور محمد الشافعي ، بولاق ١٢٦٠ .

الطبيب الخاص لمحمد علي

بدأ حياته بائعاً للبطيخ

طفل من عشرات بل مئات الاطفال الذين تزخر بهم القرى المصرية ، حبا كما يحبو الاطفال ، ومشى كما يمشي الأطفال ، ونما كما ينمو الأطفال ، غذاؤه الشمس والهواء ، ثم الخبز والماء ولد لابوين فقيرين يمتهنان الفلاحة شأن سكان القرى المصرية جميعاً ، ولما بلغ الرابعة من عمره أرسله أبوه الى الكتاب فتعلم مع أقرانه القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن ، فلما اكتمل نموه ، واشتد عوده، انضم إلى أبيه وأمه يعاونهما في فلح قطعة من الأرض يزرعانها ويأكلان وبنوهما من ثمارها .

غير أن الصبي لم يكن خاملا كلداته من الصبية الآخرين ، بل كان فيه نشاط دافق وحيوية كامنة ، فانطلق في أوقات فراغه يجرب حظه تاجراً ، يشتري بعض الحبوب من ذرة أو قمح وبعض الثمار من بلح أو بطيخ أو خيار ويبيع هذا كله فيصيب نصيباً من الربح الحلال ، والأبوان يلاحظان هذا النجاح الذي أدركه ابنهما ، وهذا الربح الذي ناله ، فيشجعان ويباركان .

ومضت الايام والحياة فيهذه الأسرة تجري رتيبة كعادتها، وزرع الأبوان في إحدى السنوات أرضهما بطيخا ، وبارك الله جهودهما فأنبتت الأرض ثمراً وفيراً حلوا طيباً أكله ، ففرحت الاسرة بما أوتيت من خير، وجلس افرادها تحت ضوء القمر في الليل يتشاورون ـ بعد أن جمعوا الثمار ـ في خير طريقة لبيع هذا المحصول ، للحصول على أكبر ربح ممكن ، وطال النقاش وكثرت الآراء : إنهم لو باعوه في قريتهم « نبروه » لما جنوا من ورائه ربحا يذكر ، فالاسعار في القرية دائماً بخسة ، وأبدى الوالد اقتراحاً أن يذهب الصبي بالمحصول الى طنطا عاصمة المديرية ليبيعه هناك علّه يصيب ربحا أوفر ، غير أن الصبي كان أكثر طموحاً من أبيه فأبدى رغبته في أن يذهب بالمحصول الى العاصمة الكبرى ـ إلى القاهرة ـ وأعجب الوالدان بالفكرة ، وشجعهما على قبولها ما أصابه ولدهما من نجاح في صفقاته القليلة التي مارسها في القرية .

ونامت الاسرة ليلتها تلك والأمل الحلو يداعب خيالكل فرد من أفرادها، وأذّن مؤذن الفجر وخرج الأب وابنه إلى مسجد القرية فصليا ودعوا الله مخلصين أن يبارك لهما تجارتهما ، وعادا فحمّلا الجمال بالثمار ، شاركهما في ذلك الأم والصبية الصغار ، فلما انتهوا جميعا من عملهم قبّلت الأم فتاها ، وباركه الأب ، ودعا له بالنجاح وهلّل الصبية الصغار له مودعين .

وسار الفتى في طريقه والجمال تتهادى من خلفه وئيلة في سيرها ، واستهوته مناظر القرى والمدن التي يمر بها ، فهذه أول رحلة له خارج قريته ، فانطلق يغني مسرورا ، وانتهى به السير إلى القاهرة ، وقصد إلى حي الحسين والأزهر كما أوصاه ابوه ، فهو حي عامر بالسكان، وبضاعته فيه لا شك رائجة، وانتحى الفتى ركنا من اركان السوق ، ورصّ بطيخاته أمامه ، وراح يعلن عنها في صوت حلو رخيم وبكلمات مليحة مغرية ، وأقبل مشترٍ وثانٍ وثالث ، غير أن السعر الذي عرضوه كان أقل مما أمّل أبوه ، فرفض أن يبيع ، وظل على رفضه حتى انتصف النهار أو كاد ، وظن الفتى أول أمره

أن المبتاعين قد يكونوا لاحظوا عليه سمات الفلاحين الغرباء ، فأرادوا أن يستغلوا سذاجته : فانتقل إلى جاره الذي عن يمينه وإلى جـــاره الذي عن يساره ، وسألهما عن الاسعار فاذا هي اسعار قليلة ضئيلة ، فصدمته الحقيقة ، وزال عنه سروره وانشراحه .

هكذا قضى إبراهيم – وكان هـــذا اسمه – اليوم الأول في القاهرة ، فلما أقبل الليل أخذ يفكر ويعيد التفكير ويدبر ويعيد التدبير ، وانتهى به الرأي أخيراً إلى أنه لا بد من بيع محصوله ولو كان في البيع خسارة ، لأنه لو لم يبع لفسدت عليه ثماره ، ولكانت الخسارة أفدح .

وباع ابراهيم بطيخاته ، وكانت الخسارة فادحة ، فخشى أن يعـــود الى قريته فيناله الأذى من أبيه ، وجلس إلى الركن الذي كان عامرا منذ قليل ببطيخاته بل بأمله المفقود ، وراح ينظر الى المارة من أهالي الحي وهو يلعنهم ويلعن بلدهم في نفسه ، وجذب انتباهه منظر غريب طريف ، لقد نظر فرأى شيخا كبيرا ذا لحية طويلة بيضاء ، بيده كتاب ، وبيده الاخرى سبحة يرسل حباتها الواحدة بعد الاخرى ، وعن يمين الشيخ وعن شماله ومن ورائه عدد كبير من الفتية المعممين ، والشيخ يسير في تؤدة ووقــــار ، والفتيان يتبعونه في أدب جم واحترام بالغ ، وتتبع إبراهيم هذا المنظر بناظريه ، واستعاد في الحال صورة شيخ القرية وكتابها ولداته من الصبية الصغار .

وانتهى المسير بالشيخ وتلاميذه الى باب المسجد فدخلوه ، ومال ابراهيم الى جار له وسأله عمن يكون الشيخ وعما يكون المسجد ، وعلم ان هـــذا المسجد هو الأزهر وأن هذا أحد شيوخه ، فبهرته الصورة واستهواه وقـــار الشيخ الأستاذ وبزة الفتية التلاميذ ، ولمعت الفكرة في خياله لمعان البرق ، وانتفض واقفاً ، واتخذ طريقه إلى المسجد ، ودخـــل مع الداخلين ، وراعه كثرة حلقات الدرس ، فانضم إلى إحداها واستمع ثم استمع ، ثم انتقـــل إلى غيرها وغيرها ، ولم يكد ينتهي اليوم حتى كان قد قر عزمه أن يصبح أزهريا

يطلب العلم كما يطلبه مئات غيره من المنكبين على الكتب حوله، وسيؤهله هذا إلى أن يكون شيخاً للقرية يقبل الجميع يده ويسعون إلى رضائه ، أو على الأقل في هذا حل مؤقت لمشكلته ومشكلة تجارته الخاسرة .

ونبغ إبراهيم ونال الكثير من تقدير شيوخه وأساتذته ، فقد كان بحق موفور الذكاء ، ورضي بهذه الحياة الجديدة التي حملت عنه عبء التفكير في المأوى والغذاء ، فالرواق فيه مأواه والجراية فيها غذاؤه .

ومضت الايام يتابع بعضها بعضاً وإبراهيم مطمئن إلى حياته الجديدة ، منصرف الى دروسه وكتبه ، إلى ان كان أحد الأيام حين أرسل اليه شيخه يستدعيه ، فهرول مجيباً ، ولكنه لم يكد يقبل عليه حتى وجد في حضرته جماعة من الناس لا يعرفهم ، فيهم من يتزيا بزي أمراء الجيش ، ومنهم من يتزيا بزي الشيوخ ، وتقدم فقبّل يد استاذه ، وأقبل عليه الاستاذ مرحباً ، ثم قدمه لهؤلاء الضيوف تقدمة كلها ثناء على كفايته وتقريظ لمواهبه ، وفهم إبراهيم من الحديث أن هؤلاء السادة قدموا ليختاروا نخبة من نوابغ الطلاب ليكونوا نواة أولى لمدرسة الطب التي يزمع انشاءها محمد علي باشا .

وهكذا انتقل به القدر نقلة جديدة من طالب بالازهر يزمع أن يكون شيخاً صاحب كتاب في القرية إلى تلميذ بمدرسة الطب الجديدة حيث يدرس علوماً جديدة لم يسمع بها من قبل من كيميـــاء وطبيعة وتشريح ودراسة للأمراض والادواء ، ويستمع فيها إلى أساتذة ليسوا من دينه ولا من جنسه ، فهو لا يعرف لغتهم ولا يعرفون لغته ، إنهم أساتذة من أوربا وخاصة من فرنسا.

ونبغ إبراهيم النبراوي ـ نسبة الى بلده نبروه ـ في مدرسة الطب كما نبغ في الأزهر من قبل ، وقضى سنوات الدراسة جميعاً بنجاح وتفوق .

ولما تخرجت الدفعة الأولى من طلاب هذه المدرسة أراد محمد علي أن يبعث بالنابغين إلى فرنسا ليتموا هناك علومهم ، ووكل إلى ناظر المدرسة كلوت بك أمر اختيار المبعوثين ، فكان إبراهيم واحدا منهم .

وسافر إبراهيم النبراوي إلى فرنسا في سنة ١٨٣٢ ، فرأى دنيا غير التي كان يراها في مصر ، الرجال غير الرجال ، والنساء غير النساء ، والأخلاق والعادات والمدن والقرى والمدارس وطرق التعليم والتفكير .. الخ كل أولئك يختلف في باريس عنه في القاهرة ، وعنه في قريته المتواضعة نبروه .

وكان ابراهيم في عنفوان شبابه ، فخفق قلبه في باريس كما يخفق قلوب الشبان ، وأحب باريسية ، وتزوج منها ، ولم يلهه هذا عن واجبه ، بل أقبل على دروسه إقبال النهم وحصل على إجازته بنجاح ، وعاد إلى مصر في سنة ١٨٣٦ تصحبه زوجه الباريسية .

وعُيِّن إبراهيم النبراوي بعد عودته مدرساً بمدرسة الطب المصرية ، فقد كان محمد علي يهدف من وراء هذه البعثات الى إحلال المصريين محل الأجانب. ونجح ابراهيم طبيباً ومدرساً ، كما نجح تلميذاً ، وأظهر مهارة فائقة في فنه ، فقصده المرضى من كل فج ، وأقبلت الدنيا عليه إقبالا .

ولم يُشغل ابراهيم النبراوى بهذا كله عن المشاركة في النشاط العلمي لمدرسته ، فترجم ثلاث رسائل طبية لأستاذه كلوت بك عن الفرنسية الى العربية ، وطبعت هذه الرسائل في بولاق سنة ١٢٥٣ ، ثم ترجم كتاباً فرنسياً آخر عنوانه « الأربطة الجراحية » طبع في بولاق ايضاً سنة ١٢٥٤ .

وذاع صيت النبراوي ، وبلغت أخباره الوالي محمد علي ، فاختاره طبيباً خاصاً له وقرّبه إليه ، وأغدق عليه النعم ، وظل طبيبه الخاص الى آخر حياته ، وعندما مرض محمد علي مرضه الأخير وسافر الى أوربا للاستشفاء صحبه النبراوي في رحلته طبيباً معالجاً .

يقول علي مبارك باشا في ترجمته له : « ولنجابته وحسن درايته في فنه اختاره العزيز محمد علي باشا حكيمباشى لنفسه ، وقربه وتخصص به ، وبلغ رتبة أميرالاي ، وكثرت عليه اغداقات العزيز وانتشر ذكره ، وطلبته (الفاميليات) والأمراء » .

وظل إبراهيم النبراوي وفياً لزوجه الفرنسية مخلصاً لها، لم يتزوج غيرها إلى ان أدركتهـــا الوفاة في مصر ، فأنعمت عليه والدة عباس باشا الأول بفتاة بدوية فتزوج منها .

وفي غضون تلك السنين استقـــال كلوت بك من نظارة مدرسة الطب ، فخلفه طبيب فرنسي آخر هو الدكتور برُون ،وفي سنة ١٨٤٦ استقال برُون أيضاً ، فعيِّن الدكتور ابراهيم النبراوي باشا وكيلاً لهذه المدرسة ، فكان أول مصري يلي هذا المنصب .

وظل النبراوي باشا يتمتع بمكانته الممتازة لدى الأسرة العلوية حتى بعـــد وفاة محمد علي، فقد اختاره عباس باشا الأول طبيباً خاصاً له بعد توليه العرش، ونال لديه ولدى والدته الحظوة الكبرى ، فلمـــا سافرت لأداء فريضة الحج صحبته معها ليشرف على صحتها وعلى صحة من معها من الحجيج .

وقد نبغ من أولاده ولدان رزقهما من زوجته الفرنسية ، أحدهما يوسف باشا النبراوي ، تلقى علومه الأولى في مصر ، ثم أرسل في بعثة إلى فرنسا سنة ١٨٥٥ في عهد سعيد باشا للتخصص في الفنون والعلوم الحربية ، وعاد إلى مصر في سنة ١٨٦١ فعيُن ضابطاً بالجيش المصري ، غير أنه لم يمكث به إلا قليلاً ، ثم عاد إلى فرنسا ، فأقام بها طويلاً ، وتزوج هناك من سيدة فرنسية، وكانت له جهود حميدة في اقناع أولى الأمر من الفرنسيين للموافقة على إنشاء المحاكم المختلطة ، ثم استدعى إلى مصر بعد إنشاء هذه المحاكم وعـــين رئيساً لواحدة منها .

والثاني خليل النبراوي ، تلقى علومه الأولى بمصر ، ثم التحق بمدرسة الطب المصرية،وبعد اتمام الدراسة بها أرسل في بعثة طبية إلى النمسا وفرنسا، وعاد إلى مصر في عهد إسماعيل وعين طبيباً بالمصلحة الطبية ، ومن نسل هذا الرجل العظيم أيضاً الاديبة الصحفية سيزا نبراوي سكرتيرة الاتحـــاد النسائـــي .

هذه قصة فتى من قلب الريف المصري ، تنقل به القدر العجيب من بائع بطيخ فاشل إلى طالب في الأزهر ، وانتلقت به عناية محمد علي إلى مدرسة الطب ثم إلى فرنسا حتى أصبح طبيباً ومدرساً ووكيلاً لمدرسة الطب ، وطبيباً خاصا لعاهلي مصر ، وارتقى به نبوغه إلى أن حصل على أكبر لقب في وطنه ، وهو لقب الباشوية .

بيومي أفندي
نابغة مصر في الرياضيات
الذي مـــات في السودان

أصله من بلدة دهشور ، وإن كان قد ولد في القاهرة ، ارسل إلى فرنسا في بعثة سنة ١٨٢٦ ، وله من العمر سبعة عشر عاماً ، ولبث في فرنسا تسع سنوات ، تخصص في خلالها في فن قوى المياه (الهيدروليكا Hydraulique) ثم عاد الى مصر في ١٤ ذي الحجة سنة ١٢٥٠ (١٣ ابريل ١٨٣٥) ، فعُهد إليه في الحال بالبدء في ترجمة كتاب في الهندسة الوصفية .

وفي نفس التاريخ صدر أمر محمد علي باشا بتعيينه « مدرساً بمـــدرسة المهندسخانة بالقناطر الخيرية مع تفهيمه القيام بمعاونة باشمهندس القناطر بالنسبة لتعلمه أشغال القناطر كما يجب بباريس » .

وفي شوال سنة ١٢٥١ (يناير ١٨٣٦) ضُمت مدرسة المهندسين بالقناطر الخـــيرية الى مدرسة « المهندسخانة » ببولاق ، ونقل بذلك بيومي افندي استاذاً بهذه المدرسة الاخيرة، وفي نفس السنة ألفت لجنة لإعادة تنظيم المدارس

فكان بيومي أفندي واحداً من أعضائها، وقد عنيت هذه اللجنة عناية خاصة بمدرسة « المهندسخانة » ببولاق ، فوضعت للدراسة بها نظاماً يتفق ونظام مدرسة الهندسة بباريس .

وفي أوائل تلك السنة (١٨٣٦) كان قد عاد من فرنسا إبراهيم رمضان افندي ، وأحمد دقله افندي ، وأحمد طائل افندي ، وأحمد فايد افندي ، قبل أن يتموا دراستهم ، وكانوا أوفدوا اليها جميعاً في سنة ١٨٣٠ ، فألحق اثنان منهم،وهما دقلة وطائل معيدين لدروس بيومي افندي في«المهندسخانة» ، على أن يتما دراستهما عليه وألحق احمد فايد معيداً لدروس بهجت باشا بقصر العيني ، وإبراهيم رمضان معيدا لدروس مظهر باشا بمدرسة الطوبجية ، « ولم يلبث هذان الأخيران أن نقلا إلى مدرسة بولاق ، وأصبح الجميع تلامذة ومعيدين لبيومي افندي ، يقول علي مبارك باشا : « وكان (اي بيومي افندي) هو « الباش خوجة » عليهم ، فكان المرجع إليه والمعول عليه » ، وفي سنة ١٨٣٦ أيضاً عندما أعيد تنظيم مدرسة المدفعية بطرة قام بتنظيم دروس الرياضيات بها بيومي افندي .

وحوالي سنة ١٨٣٩ (١٢٥٥) أوجد ديوان المدارس نظام المعاونين ، وهم بمثابة المفتشين الآن ، وكان عملهم الأساسي التفتيش على المدارس وشئونها المختلفة – علمية وتربوية وصحية – ... الخ ، وكان يعهد إلى بعض هؤلاء المعاونين ، ومنهم – بيومي افندي – بترجمة الكتب وتصحيحها .

وقد قام بيومي أفندي بهذه الأعمال جميعاً خير قيام ، ولكنه بذل الجهد الأكبر مع تلاميذه ومساعديه الأربعة في النهضة بمدرسة بولاق وتلاميذها ، وترجمة الكتب في مختلف فروع العلوم الرياضية .

لاحظت هذا الجهد لجنة سنة ١٨٤١ لاعادة تنظيم التعليم، فمدحته وضمنت هذا المدح تقريرها ، قالت : « لا ريب في أن المهندسخانة مدينة بكل تقدمها هذا الى دقة ناظرها وهمة أساتذتها ، غير أن معظم الفضل إنما يرجع

إلى ترجمة المدرسين للدروس ، وإلى الاسراع في طبع التراجم بمطبعة الحجر (الملحقة بالمدرسة) ، ثم جمعها في كراسات وكتب ، ولقد كانت العلوم الرياضية التي في متناول اليد من القلة والندرة ، وكانت ترجمتها من الإشكال والصعوبة بحيث لم يتيسر قبل اليوم تنشئة المهندسين الفحول على الوجه الصحيح الموافق لاسلوب فرنسا ، ولكن ها هو البكباشي محمد بيومي افندي واليوزباشية أحمد طائل افندي وإبراهيم رمضان افندي واحمد دوقلي افندي وأحمد فايد أفندي يتولون بفضل بركات الخديو ترجمة الدروس التي وكل اليهم تعليمها ، ثم لا يقفون عند حد الترجمة ، بل يطبعونها على الحجر ويجعلون منها كتباً واسفاراً ، والواقع أن الامتحان الأخير كان مشهداً لما جمعته هذه الكتب بين دفاتها من شتى العلوم . »

ولما أنشىء قلم الترجمة (الملحق بمدرسة الألسن) في سنة ١٨٤٨ قسم إلى أقلام أربعة ، كان أولها القلم الخاص بترجمة الكتب الرياضية ، فكان بيومي أفندي خير من يتولى رئاسته ، فنقل اليه ، وعين لمساعدته ملازم من خريجي الألسن ، وخمسة من تلاميذ فرقتها الأولى .

وقد كان بيومي أفندي إلى هذا — كما يقول مبارك باشا : — « حسن الأخلاق مهيباً جليلاً ، ذا رأي حسن » ، وكان أستاذاً لجيل من المهندسين بأكمله ، تتلمذ عليه من كان يصغره سناً ، ولم يأنف أن يتتلمذ له من كان يكبره سناً ، أمثال : سلامة باشا ، ومحمود الفلكي باشا ، واسماعيل محمد باشا ، وعامر بيك ، وكلهم من نوابغ المهندسين المصريين في القرن التاسع عشر.

غير أن هذا النبوغ الفذ والخلق الطيب لم يلقيا من عباس الأول — ما لقياه من محمد على من تكريم وتقدير ، ففي ١٣ رجب سنة ١٢٦٦ (مايو ١٨٤٩) صدر الأمر بانشاء مدرسة الخرطوم الابتدائية ؛ وعين رفاعة بك لنظارتها ، واختير لتدريس الأرقام وطريقة كتابتها وعمليات الجمع والطرح والضرب نابغة الرياضيات بيومي أفندي ، وتلميذه وزميله أحمد طائل أفندي.

وكانت الصدمة عنيفة فأثرت في صحة بيومي أفندي ، وتعاون عليه

الحظ العاثر والمرض فادركته المنية في الخرطوم في سنة ١٨٥٢ (١٢٦٨)— ودفن هناك — أما أحمد طائل أفندي فقد عاد إلى مصر — مع رفاعة بك — في أوائل عهد سعيد باشا ، وكان مريضاً بالحمى ، فتوفى في بولاق بعد وصوله بليلتين ، ويقول عنه علي مبارك باشا أنه كان « قصير القامة ، صغير الجسم ، كثير الفهم ، لا يبالي بأكثر الأمور ، وله جرأة على الامراء وإقدام ، وكان محباً للتلامذة ، يرغب في تعليمهم ، وأخذ عنه أكثرهم أو جميعهم . »

وقد ذكر العالم المصري المرحوم أمين سامي باشا في كتابه « تقويم النيل » أن حكومة فرنسا أرسلت في سنة ١٨٥٠ (١٢٦٦) أحد أقران بيومي أفندي بمدرسة الهندسة التي كان بها في فرنسا لزيارته في منفاه ، وبعد زيارته طبع كتاباً عنوانه «بيومي أفندي في منفاه» سنة ١٨٥٠[١] ولو صح هذا الخبر لكان لهذا الكتاب أهمية كبيرة لأنه يكشف لنا — دون شك — عن الاسباب الحقيقية التي أدت الى نفى بيومي وصحبه الى السودان ، ويصور — في وضوح — أحاسيس بيومي وآلامه وحياته في السودان ، غير انني بحثت عن هذا الكتاب كثيراً فلم أوفق — للأسف — للعثور عليه.

وقد كانت لبيومي أفندي جهود علمية ضخمة ، وخاصة في ميدان الترجمة ، فقد قام بنقل الكتب الكثيرة — في فروع العلوم الرياضية المختلفة — عن الفرنسية الى العربية وقد طبع منها ما يأتي :

١ — الهندسة الوصفية ، تأليف « دوشين Duchesne » ، ويقع في جزئين ، طبع الاول في بولاق في سنة ١٢٥٢ هـ ، وطبع الثاني في سنة ١٢٦٣ هـ.

٢ — كتاب الجبر والمقابلة ، تأليف « ماير Mayer » ، جزء واحد ، طبع في بولاق في غرة جمادي الآخرة سنة ١٢٥٦ هـ .

٣ — ميكانيقة (أي جر الاثقال) ، تأليف « ترکم Terquem » ، ترجمه

---

(١) أكون سعيداً جداً لو كان لأحد القراء الكرام معرفة بهذا الكتاب فتفضل بارشادي اليه .

بيومي بالاشتراك مع أحمد طائل ، جزء واحد ،طبع في بولاق سنة١٢٥٧هـ.

٤ — ثمرة الاكتساب في علم الحساب ، ويبدو ان بيومي افندي كان قد ترجم هذا الكتاب ترجمة سريعة ليستعين به في تدريس هذه المادة ، ثم طبع طبع حجر بمطبعة مدرسة « المهندسخانة » ، ولكنه عاد فراجعه وزاد عليه تنفيذاً لأمر أدهم بك مدير المدارس ، وطبع الكتاب بعد تنقيحه في بولاق في سنة ١٢٦٣ هـ . وهو جزء واحد في ٤٠٠ صفحة ، جاء في مقدمة الشيخ الدسوقي لهذا الكتاب ما يلي : « ومن افخر كتب هذا العلم (الحساب) المؤسسة ، كتاب عُرِّب في مدرسة الهندسة ، جليل القدر ، حسن الترتيب ، إلا انه غير متقن التعريب ، طبع على الحجر في هذه المدرسة على يد من أحسن قراءته حين درسه . ولقد عمّ نفع هذا الكتاب في المدارس لما احتوى عليه من النفائس ، ولما كان الكتاب المعرب المشار اليه ، مما يعتمد في هذا الفن عليه ، أمر من يجيبه السعد بلبّيك ، حضرة أمير اللواء أدهم بيك ، مدير المدارس المصرية ، ومفتش المهمات الحربية ، جناب المتوكل على ربه المعيد المبدي ، محمد الشهير ببيومي افندي ، أن يبذل في اتمامه الهمه ، وأن يضم اليه فوائد مهمة ، على يد مصححه راجي غفر الاوزار ، ابراهيم الدسوقي عبد الغفار . . »

٥ — جامع الثمرات في حساب المثلثات ، وطبع في بولاق في سنة ١٢٦٤.

هذه هي كتب بيومي افندي التي طبعت ، غير أن الدكتور « بورنج Bowring » كان قد زار مدرسة « المهندسخانة » في سنة ١٢٥٣ (١٨٣٧) ، وأثبت في تقريره إحصاءً كاملاً للكتب التي ترجمت أو كانت تترجم في تلك المدرسة ، ومن بينها كتب ثلاثة أخرى كان يترجمها بيومي افندي ، هي :

١ — مبادىء اللغوريتمات .

٢ — قطع الصخور تأليف « دويو Duillot » .

٣ — الفحم الحجري ، تأليف « دويو Duillot » .

وقد بحثت عن هذه الكتب في فهارس الكتب المطبوعة فلم أعثر لها على أثر.

* * *

وبعد ، ترى أين الآن قبر هذا العالم الجليل ، هل هو باق معروف ؟ أم نسي فاندثر ؟ إن على مصر الناهضة واجباً قومياً نحو هذا النابغة الكريم أن تبحث عن قبره ، فإن وجدته صانته وكرمته .

إلزي لشتنشتاتر

الاسلام والعصر الحديث

مع مقدمة بقلم سير محمد ظفر الله خان

Ilse Lichtenstadter : Islam and Modern Age

مؤلفة هذا الكتاب يهودية الديانة ، ألمانية الأصل ، ثم رحلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتجنست بالجنسية الأمريكية .

وقد درست الثقافتين العربية والإسلامية في جامعات ألمانيا وانجلترا ، وحصلت على إجازتي دكتوراه ، إحداهما من جامعة فرانكفورت ، والثانية من جامعة اوكسفورد ، وهي الآن عضو في المدرسة العليا للاداب والعلوم بجامعة نيويورك ، وكانت قبل ذلك استاذة للأدب العربي والثقافة الإسلامية في المعهد الأسيوي بنفس المدينة .

وللمؤلفة — غير هذا الكتاب — مقالات وأبحاث اخرى نشرت في كثير من المجلات العلمية في ألمانيا وأمريكا والباكستان ، ومعظمها تدور حول النواحي الاجتماعية في الإسلام ، مثل مكانة المرأة ، او نظام الأسرة ، وفيما يلي بيان بأهم هذه المقالات :

Lichtenstadter (Ilse)

An Arab - Egyptian Family, (The Middle East Journal, vol. VI , Washington , 1952) .

The Muslim Woman, (Sociologus, vol . VII, Berlin 1957)

From Particularism to Unity : Race, Nationality and Minorities in the Early Islamic Empire, (Islamic Culture, Hyderabad, 1949) .

ولم تقتنع الدكتورة «إلزي» بما حصلت من معلومات عن هاتين الثقافتين : العربيه والإسلامية جمعتهـــا من الكتب التي قرأتها ، أو من المحاضرات التي استمعت إليها ، بل أرادت ان تتصل بالعرب وبالمسلمين اتصالاً شخصياً ، وأن ترى بلادهم وإن تحيا بينهم ، وتعيش معيشتهم ، وأن تدرس عن كثب عاداتهم وتقاليدهم وأخـــلاقهم ، وأن تلمس بنفسها مشاكلهم ، وتستمع إلى أفكارهم وآرائهم ، ولهذا سافرت إلى مصر ثلاث مرات في السنوات : ١٩٤٧ و١٩٥٠ و ١٩٥٥ ، وأقامت بها مدداً طويلة ، وزارت معظم البلاد العربية المجاورة لمصر ، كما زارت باكستان ـ باعتبارها دولة إسلامية ـ في سنة ١٩٥٥ ، وأقامت بها شهوراً ، ثم أقامت في مدينة دلهي ثلاثة أسابيع اتصلت خلالها بالجالية الإسلامية المقيمة في عاصمة الهند .

وقد عقدت المؤلفة أواصر الصداقة أثناء هذه الزيارات مع عدد كبير من مسلمي الشرقين الأدنى والأوسط ـ رجالاً ونساء ـ وكانت تجربة طيبة مكنتها من جمع كثير من الملاحظات والمعلومات ، وقد لقيت من أصدقائها المسلمين كل ترحيب ، وكانوا ـ كما تقول في مقدمة كتابها ـ يشعرونها دائماً ـ مع أنهـا يهودية ـ أنها في بيتها ، وذلك على الرغم من اختلاف أنماط حياتهم ، وقواعد دينهم . وقد تحدث إليها كثيرون من هؤلاء الأصدقاء في مصر وباكستان عن كفاحهم وعن ايمانهم ، كما كانوا في معظم الأحوال يصارحونها بنقدهم للاساليب الاوربية وقصور الغرب وعجزه عن فهم أساليبهم .

* * *

والكتاب كما تقول المؤلفة من مقدمتها فيه محاولة لتحليل المشاكل التي تعترض العالم الإسلامي المعاصر من حيث علاقتها بأسسها القديمة ، مع فحص الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه المشاكل .

ومن الواجب في رأيها إبراز هذه الأسس الكامنة في الإسلام ، والتي ظلت قوية ثابتة على مر العصور ، كما كانت مستقلة عن الأحوال الخارجية أوالعصور المتغيرة ، فان الكشف عن هذه الأسس يمدنا بالدوافع الداخلية الثابتة للحياة والفكر الإسلاميين .

والعالم الإسلامي خرج أخيراً من عزلته الطويلة ، وبدأ يشارك من جديد في الشؤون العالمية ،وكثير من مراحل صراعه ترجع أسبابها إلى عودةالاتصال بينه وبين الغرب ، وانه لما يعني الشرق والغرب معاً إيجاد حل لهذه المشاكل، ولذلك كان الهدف الثاني لهذا الكتاب– كما تقول المؤلفة – هو تحليل المشاكل التي نشأت عن تقابل العقليتين الشرقية والغربية .

والقسم الأول من هذا الكتاب الذي يتناول مبادىء الإسلام وأسسه يعتمد اعتماداً كبيراً على المراجع والمصادر الاسلامية القديمة ، في حين أن القسم الثاني الذي يعني بتحليل مشاكل العالم الاسلامي المعاصر يعتمد في معظمه على الملاحظات الشخصية للمؤلفة .

وقد ركزت المؤلفة جهودها للعناية بدراسة النواحي الدينية والثقافية والأدبية والتاريخية للعرب وللعالم الاسلامي ، ولكنها تقرر كذلك أنها لكي تفهم الاسلام فهماً عميقاً دقيقاً كان لا بد لها أيضاً من العناية بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية .

والمؤلفة تذكر أنها كانت قد انتهت من تأليف كتابها وكتابة الصفحات الأخيرة منه في الوقت الذي نشأت فيه أزمة السويس ، أي قبيل العدوان الثلاثي على مصر ، ذلك العدوان الذي هز ضمير العالم – على حد تعبير المؤلفة وهي يهودية – ومع هذا فإن هذه الأحداث المؤلمة لم تغير – كما تقول – أي

جزء من أجزاء البحث ، بل على العكس زادت من اعتقادهـا أن الإدراك المتعمق لينابيع الثقافة الإسلامية أصبح ضرورياً لفهم الصراع القائم بين الشرق والغرب وأسباب الشد والجذب المتبادلين بين العالمين .

والمؤلفة ترى أن الوقت لم يحن بعد لتقييم هذه الأزمـة بكل تشعباتها وأسبابها المتعارضة ، وقد يتضح من المناقشات العامة أن الأسباب الحقيقية لهذه الأزمة إنما ترجع إلى العوامل السياسية والاقتصادية ، أو إلى الانفعالات الوطنية ، أو الى الصراع بين الدول الكبرى ، أو اليها جميعاً ، ولكن المؤرخ الحق يجب عليه ، وسط هذه المنافسات والثورات المتكررة المتتابعة ، ووسط حالة القلق العام التي تسود عصرنا الذي نعيش فيه ، أن ينفذ ببصره إلى مظاهر التغيير والانتقال بين عصر وعصر ، وأن يقارن بين هذه الفترة التي نعيش فيها وبين الفترات الحاسمة والشبيهة لها في التاريخ ، مثل انحلال الامبراطورية الرومانية ، أو قرون النهضة والاصلاح ، أو عصر الثورة الفرنسية .

ولهذا ترى المؤلفة أن أزمة الشرق الأوسط الحالية ليست إلا جزءاً من الصراع في سبيل السيادة بين آسيا والغرب .

والمؤلفة ترى اخيرا ان الصراع بين العرب واسرائيل يجب أن يحكم عليه وأن يبحث عن حل له داخل نطاق هذا الصراع الكبير بين آسيا والغرب . ونحن نخالف المؤلفة في هذا الرأي ، ونرى أن الصراع بين العرب واسرائيل هو أولاً جزء لا يتجزأ في الصراع بين القومية العربية وكل القوى الخارجية – شرقية أو غربية – التي تحاول العدوان على العالم العربي .

* * *

وقد قسمت المؤلفة كتابها إلى : مدخل ، وبابين ، وخاتمة .

ففي المدخل تكلمت عن المشكلة : مداها ومعناها .

وجعلت عنوان الباب الاول : « أسس الاسلام » وقسمته إلى فصـول تكلمت فيها عن :

١ – الأساس الثقافي : المجتمع العربي قبل الاسلام .
٢ – الأساس الديني .
٣ – الأساس الفقهي والقانوني .
٤ – الأساس الاجتماعي .
٥ – الأساس الفلسفي .

وجعلت عنوان الباب الثاني : « المسلم والتجديد » ، وقسمته الى فصول تكلمت فيها عن :

١ – المشكلة العامة .
٢ – المشكلة الاجتماعية : الزواج والأسرة ، التعليم ، الاقتصاديات
٣ – المشكلة السياسية : الدولة الإسلامية ، الاسلام والقومية
٤ – الفكر الجديد في الإسلام .

أما الخاتمة فقد تحدثت فيها عن موقف الشرق قبالة الغرب ، أو بمعنى آخر عن تقابل الشرق والغرب .

وفي نهـاية الكتاب قائمة مفيدة بالمراجع التي أفادت منها المؤلفة عند وضع الكتاب .

* * *

وقد جهدت المؤلفة – كما تقول في مقدمتها – ان تلتزم الحياد في بحثها ، وأن تتناول الموضوع كما يتناوله كل باحث يسعى الى الحقيقة ، فلا تحابي فريقاً على فريق آخر ، وحاولت قدر الامكان ان تلتزم الأمانة في تفسيراتها ، ولهذا هي تتوقـع أن لا يرضى عنها في بعض الأحيان القارىء المسلم أو القارىء الغربي ، ومع هذا فانها تصرح انها اضطرت احتراماً لقواعد البحث ولصداقتها العميقة للمسلمين ، واحترامهـا التام لدينهم ، ان تلتزم الحقيقة بالقدر الذي استطاعت .

والحق نقول ان المؤلفة حاولت جهدها ان تكون معتدلة ومعقولة عند كلامها عن الاسلام والمسلمين ، فهي تقول مثلاً عند حديثها عن الاسلام : « الاسلام

ليس ديناً وحسبه ، انه أكثر من ذلك - انه أسلوب من أساليب الحياة .

والاسلام كدين له قيم خاصة وخير دليل على هذا ان الدين المسيحي لم يستطع ان يجد سبيله الى نفوس الاميين والفقراء من المسلمين ، او الى نفوس المثقفين ثقافة عالية ، أو إلى نفوس القادة والساسة ، وإنك لتجد علماء الفيزياء والحيوان والرياضة رغم بلوغهم هذه الدرجة العالية من العلم ظلوا مخلصين لدينهم الاسلامي .

ومما يستحق الالتفات انه ما من واحد من الطلبة المسلمين الذين يتلقون العلم في أوروبا قد تحوّل الى المسيحية ، قد يكون بينهم من استغرب في أنماط حياته ، ولكن ليس بينهم من استنصر ، ولم يحدث هذا عن مصادفة ، ولكن له دلالته القوية ، وذلك ان الاسلام له قيمه التي لا ترضي الجاهل وحسب ، بل والتي تكفي حاجات المتعلمين والمثقفين .

ومن المثل الطيبة على اعتدال المؤلفة ودفاعها عن الاسلام وتأييدها لأحكامه حديثها عن المرأة وحقوقها في الاسلام ، ومكانتها في المجتمع الاسلامي (انظر ص ١٢٢ وما بعدها) وكلامها عن الحجاب ، نشأته وتطوره وحكم الإسلام فيه (ص ١٢٣ وما بعدها) .

ومع ذلك فإن القارىء المسلم لا يستطيع أن يرضى عن كل ما أوردت المؤلفة في كتابها من آراء ، فان فيه مآخذ كثيرة ، وفي رأيي انها لا تنفرد وحدها بترداد هذه الأفكار التي نأخذها عليها ، بل هي أفكار سمعناها ونسمعها كثيراً من عدد من المستشرقين ، وقرأناها ونقرؤها لهم فيما يكتبون ويؤلفون .

من ذلك قولها بوجود تعارض أو تناقض في القرآن [1] وتستشهد على هذا بالآية رقم ١٠٥ من سورة البقرة التي تقول :

« ما ننسخ من آية أو نُنسِها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » .

(١) انظر كذلك ص ٩٨ — ٩٩ من الكتاب .

وهذه دعوى باطلة لست أحسب أن الهدف منها بريء ، وقد فطن إلى هذا المأخذ السيد محمد ظفر الله خان ، وأشار اليه في التقدمة التي قدم بها الكتاب وناقشه وحاول أن يفنده مستنداً إلى قوله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران :

« هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأُخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب » .

والذي نعلمه ونؤمن به نحن المسلمين أن لا تناقض ولا تعارض في القرآن البتة ، ولو أن المؤلفة ومن يقول بقولها من المستشرقين رجعوا إلى المعجم المفهرس للقرآن لوجدوا أن الكتاب الكريم به نحو ٣٨٥ آية وردت فيها كلمة «آية» ، وان كلمة آية في كل هذه الآيات لا تعني فقرة من فقرات سور القرآن وإنما هي تعني دائماً :

الدليل ، والبرهان ، والشاهد ، والعلامة ، والعبرة ، والعظة ، مثل قوله تعالى :

« قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس » .

وقوله « إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » .

وقوله « وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها » .

وقوله « إن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية »

وقوله : « هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله »

وقوله : « وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين »

وقوله : « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية »

وقوله : « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة »

وقوله : « وكأين من آية من السموات والأرض يمرون عليها »

وقوله : « إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون »
وقوله : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل ... الخ

والمقصود بالنسخ في الآية التي استشهدت بها الأستاذة «إلزي» إنما هو نسخ آيات الله في كونه ، والسياق يدل على هذا بدليل أن الآية تختم بقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » .

والحقيقة أن هذا التناقض المدعى منشؤه جهـــل باللغة العربية وكتب الأصول والتفسير ، ونقصان في معرفة مصطلحات القرآن .

ومما يؤخذ على مؤلفة هـــذا الكتاب أنها حين تحدثت عن فرقة الأحمدية القاديانية التي نشأت في الهند أشارت الى القول الخاطىء الذي حاول أن يفسر به أحمد قاديان مؤسس الفرقة – قوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » من ان المقصود « بخاتم النبيين » الخاتم الذي يُختم به لا أنه آخر الأنبياء ، ولو أنها روت هذا القول على أنه قول أحمد قاديان لما كان هناك ما نأخذه عليها ، ولكنها ذكرت مـــا يفيد موافقتها على هذا القول ، بل وادعت أن القرآن يؤيده فقالت :

« The Koran itself calls Muhammad - Seal of Prophets »

انظر ص ٦٨ و ٨٦ .

ومما يعيب هذا الكتاب في نظر القارىء المسلم أن المؤلفة تتحدث عن محمد عليه السلام باعتباره مشرعاً ، وتتحدث عن التشريعات الواردة في القرآن باعتبارها من وضعه ، ولهذا تنقده وتصف تشريعاته بالقصور وعدم الشمول فهي تقول مثلاً في ص ٧١ – ٧٢ :

« ومحمد – رغم ما يمتاز به من عبقرية – لم يكن مشرعاً لتشريعات شاملة حتى داخل النطاق المحدد لتنظيماته المبتكرة – فالتشريعات الموحي بها في القرآن هي قرارات صدرت لتوائم حالات خاصة ، وتشريعاته الاجتماعية تبدو كأنها

فصلت لتناسب حاجات بيئته الاجتماعية الخاصة ، ومثل هذا القوانين المتصلة بالعلاقات الأسرية وبالزواج والميراث[1]

والكاتبة لم تنسَ يهوديتها، فهي تبدي الأسى والأسف، وتتهم الرسول عليه السلام بالقسوة لأنه أبعد اليهود عن المدينة (انظر ٤٩) مع أنها اعترفت عند تحليلها « للصحيفة » — وهي أول دستور أصدره النبي للمجتمع الاسلامي في المدينة بعد هجرته إليها — أنها أول وأقدم وثيقة في العالم تنص على الحرية الدينية ، فقد نصت الصحيفة على أن يترك لليهود الحرية في أن يظلوا يهودا .

والحقيقة أن الرسول عليه السلام قد جامل اليهود مجاملة لم يجاملها لأية طائفة أخرى، وأكرمهم غاية الاكرام، واعترف بهم — في الصحيفة — كعنصر ثالث إلى جانب المهاجرين والأنصار، ونص فيها على حريتهم الدينية، ولكنهم قابلوا هذا كله بالجحود ونكران الجميل والدسائس والمؤامرات يدبرونها ضد الرسول ، ثم انضموا آخيرا إلى الحلف الذي جمع أعداءه جميعـــا في موقعة الخندق، فالرسول إذن لم يكن قاسيا حين اضطر إلى إقصاء اليهود عن المدينة ، بل كان رحيما الرحمة كلها ، والرسول اضطر إلى اتخاذ هـــذا الاجراء اضطرارا لأنه كان في سبيله لتكوين دولة جديدة ، والثورات والدول الجديدة — في كل عصور التاريخ — لا يمكن أن تسمح ببقاء العناصر المناوئة الهدامة .

والمؤلفة — ويشاركها نفر من المستشرقين — تحاول، في أكثر من موضوع، أن ترد الإسلام الى أصول قديمة ، بعضها يهودي أو مسيحي ، وبعضها وثني ، فهي على سبيل المثال — تقول في ص ٤٩ وما يليها : إن الحـــج بصورته

---

١) ونص كلامها باللغة الانجليزية ،

In spite of his genius, Muhammed was not a systematic law giver, not even within the limited range of his original organi zation. The laws revealed in the Koran are decisions (adhoc) made to fit specific cases. His social legislation is cut to the requi - rements of his own social enviroment for instance the regulations affecting family relations, marriage and inheritance).

الاسلامية فيه كثير من الشعائر التي كانت تتبع في عهود الوثنية مثل الطواف، وتقبيل الحجر الاسود ، وهذه محاولة ماكرة ، لأن أصحابها يريدون أن يثبتوا أن الاسلام لم يأت بجديد ، بل هو مجموعة من الاصول والقواعد والشعائر اخذت عن الأديان السابقة حتى الوثنية العربية القديمة التي قام الاسلام لمحاربتها والقضاء عليها .

والمؤلفة تستعمل عند كلامها عن الاسلام بعض المصطلحات المتصلة بالدين المسيحي والنظام الكهنوتي ، فهي مثلاً عند كلامها عن أثر الدين ورجال الدين في الحركات السياسية خلال العصور حتى وقتنا الحالي تضرب أمثلة كثيرة ، ومنها ان شيوخ الازهر في القاهرة يهددون وينذرون بإصدار قرار الحرمان (Excommunication ضد أي مسلم يعقد صلحاً مع إسرائيل ، فهي تقول في ص ٦٧ – ٦٨ :

(The Azhar Sheiks in Cairo who threaten to excommunicate any muslim who would make peace with Israel ... etc)

ونظام الحرمان نظام كهنوتي عرفه باباوات وكرادلة روما في العصور الوسطى ، ولم يكن يعرفه ولا يمكن أن يعرفه الإسلام ، وإذا كان لشيوخ الأزهر من رأي في إسرائيل ، فهو أنها دولة مصطنعة معتدية دخيلة لا وجود لها من الناحية القانونية ، وكل من يتعامل مع هذه الدولة من المسلمين يعتبر خائنا لوطنه ولدينه .

وبعد ، فهذه مآخذ لا يرضى عنها القارىء المسلم ، لأنها تتصل بعقيدته وإيمانه ، والكتاب رغم هذا له قيمته فقد بذلت صاحبته جهداً كبيراً في الدراسة والبحث وجمع المعلومات ، وحاولت حقيقة ان تتفهم أصول الدين الاسلامي والأسس التي قام عليها المجتمع الاسلامي خلال العصور ، ونجحت في مواضع كثيرة في تفهم وجهة نظر المسلمين ومشاكلهم ، وإذا كانت قد خانها التوفيق عند عرض بعض النقط التي أخذناها عليها فانما فعلت مرغمة ،

وتحت تأثير رواسب قوية استقرت في نفسها،وكانت أقوى من منهجها العلمي ، ومن رغبتها في التزام الحيدة والعدالة عند إصدار أحكامها .

تلك الرواسب بعضها يرجع الى الأثر القوي للديانة اليهودية التي ولدت عليها المؤلفة ، وفي جوها نشأت ، وبعضها يرجع الى الأثر الأقوى للثقافة الغربية التي تلقتها ، وللأساتذة الاوربيين الذين درست عليهم .

ونحن إذا كنا نحب ديننا ونعمل على دراسته وفهمه فإن من واجبنا أن نقرأ هذا الكتاب وأشباهه ، فان فيه الى جانب هذه المآخذ خيرا كثيرا ، ومن واجبنا أن نترجمه الى اللغة العربية ، وأن نناقش ما يستحق المناقشة ونرد على ما يستحق الرد .

فهرست

رقم الإيداع	٢٠٠٠/٢٢٥٢
الترقيم الدولي	977-5250-76-5